فـ غدًا أحبكَ . .

رواية

ضحى خطاب

دار القلوب
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب : فـ غدًا أحبكَ . .
بقلم/ ضحى خطاب
طبعة أولى : يناير ٢٠١٨

التنسيق الداخلي : رفعت حسن سيد

تصميم الغلاف : مهندس/ معتز أحمد
دار العلوم للنشر والتوزيع

ص . ب : ٢٠٢ محمد فريد ١١٥١٨

هاتف : ٠١١٤٤٧٦٤٠٠٠_٠١٠٦١١٦٠٩٨٨

الموقع الالكتروني : www. darelоloom. com
البريد الالكتروني : daralaloom@hotmail. com
Facebook. com/darelоloom

Twiter: @darelоloom

جميع الحقوق محفوظة
رقـــم الايداع : ٢٥٥٦ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي : ٨ـ٥٥٤ـ٣٨٠ـ٩٧٧ـ٩٧٨

إن الاراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأى **دار العلوم للنشر والتوزيع**

يمنع نسخ أو استعمال أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافى والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

إهداء

إلى كل من احتضنتهم كلماتي . . ومن في الضلوع سكنوا، وعجزت عن وصفهم عَبراتي . .

طبتم أينما سكنتم . . وطابت بذكراكم أوقاتي . .

"توجد في حياة الإنسان لحظة غريبة لا يعرف كيف يفسرها، ولا يدرك سرها أبداً لكنها تصنع كل شيء في حياته القادمة.."

واسيني الاعرج

(أعلم أن نهايتي ستكون بسبب يبس رأسك هذا.)

كانت آخر ما قالته أمي قبل أن تسقط فعلاً على سجادتها الذهبية اللون، الحريرية الملمس، مزرقة البشرة، ومتيبسة الاطراف، لم أقدر على استيعاب ما حدث فصوت سقوطها كان منبهًا لكل من في المنزل ليتجمع حولي مصدرين ضجيجًا لا يترجم رأسي منه أي كلمات تحول ذلك الجمع العائلي المميز إلى كارثة تستدعي حملها للمستشفى التي ترقد الان فيها أمي في غرفة الانعاش، والكل يناظرني بنظرات لوم وعتب رغم عدم معرفتهم أبدًا بما كنا نتجادل فيه.

لم يحادثني أحد أو يسألني عمّا حدث طيلة انتظارنا في المشفى، لكن نظراتهم التي تأكلني من رأسي حتى أخمص قدمي بكل قرف وغضب تقوم مقام حديثهم، أعلم أنه سينهال عليّ سيل من السباب واللوم، هم فقط صامتون احترامًا لمن حولنا، وقلقًا في انتظار أن يطمئنوا على عافية أمي.

ماذا حدث؟حقيقة لا أعلم؛ منذ أن وعيت على الدنيا، وأي اختلاف بيننا تعتقد هي أنه سبب موتها، وارتفاع ضغط دمها، وأني سأتسبب في موتها بطريقة أو بأخرى؛ لأني فقط أعيش بطريقة غير ما تعودت.. اعتدت على كثير من مثيلات هذه الجمل:

(أنت ستقتلينني)

(ستكون نهايتي على يديكي)

(كأن أحدهم قد سلطك عليّ لتعذبيني)

(ما كنتُ مثلك أبدًا في صغري . .)

وإلخ إلخ من تلك الاسطوانة الموزعة على جميع الامهات ليسموعها لأولادهم في أوقات حنقهم وغضبهم .

انزويت بعيدًا عن أعينهم ونظراتهم في غرفة انتظار أخرى ، لكنها على مرأى من غرفتهم في انتظار صعود الطبيب كي يطمئننا ، ويسمح لنا أن نطمئن برؤيتها . . . كان أبي مسافرًا في رحلة عمل كعادته ، فقلما نراه في أرجاء المنزل ، ولازال لا يعلم بعد بأي شيء يحدث .

تكورتُ على نفسي كجنين محتم في رحم أمه ، على كرسي بجانب الباب ، كنت أرتجف ، لا أعلم إن كان بردًا أم خوفًا من أن يصيب أمي شيء أو أن أكون حقًّا سببًا في موتها .

أتراها ستموت؟!

لو كانت وافقتني على ما أريد لكانت هونت علينا كلنا ، وما وصلنا لتلك الحالة .

سالت مني دموعي ألمًا على حالي . . . على والدتي التي فقدت صداقتها . . بعد أن كانت صديقتي الوحيدة في فترة ما من عمري . . لم أكن أعي كمَّ الاختلاف بيني وبينها .

لكن كل شيء اليوم تغير ، فهي لم تعد تعرفني ، ولم أعد أعرفها ، وصلنا إلى كهف أسود مظلم ، لا نستطيع فيه حتى أن أحدثها عن يوميات بسيطة في الجامعه ، فكل حديث معها يتحول إلى منبر لخطبة مطولة ، وموشح لا نهاية له عن سوء أخلاق من حولي ، وكيف أني أتأثر بهم . .

كانها تتعمد أن تكون كل قوانينها مخالفة لرغباتي . . وكان والدي

بحكم تغيبه الكثير عن المنزل يُوكل كل قرار يتعلق بي لهـا، فمـا تقولـه هـي سيكون. . حتى وإن كان له رأي آخر فهو يطرحه كفكـرة جانبيـه لا أكثـر، لكن يوكل القـرار النهـائي لهـا، فهـي الاعلـم؛ لأنهـا مـن يعـيش معـي، ويستطيع أن يحكم على مصلحتي من وجهة نظره!

لم يعد وجودها الان في المستشفى يؤلمني، فما أكثر الامي منها، ربما آن لها أن تتألم بدلاً عني! تداركت أفكاري. .

أستغفر الله كيف لي أن أفكر في أمي هكذا،

قطع تفكيري صوت هاتفي (جنتي) يتصل بك،

تنهدت عميقًا كأني أحاول أن أحيي روحًا فقدَتها واجبت:

- ألو
- ريم حبيبتي هاتفتك كثيرًا، أين كنتِ؟
- نحن في المستشفى يا شَهاب،
- ماذا؟ كيف ولماذا؟؟ هل أنت بخير؟؟
- سقطت أمي أرضًا فنقلناها إلى المشفى، ولم يخبرنـا أحـد بعـدُ عـن أحوالها.

أكملتْ دموعي حديثي

- ستكون بخير إن شاء الله، تمالكي نفسك، في أي مشفى أنتم؟
- ذاك الذي يعمل فيه عبد الوهاب جارنا. . دور العناية المركزة،
- سأوافيك بعد أقـل مـن نصـف السـاعة إن شـاء الله. . لا تخـافي يـا صغيرة ستَكون كل الامور على ما يرام. .
- حسنًا، سأكون في غرفة الانتظار.

أنهيتُ المكالمة واعتـدلتُ مكـاني. . مسـحتُ دمـوعي، وتوجهـتُ إلى

الحمام لأعدل من هيئتي، وأقطع الوقت حتى يأتي هو، وحده هو سيداوي بنظراته جرحي، وحده يعلم أني لستُ السبب، وحده سيعفيني من نظرات اللوم، هو دوائي..

كنت أغسل وجهي وأبكي بحرقة. وأنا حقًّا لا أعلم ما يبكيني، ولا ما يضعفني.. أحسست بيد ترفع خصلات شعري وأخرى على خصري ارتميت بين هذين الذراعين قبل أن أعي أنها خالتي.. أحتاج ذلك الدفء والاطمئنان.. تعالى شهيقي، وأغرقت ثيابها أدمعي..

- بسم الله عليكِ يا ابنتي.. اهدئي ستكون بخير.. تعلمين أمك تحب إفزاعنا.
- ما بها يا خالتي، هي لا تنفك تردد أنها ستموت بسببي، لكن شيئًا لا يحدث، لم اختارت اليوم لتحققه؟!
- أستغفر الله دعي عنك هذا الحديث، أعوذ بالله من كل سوء يصيبها ويصيبك، ستكون بخَير إن شاء الله، مالذي أوصلها لهذا على أي حال؟
- كالعادة شهاب.. وكعادة صريخها لم يتغير شيء سوى سقوطها
- عسى الله أن يهديها لكِ.. لا تقلقي..
- هو في طريقه إلى هنا.
- لا بأس المهم أن لا تراه.. وإلا قتلتنا جميعًا.

ابتسمتُ رغمًا عني.

- دعي الحزن عنكِ يا جميلة.. الله أرحم بها منا.

طمأنتني خالتي، لطَالما كانت هي درعي الواقي من شرر غضب أمي المتناثر عليّ في كل حين..

عدتُ لغرفة الانتظار بلونها الاصفر المستفز، الا ينبغي أن تكون ذات لون دافئ يمد الإنسان بالراحة لا لون صارخ! صرفت نظري عن الجدران أقلبه بحثًا عن أي شيء يريحني في هذه البقعة..

أول ما وقع نظري عليه هو شهاب، وهو يسلم على خالي الذي ما إن رآني حتى توجه نحوي مباشرة، وسحبني من يدي خارج الغرفة..تبعته كطفلة صغيرة تجرها أمها من يدها.

ما إن ابتعدنا قليلاً حتى ارتميتُ بين ذراعيه، أشتهي وطنًا بعد الضياع.

همس في أذني.. أنا معك لا تخشي شيئًا..

رُدت لي نصف عافيتي بهمسته.. سكنتْ عيني الحائرة بعد أن استلقت على ملامحه، تمتد منها أمانها.. هدأ تقطع أنفاسي..واطمانتْ نبضات قلبي..

شاركني تلك المكنة التي كنت أتقوقع بها وحدي..

أسندت رأسي على كتفه، واعتصرت كفه بكفي.. خوفًا من أن أفقده، أغمضت عيني، يرعبني ذلك الشعور بالأمان لوجوده أثناء خوفي على أمي، أخاف أن أطمئن، وأكاد أجن من شدة ذعري..

- أغفي قليلاً.. سأوقظكِ ما إن يأتي الطبيب..

همس شهاب..

تجاهلتُ قوله.. لا يعلم هو كم الهم الذي أحمله.. لا يعلم أي خيار قد خيرت.. لاترافقه هو نظرات لوم أينما يولي وجهه.. لا باس.. لا داعي لأن يعلم الان..

لطالما كنت فتاة شقية.. مشاغبة.. صاخبة.. ضحكتي ترن كجرس الكنيسة، ويظل صداها داويًا خلفي.. لدي الكثير من الاصدقاء.. لم

أجلس في مكان الا وقد شاغلتُ كل شاغليه . . فتارة أثني على ثوب إحدى الفتيات، أو على طريقة لعب أحدهم في الشطرنج . . كنت أفتعل الحديث مع أي غريب . . لأكون صداقات وعلاقات اجتماعية شتى . . حتى في الايام التي لا أحدث فيها أحداً . . ينهال الناس من حولي يفتعلون الاحاديث معي . . كأني مغناطيس جاذب لكل أجناس البشر . .

جنبني نمط حياتي هذا الكثير من الوحدة، فأنا فتاة وحيدة، أعيش في بيت كبير، خاو من أي أصوات سوى نقر أمي على حاسبها الالي . .

لم أعتد يوماً حياة أمي الهادئة وعزلتها عن الكون أجمع سوى إخوتها . . لم أفهم يوماً ذلك التوحد الذي تعيشه، ولم تفهم هي يوماً حبي للناس بمختلف أجناسهم . .

رغم كثرة من أعرف الا أنه كان لي دائرة هي الاقرب لي . . مكونة من ثلاث فتيات وصبيين . . ورغم كثرة سهراتنا الا أننا كنا دائماً ما نتردد على مقهى قريب من الجامعة . . كان محل اتخاذ قراراتنا كلها، وهو نقطة التقائنا واجتماعنا دون أي موعد . .

أعرف كل الوجوه التي تكثر التردد هناك عدا وجه أسمر أجعد الشعر عريض المنكبين، ترتسم على شفتيه تجاعيد كأنه يضم شفتيه في حنق شديد . . يجلس دائماً وحيداً في زاوية المقهى . .

لم أحاول يوماً مشاغلته أو توجيه أي نوع من الحديث إليه . . فهو مريب المظهر، لم يرافق أيًّا من أصناف البشر يوماً، ولم يغير نوع القهوة التي يطلبها، حتى مظهره يكاد لا يتغير، هو فقط يغير الكتب التي يتأبطها بين حين وآخر، وأكاد أجزم أنه لا يعلم عمّا تدور هذه الكتب، فعيناه طوال الوقت معلقة تجاهي بشكل يزيد من رعبي وتوتري كلما التفتُ تجاهه . . .

تعالت أصواتهم في الغرفة الاخرى فوجدتُ شهابًا يهزني . .

- يبدو أن الطبيب قد أتى . . قومي بنا نرى ما يحدث .

ذهبنا إلى الطبيب . . لم تكن ملامحه توحي بخير .

بادرني شهاب بالحديث . . طمنّا يا دكتور ، هذه ابنتها . .

التفت لي الطبيب وكأنه يحاول أن يخبئ خبرًا أسوأ تحت ابتسامة صفراء .

- أهلا يا ابنتي هّلا رافقتني؟

رافقته مع نظرات تعجب على وجوه الجميع ، وشهاب يهز برأسه مطمئنًا أن لا تخافي .

- طمئني ماذا هناك لمَ لَمْ تتحدث على مسمع الجميع؟

- ما اسمك يا جميلةَ؟

- اسمي ريم .

- أخبرتهم قبل أن أرافقك أن كل شيء على ما يرام ، وكدت أسألهم ما أريد سؤلك إياه لكنكِ ظهرتي ، وأظنكِ ستكونين أعلم من الجميع بما أريدَ معرفته . .

زاد حديثه من توتري حتى كدت أعتصر كفّاي ، حاولتُ أن أتمالك نفسي واسترسلت . .

- تحت أمرك فيم تريد أن تسال؟

- ماذا تعمل والدتك ، وكيف كان نمط حياتها . . ؟ هل كانت مدخنة أو تشرب الكحوليَات مثلا؟

- أبدًا أبدًا . . أمي تعمل في مكتب للهندسة هي مديرته ، لا تعاني من الضغوط أو هذا ما تظهره . . لم تتذمر يومًا من ثقل العمل ، كما

أنها لم تكن مدخنة، ولا تشرب الكحوليات أو حتى المنبهات أبدًا. . لم تكن حياتها ذات نمط صحي ممتاز، لكنها لم تهمل أيضًا، ولم تعاني يومًا من أي أمراض سوى نزلات برد متباعدة. .

- يؤسفني أن أبلغك أن ما تعرضتْ له والدتك هي سكتة قلبية لأسباب مبهمة حتَى الان، فهي عضويًّا فعلاً لا تعاني من أي أمراض في القلب أو حتى ارتفاع في الضغط، وكنت أعول على ربما الكحول، لكن نفيك لهذا الان يعيدنا حيث كنا. . قد تكون تعرضت لإجهاد بدني أو نفسي شديد أدى إلى ذلك. .لكن نحمد الله فسرعة نقلها إلينا قد ضاعفت فرص نجاتها من السكتة. .

أطرقت رأسي في خجل وألم شديدين:

- ـ نعم لقد احتد جدالنا كثيراً. .أيمكنني رؤيتها أرجوك؟
- هي منومة تحت تأثير الادوية الان. . بمجرد أن تفيق يمكنكَ رؤيتها. . لكن بشرط أن لا تثيري أعصابها. . نحتاج هدوءها حتىَ تستقر حالتها. .وإن بادرتك في أي مما كنتم تتجادلون فيه. . قومي بإلهائها أو إنهاء الحديث بماَ يريحها. . وإلا سأضطر لإخراجكَ ومنع الزيارة تمامًا حتى تستقر. .
- إذن أنا حقًّا سبب كل ما هي فيه الان؟
- يسبب الله الاسباب لينفذ قدره يا ريم. . أستاذنكِ لأباشر عملي. .

لم تعد قدماي تحملني على الوقوف. . أنا أفقد أمي كيلا أفقد قلبي. . . !

أي خيار هذا. . أي حياة هذه. . أي عدل هذا؟!

جاءني خالي بوجه عابس: عم حدثك؟

كان يسألني عن نمط حياتها، وسألنيَ أن نبقيها بعيداً عن ما يثير أعصابها. . حين تفيق.

- نثير أعصابها. . هو فعلا كان يعنيك. .

رغم أن خالتي هي أول من يحتويني وتحبَني كما كنت من حشاها. . الا أن خالي عكس ذلك تماماً، فهو جامد صارم، له قوانين لا يحب خرقها، ولا يحب تدليل كل من في العائلة لي، ولا يحب الرفاهية التي أعطتها لي أمي. . هو مقتنع أني مفسدة من كثرة الدلال، اعتدت قسوته عليّ، تركته وذهبت إلى شهاب أخبره وأنا أدعي الصلابة:

يكفيك عذاباً. . أخبرني أنها على وشك الاستيقاظ، وهو متفائل بأن حالتها ستستقر، يمكنك أن تعود إلى المنزل. .

- لن أحرك ساكناً حتى نغادر كلنا سوياً. .

- أرجوكَ أن تغادر. . أمرني الطبيب بأن نبعدها عن كل ما قد يثير حنقها، وأخاف أن يزل أحدهم ويخبرها أنك هنا، أرجوك يكفيني ما هي فيه لا تحملوني أكثر من هذا. .

قال بصوت يكاد لا يسمع وهو يمسح دموعي من وجهي:

- حسناً لا بأس سأغادر. . أنا آسف آسف على كل شيء. .

طبع قبلة على جبيني واختفى تاركاً عطره ونيساً لي. . .

عدتُ أجر قدماي إلى مكاني، وخيوط من الذكريات تغزل أمام عيني. .

حاول الكثير من أصدقائي لفت نظري لذلك الغجري القابع في زاوية المكان وعيناه متسمرتان عليّ. . وحاولت قدر المستطاع أن أدعي الجهل

بوجوده أو بنظراته خوفًا من أن تجن إحداهن وتدعوه للانضمام إلينا ذات نهار . .

لكنه كان يدرس بحرص تلك اللحظة التي سينضم إلينا فيها . . وبالفعل كان نهار جمعة، وكنت أشعر بوحدة شديدة في المنزل . . فتوجهت للمقهى بحثًا عن أي ونيس، ورغم أنه يوم إجازة، وقلما نتردد هناك نهار الاجازات . . الا أني وجدته يقبع في نفس الزاوية يحمل نفس الكتاب الذي يتأبطه من شهر مضى . .

ترددت قبل أن أجلس وحدي . . ثم ادعيت اللا مبالاة . . أوليته ظهري، وجلست، وأنا أشعر بعينيه تكاد تحرق ظهري وتخترقني . .

لم يمضِ الكثير حتى وجدته يسحب الكرسي المقابل لي ويهز رأسه كأنه يعتذر عَن جلوسه . .

لم أستطع النطق أو الرفض أو المغادرة حتى . . فضولي يقتلني لأعرف ما سيحدث . .

ادعيت انشغالي باللعب في خصلات شعري الكستنائية . . أعلم كم هي جذابة حين تنعكس عليها الشمس . .

سحب يدي من بين خصلات شعري بقوة، وقال بصوت خشن زاد من خوفي منه :

كفاك ادعاء . . أعلم أن بداخلك ألف سؤال . . وأنك تودين بدء هذا الحديث ربَما أكثر مني . .

فغرتُ فاهي من فعلته . . كدت أصب كأس الماء على رأسه وأغادره أو ربما أصفعه . . لكني لم أفعل . .

اعتدلت في جلستي، ورسمت نصف ابتسامة على إحدى جانبي فمي محاولة الاستهزاء من ثقته تلك . . ثم قلت في دلال مصطنع :

إذن ابدأه . .

بدأ في الحديث عن نفسه . . كان ثقيلاً شامخًا تخرج الحروف من فاهه كأنها بيوت شعر منظومة . .

يتحدث عن نفسه فتشعر كأنك أمام جبار من جبابرة الكون . . ثم ذكر شيئًا عن والده ففاضت عيناه ببحر من الدموع يجعلك ترق، كما لو أن طفلاً لم يتعد الشهرين قد أبكيته . . لم أقدر على مقاطعة حديثه لحظة . . ولم أنس كلمة مما قالها . . ولم أستطع أن لا أستمع لحديثه يومًا بعدها . .

ازدادت زياراتي للمقهى في الاوقات التي أعلم بانشغال أصدقائي بها . . وفي كل مرة كنت أجده في نفس الزاوية على نفس الكرسي، غير أن تجاعيد شفتيه قد اتسعت لترسم ابتسامة هادئة تنير وجهه المظلم كشعلة في قلب كهف تنعكس على جدرانه لتغالب وحشته . .

لم يمض الكثير بعد رحيل شهاب، وأنا في أوهامي أراهم يتحركون كالدمى ولا أَسمع أو أعي شيئًا مما يقال حتى خرج الطبيب يخبرنا بأنه يمكننا الدخول لرؤيتها .

طرتُ فرحًا . . وقفت بجانبها، وتلمستُ أصابع يدها التي كانت كما لو أنها جثة في ثلاجة الموتى من برودتها وشحوبة لونها . .

تغيرت ملامحها كثيرًا كأنها في الساعات الماضية شاخت عشرين عامًا،

اصطف إخوتها من حولها يطمئنونها ودعواتهم كريح طيبة تلف الغرفة تحميها من كل سوء . . لكنها لم تكن تستجب لأي منهم، كانت تدمع عيونها في صمت دون أن تنبس بكلمة .

كادت تقتلني دون أن تنطق . .

رفعت عينيها تجاهي وقالت : دعونا وحدنا . .

خرج الجميع وعيونهم تطلق شرراً يتوعدني.

قبل أن تتحدث سابقتها وقلت:

أمي سأفعل كل ما تريدين، أرجوكِ فقط تعافي وكوني بخير لنعود إلى المنزل، أقسم أني سأحقق لكِ كل ما تتمنين أرجوكِ لا تغادريني.. لا تدعيني الان لا تتركيني وحيدةَ أرجوكِ.

بللت دموعي كفها وأنا أضع يدهَا على وجهي وأقبله،

قالت في حزم كأنها لم تسمعني...

ريم، هاتفي والدك.. أريد أن أراه..

إياكِ أن تظني يومًا أني أكرهكِ أو أباعد بينكِ وبين ما تحبين.. أعلم أنكِ لا زلتِ على علاقة به.. وشتَ بكِ خالتكِ منذ فترة.. أني أحافظ على قلبكِ يابنتي، لو تعلمين ما أعلم لخَفتي مثلما أخاف..

وصمتت أمي وغارت عيناها، فزعت لمنظرها كثيراً، وناديت على الطبيب. أخرجوني من الغرفة وازدحمت بالممرضات لم أدر ما حدث أو ماذا يحدث، وقفت بفزع كثير لقرابة الساعة وأنا لا أعي ماذا يحدث

حتى خرجت ممرضة من الداخل وقالت:

والدتكِ في غيبوبة.. نأمل لها الافاقة سريعًا..

فقدت وَعيي لبضع دقائق، أفقت ورأسي على رجل خالي، وهو يقول:

أنتم عائلة منكوبة.. الا يكفينا أمك؟

- أفعلاً ما حدث وهي في غيبوبة؟

- نعم يا ريم.. ادعي لها.. لقد هاتفتُ والدكِ وهو في طريقه إلى هنا الحمد لله أنه كان في الاسكندرية هذه المرة..

- ـ طلبت مني أن أهاتفه، أرادت رؤيته. . لا أعلم ما أصابها، لقد وعدتها بأن أفعل ما يرضيها. . أقسمت لها بأني لن أفعل شيئًا مما يغضبها مرة أخرى، لِمَ مرضت ثانية، لِمَ غادرتني الان، لِمَ يحدث كل هذا يااارب؟
- اهدئي وآمني بقضاء قد نفد. . قومي صلي فنحيبكِ لن يفيدها بشيء. .

لم أعرف في أي أرض أستقر، ظللتُ أحوم في غرفة الانتظار حتى جذبتني إحدى بنات خالتي من يدي وأخذتني معها إلى الحمام، وقالت: توضئي سنذهب لنصلي وندعو لها ونرتاح قليلاً في المصلى حتى يأتي والدكِ فجراً. . تمالكي نفسك. . هي تحتاجك قوية. .

قضينا ما لايقلَ عن أربع ساعات في المصلى تتعالى الهمسات والصلوات والدعوات من كل صوب. . لم نكن وحدنا كان هناك الكثير من المنكوبين مثلنا. . الكل يبكي، الكل يدعو، الكل يتضرع، اختلطت الدعوات والهمسات، كم شهدتْ تلك الجدران من مآس؟!. . كنتُ أتلعثم في قراءة القرآن رغم دراستي للعربية بكل تفاصيلها، وكنت أسبق سجودي بركوعي لولا تنبيه سما لي لفسدت صلاتي كلها. . ولا أعلم أن كان من هول ما أعايشه أم أن غيابي عن كل هذا أنساني كيف تكون العبادة، كيف الدعاء، لم تقصر أمي في عبادتها ودعائها يومًا، لكن حالها كان كحال الجميع، في هذه البلدة من يتخطى عقده الرابع فقط هو من يصلي، هي من تتحجب وتخاف قرب موتها وحسابها، لكن أولادها مازالوا صغاراً، عليهم أن يستمتعوا بالحياة كما هي، ومنهم من يحاول أن ينقذهم معه، لكن مع أول حالات التمرد يبدؤوا في الاستسلام ويقتصروا

بالدين على أنفسهم، وكنت أنا في هذه الخانة تمردت فاستسلمت هي للوضع كما هو . . طالما أنا بعيدة عن المخدرات والكبائر ، جعلني ما أعايشه في حالة مغيبة أبحث وأتأمل كل تفاصيل الحياة كان التأمل هو ملاذي الوحيد للهروب من كل هذا التوتر، حتى تغفو عيناي، ثم يطاردني الواقع في أحلامي فأصحو في فزع على دموعي تتسابق على وجنتي . .

لم أجب أيًّا من اتصالات شهاب، كانت سما ابنة خالتي تجيبه تطمئنه حين يكثر اتصاله .

اتصل خالي بنا ليخبرنا بأن أبي معه في غرفة الانتظار، وأنهم سيسمحون له بالدخول عندها . . في حال أردت أن أرافقه

صعدت لأبي أسابق بخطواتي سيل دموعي . . ارتميت بين ذراعيه حتى تلاحمت دموعنا . . لم أر أبي يبكي يومًا حتى عندما فارقت والدته الحياة، كان لسان حاله : أنا لله وأنا إليه راجعون . . .

أحببتها يا أبي حتى أبكت عيناك؟

أحببتها حتى كسر ظهرك وبان ضعفك لمرضها . . .

ركعت على ركبتي عند رجلي أبي وجعلت أقبّل حذاءه :

سامحني يا أبي أنا السبب في كل هذا، أنا من أصابها بالمرض، سامحني يا أبي ياليت ربي يأخذني ويتركها، سامحني أرجوك .

انحنى أبي . . وقبل رأسي وقال :

أنت قطعة منها، وحبي لكِ لا يقل عنها، كلاكما دنيتي، أبعد الله الشر عنكَما، أنتما الاثنتان . .

عودي إلى المنزل لا أريد أن تبقي هنا أكثر من هذا سأطمئنك وأعلمك بكل المستجدات، أرجوكِ عودي ونامي، هنا ليس مكانًا لك . . يكفيكِ ما

شهدتي . . السيارة بالأسفل هاك المفـاتيح . . أن كنـت لا تريـدين إغضـابي حقًّا فلا تجادليني وغادري . .

كان صوته متهدجًا . . وحديثه متقطعًا . . ويقلب عينيه في كل صـوب محاولاً أن تبقي جفناه على ضعفها فلا . . تتناثر على وجهه .

طبع قبلة أخرى على جبيني . . ورافق الممرضة إلى غرفة أمي . .

أمسكت بمفاتيح السيارة وظللـت أتأملـها . . مـاذا عسـاي أن أفعـل في منزل والديّ دونهما . .

لعل أبى يكرهني لأني السبب فيما هي فيه ، ولا يريد أن يرى وجهـي ، هو بالتأكيد لا يحتمل رؤيتي . . رفضـت أن تـرافقني ابنـة خـالتي . . وددت كثيرًا أن أجلد نفسي على بعد عن مرأى أحد .

حملت نفسي دون أن أحدث أحدًا ، وانطلقت في السيارة ، كانت أشـعة الشـمس تشـق طريقهـا في السـماء محيلـة في طريقهـا السـواد والظلمـة . . والعصافير تتغنى بيوم جديد .

أي يوم تتغنـون بـه . . أنـه يـوم بـدون أمـي ، بـدون صـوتها ، بـدون ابتسامتها ، حتى بدون غضبها وصريخها عليّ ، ليت أشعتك يا شمس تخترق ظلام هذا اليوم الذي لا ينتهي ، ليت حرارتـك تـدب في عـروق أمـي الحيـاة والصريخ مرة أخرى ليتني لم أولد . . ليت شيئًا لم يكن . .

قُدتُ كثيرًا ولم أتنبه الا وأنا تحت منزل شهاب الذي لا يبعد كثيرًا عـن منزلنا . .

كان أبي دائمًا يعامل سيارته كأنها تعلم فيم نفكر ، وتعـرف طريقهـا ، وحدها ، وأنها هي دائمًا تأخذنا حيـث تظـن ، إننـا نحتـاج أن نكـون ، فهـي رفيقتنا تتواصل بنبضاتنا فتعلم ما نحتاج . . كنت أؤمن كثيرًا بفكرتـه هـذه ، رغم أنها ليست الا ضربًا من الخيال . .

لعلها تظن أنني أحتاج إلى شهاب الان.

لكني عاملته بطريقة مشينة في المشفى.. لا بد وأنه غاضب مني الان، لم أقصد إغضابه لكني حملت فوق طاقتي، وكان هو من صببت عليه قليلاً مما حملت..

تاهت عيناي تتأمل ذاك القصر العظيم الذي تركه له والدهم.. لو رأته أمي لأحبته، لطالما أحبت هي الطرازات الاسلامية حين تستخدم في المنازل.. كل البيوت المجاورة صممت بطريقة حديثة، واعتمدت الالوان الرمادية والأسود على الاغلب! عدا بيتهم فهو لون أبيض مشرب بصفرة.. جميع نوافذه مشربيات بُنية والخضرة تحيط سور المنزل كله، وكل المشربيات تتدلى منها الزرع والورود الزهرية.. كان منظر البيت بانعكاس أشعة الشمس وحده يبعث راحة في النفس.. لكنها كانت راحة لحظية ما أن تلاشت وعاد ناقوس ضميري يصم أذني.. حاولت أن أقيم لنفسي محكمة أجلدها وأعنفها.. فلم أعلم من أي القضايا أبدأ.. أهي أمي الملقاة على سرير أبيض كنقاء قلبها.. أم شهاب الذي لا حيلة له.. أم ثيابي المبللة بدمع أبي وكأنها دماؤه وكأني قتلته.. لم أجد لها بُدًا سوى إعدامها..

فغيابه سيزيح عنه هم إرضاء أمي وسيعيد أمي.. وإعادة أمي ستعيد أبي.. لكن غيابه في الاصل سيقتلني..

بالتأكيد سيقتلني.. كيف لمن تعلم الطيران أن يعاود الزحف على الارض متناسيًا تحليقه بين السحب.. كيف لي أن أعيش حياة بلا ألوان بعد أن جاء هو ولون كل ما كان من حولي..

لم يثمر جلد نفسي عن نتيجة سوى الكثير من الدمع والألم الذي يعتصر صدري.. حاول جسدي إنقاذي من نفسي فحملني في نوم عميق أسكت ضجيج رأسي لبعض الوقت.

ونسج أحلامًا هادئه، تعود فيها أمي تعود وتسامحني على كل ما مضى. . تعود فأخبرها أني أحبها. . تعود فلا أميتها ولا تميتني بغيابها. .

أيقظني من نومي صوت قرع على زجاج السيارة خُيِّل إلي أنه عيار ناري، فقمت في فزع لا أعلم أين أنا. . كان شهاب الطارق وهو يشبه سريره تمامًا أشعث وباهت اللون.

ترجلت من السيارة. .

- ماذا تفعلين تحت هذه الشمس الحارقة. .
- أخرجني أبي من المشفى، ولم أستطع أن أعود إلى المنزل. . وحدي.
- كم مكثت هنا من الوقت؟
- ليس بالكثير. .
- تبدين كأنك هنا منذ الازل. . تعالي إلى الداخل. . أمي متواجدة،

رافقته لأعلى. . كانت أمه تعد الافطار ما أن رأتني حتى تركت كل ما يشغلها واحتضنتني، وقالت لا تخافي ستكون بخير أن شاء الله. .

تحركتْ شفتاي وربما انفرجت ابتسامة طفيفة. .

اعتذر شهاب نيابة عني، وأخبرها بأن ترسل لنا الافطار مع الخادمة في الاعلى.

قادني إلى غرفته. . كل ما فيها أبيض حتى الجدران بياضها ناصع كأنها دهنت للتو. . أحفظها جيدًا. . كانت ملاذي في أيام خلافاتي مع أمي. . وها أنذا ألوذ إليها اليوم أيضًا. . رغم قسوة والدتي ورفضها المبهم لشهاب الا أن والدته أحبتني، ما أن رأتني ولم تتوان يومًا عن إسعادي وتهيئة كل السبل لتزيد من محبتنا. . لم تتعامل يومًا كأي حماة كأني أود اختطاف ابنها

من بين أحضانها، كانت صديقة لي، وأما حين غابت عن صداقتي أمي. . أخبرني شهاب عنها كثيراً، عن تغيرها الجذري في محاولة منه بأن يخبرني أنها مراحل، وأنه سيحين وقت لأمي أن تصبح كوالدته. . لكنها تعلمت الدرس قاسيًا. . فما أن توفي والده وعانت غيابه، وعانت الامرين في وحدتها حتى استطاعت أن تعطي قلبها لابنها، وتدرج الامر لأن تكون ألطف وأحن مع جميع من يحيطها أصبحت أحن وأكبر قلبًا بعد عمر من القسوة والخلافات مع والده وبُعدها التام عنه. . أخبرني أن الفقد علمها العطاء بعد أعوام من قسوتها وفراغها، امتلات روحها حين أصبحت وحدها هي وشهاب، أخبرني أنها تكفر عن تقصيرها في حق والده ببقائها عزباء حتى تموت، وهي لا تعترف بهذا الا في حالات نادرة من الشجن تصيبها فتهذي وسط نحيبها، وتظل تنادي على زوجها راجية منه أن يعود إلى المنزل. . رغم جمالها وغناها وكثرة الراغبين في الاقتران بها بأن تظل وفية له حتى تلتقيه. . عملت في التسويق هي لفترة من عمرها قبل وفاة والده، وكانت كثيراً ما تساعدني في دراسة مواد التسويق في جامعتي، هنا تمامًا على مكتب شهاب. . كانوا أسرة سرية لي لم يعلم عن كل تلك المغامرات سوى خالتي. . لم أقوَ رغم كل شيء على إخفاء الامر عن الجميع، لكنه والله ما كان خوفًا بقدر ما كان سعادة بذلك المأوى الذي يحتضنني بعيداً عن صريخ أمي وانشغالها في عملها المتعمد بعد كل مشادة بيننا.

حدثتُ شهاب عن تفاصيل مشادتنا، وعن ما أخبرتني إياه أمي في المشفى.

صمت طويلاً صمتًا لم أفهمه، ثم قام من مكانه، وأحضر مفتاحًا وأعطاني إياه وقال هذا ملكٌ لكِ.

كان مفتاحًا ذهبيًا محفوراً عليه الاحرف الاولى من اسمي .
ر . ر (ريم رفعت) .

- من أين لك هذا؟ ولم تعطني إياه ولم أحرف اسمي محفورة عليه كما تكتبها أمي؟
- أتذكرين ذلك النهار المبارك، كما أحب أن أسميه . . حين قبلتْ والدتك أن تراني في نفس المقهى الذي تعارفنا فيه؟
- نعم . . بالتأكيد أذكره
- كان هذا المفتاح بداخل القرآن الذي أهدتني اياه . . ظننت في البداية أنه مجرد رمز كأنه مفتاح قلبك أو ماشابه . . وأردت إعطاءه لك أو سؤالك عنه كثيراً لكني نسيت . . أظن أنه يجب أن يكون بحوزتك منذ البداية .

لن أنسى ذلك اليوم ما حييت . لا زلت أؤمن بأن أمي قد كانت ممسوسة ذاك النهار . . فهي من المؤكد لم تكن بكامل وعيها . .

كان نهاراً جامعيًا، وكنت على وشك الانتهاء من تلوين وجهي بمختلف الصبغات . . حتى قاطعني صوتها هادئًا . . رتيبًا كأنها تسأل عن مكان جهاز تحكم التلفاز مثلاً!

أين يسكن ذلك المدعو شهاب؟

توترت كثيراً ولم أستطع مجاراة هدوئها . .

بعيداً قدر المستطاع . . لم؟ ستغتالينه؟ .

ليس الان . . سنتناول الغداء برفقته . . قالتها وابتسامة ماكرة ترتسم على شفتيها الصغيرتين، ولم يفقد صوتها رزانته . .

ستسمين طعامه؟ ما حاجتك منه، أخبرتك مراراً أني ما عدت أحادثه . . دعيني أكمل تجهيز نفسي فقد تأخرت على الجامعة .

- حسنًا . . أنت الخاسرة . . وددتُ حقًا لقاءه، يبدو أنه لم يكن فعلاً مقدراً له أن يتزوجك . . اذهبي لجامعتك أنت محقة، الجامعه أهم،

تركت الماسكارا التي سقطت لتلوث السجادة وأمسكتها من كتفها وهززتها . .

أنت جادة؟ أحقًا تودين لقاءه؟ هل أنت مريضة؟

لا تهزئي بي أرجوك

- لا يعني هذا موافقتي على أي من أفعالك، ولا يعني أني سأتمم الموضوع . . هي مجرد مقابلة لا تعني شيئًا، وأرجو أن تعلميه بهذا ليحد من سقف طموحه . .
- لا يهمني . . سأهاتفه الان،
- ألم تكوني ستذهبين للجامعة .
- جاوبتها وتكاد الضحكة تفلت مني . . لا يهم، لقد تأخرت كثيراً بالفعل . .

تجمعنا سويًا، كان قلبي يرقص فرحًا أنها أخيراً قررت أن تقابله،

جلست تحدثه عن الاخلاق والقيم والدين كثيراً، كانت تحب المواعظ أمي، وتحب أن تعظني، لم أتخيل أن تعظه، كنت أظنها ستقتل فضولها بأن تسمعه هو وترى من حاز على اختياري .

لكن يبدو أنها التزمت بحكمها السابق عنه . . لم أتضرر من مواعظها أيضًا، كان يكفيني أنها تنازلت ورأته . . ومعنى أنها تعظه أنها تريده أن يكون صالحًا لي . . أو هكذا ظننت!

تعامل شهاب معها بعقلانية شديدة، وتقبل منها كل النقد والموعظة بهدوء وابتسامة . . كانت عيناني متسمرتين عليه، وابتسامة بلهاء تكاد تشق وجهي .

أحببته أضعاف ما كنت أحبه وقتها . . .

لم تلد البطون بعده رجالاً، ولن تتزوج النساء بعده الا أشباه رجال فقط . . فهو الاوحد في هذا العالم . . ومنّ الله عليّ أن يكون لي . . لولا رفض أمي . . !

أعطته في نهاية اليوم مصحفًا وأخبرته أنه أن اتخذ هذا طريقًا فسيهون عليه كل الطرق . .

أخذت المفتاح وظللت أتامله كثيرًا . .

علقته في سلسلة أهدتها لي أمي قبل ثلاثة أعوام، كانت لا تفارق عنقي أبدًا هلال من الذهب الابيض يحيط قلبًا مرصعًا بالألماس، أهدتها لي في رمضان . . قالت أن هذا هلال رمضان، وقلبها الذي أسكن فيه . .

اقترب وطبع قبلة على المفتاح الملقى على جيبي . .

هاتفتُ والدي علّي أجد منه خبرًا يسر . .

لكن لا جديد، لم يتغير من حالهم شيء، الكل عاد إلى منزله وهو نائم بجوار سريرها في الغرفة . .

أخبرته بأني سأحضر له بعض الثياب في المنزل، لم يوافق أو يرفض، لم أكن أميز كلامه أصلاً من كثرة بكائه ونحيبه . .

ياويلي ما كل هذا الحب يا أبي . .

أصرت والدة شهاب على أن لا أغادر، لكن باءت محاولاتها، بالفشل شهاب سيغادر لإنهاء بعض الاعمال . . وأنا لا أستطيع الحديث الا معه . . أنا بعيدًا عنه جثة هامدة حزينة بلا أم . . .

أوصلني إلى منزلي على أن يعود لنقلي إلى المشفى في تمام السادسة، قبل رأسي قبل أن أغادره . .

نامي يا عمري عسى الله أن يرفع عنها ما أصابها ويسعدكم . .

دخلت إلى المنـزل بخطـوة متقدمـة وأخـرى متـأخرة . . اعتـدت المنـزل خاويًا . . لكنـه اليـوم خـاوٍ حتـى مـن أرواحهـم . . عبقهـا في كـل أرجـاء المنزل . . ولازالت الكؤوسٌ من ليلة البارحة مكانها ، ولا زال كأسـها يشـي بمكان سقوطها ، يلوث سجادتها الحريرية المفضلة . . كانت لتجن أن علمت بأنها تلوثت بتلك البقعة . .

تحسست مكـان سـقوطها علـى السـجادة ، وظللـت أبكـي ، وأعتـذر لعطرها الملتصق بشعيرات السجادة الحريريـة حتـى غفـوت علـى حـالي في سبات .

لم يوقظني منه سوى صوت هاتفي ، وهو يخبرني أنه سيتحرك متوجهًا إلى منزلي بعد خمس دقائق .

قمت مسرعة . . جهزت حقيبة والـدي ، ورفعـت خصـلاتي الذهبيـة التي فقدت رونقها . .

جلست في غرفة الانتظار طويلاً يمسك شهاب يدي كأنـه يمسـك قلـبي كيلا يسقط . . ننتظر خروج أبي أو السماح لي بالـدخول إلـيهم . . ظللـت أتأمل الوجوه الواجمة حولنا . . الدموع الصـامتة . . عجـوز شـقت الـدموع طريقًا على وجنتها . . وشاب نحيل تكاد تتشقق الجـدران لنحيبـه . . وامـراة تغرق في نحيبها بينما ترسم ابتسامة مصطنعة تطمئن بهـا طفلتهـا الـتي تلـهو بألعابها ، وتبكي كلما التفتت لتجد دموع والدتها . .

ما إن وطئـت قـدمي الغرفـة حتـى أشـار الطبيـب بـأن هنـاك تغـيراً في مؤشراتها ، تهلل وجه أبي الذي تورم مـن كثـرة بكائـه ، فعلمـت أن هنـاك تحسنًا . .

بدأت عيناها تتفتح، ألقيت بالحقيبة على الارض وذهبت إليها.

ابتسمت حالما رأت والدي، ولمعت عيناها،

ـكيف حالك؟

لم ينطق أبي بكلمة، كانت دموعه تغرقها و، هو يردد: الحمد لله، الحمد لله.

ظل يمسح وجهه في رقبتها، ويقبل رأسها كمن يتبارك بمقام أحد الشيوخ..

- مابكَ.. أعتذر أني طلبت عودتكَ على وجه السرعة أعلم أنك تكره المفاجآت.
- لا بأس حبيبتي.
- انهيتَ اجتماعكَ على خير.. وأخذت ما أردت من علاء؟
- نعم نعم لم يبق سوى أن نطمئن عليكِ..
- التفتت إليّ وقالتْ أهلاً يا شقية،
- ثم التفتت تجاه أبي مرة أخرى.
- صدمُت أنا ووالدي، وظللنا نتبادل النظرات فيما بيننا، والطبيب الذي أشار أن نتعامل بشكل طبيعي.

جلستُ بجانبها وأمسكتُ يدها:

ألبسك الله لباس العافيه يا أمي.. عودي سريعًا.. المنزل موحش دونك كثيراً..

كان أبي يناظرنا، وعيناه لا يجف دمعها.

وابتسامة ترتسم على وجهه.

أمسكتْ أمي المفتاح المعلق في عنقي، وقالت:

أحسن صنعًا . . أنه لك . .

إنه أنسب وقت . . أنا على وشك المغادرة . . لا بد أن تفهمي وتعلمي ما أردته لك . .

ستجدَين في دولابي صندوقًا بين الثياب المعلقة . . هذا مفتاحه . . هو لكِ . . لم يكن يومًا لسواكِ .

رفيق روحي . .

لا أعلم سببًا يمنعها الان من زواجها من شهاب . . ما دمت سأغادر . .

جذبتني من رأسي واشتمت شعري .

كنت أتمنى أن أزفك أنا لمن يستحق قلبك . . لكني مغادرة الليلة . . .

سامحيني يا ريم ، والله ما أردت كسر قلَبك أو منع سعادتك . . لو تعلمين ما بداخلي لم أستطع أن أشارك في هذا مرتَين ستفهمين ، وأرَجو أن تسامحيني . . ربما كان مقدراً لكم أن تسكنوا بعضكم البعض رغمًا عني . .

تكاثفتْ دموعها . . وتثاقلتْ أنفاسها .

قاطعها الطبيب ، يكفي هذا أرجوكم أن تغادروا . . نبضاتها ما عادت مستقرة .

سحبني والدي سريعًا ، وقبل شفتاها التي لم تفقد لونها الوردي الجميل رغم إعيائها وهمس بجانب أذنها :

ارتاحي يا جنتي وانسي كل ما قلت . . لن يزفها غيرك . . أجنتي أين تذهبين وتتركينني سآتي معك . . هرمنا على مغامراتَك يا مجنونة . . ستعودين لبيتك الليلة . .

وخرجنا سريعًا

نظر والدي إلي طويلاً . . . ونظرتُ إليه في صمت .

كاد التوتر يهلكنا .

مضت عشر دقائق على حالنا هذا.

خرج الطبيب ينظر إلينا، ووجهه مصفر، ثم قال دون أي مقدمات: (المدام في ذمة الله).

صرخ والدي صرخة دوت شهراً كاملاً في رأسي، وركض إليها، منعه الطبيب وأمسكه بقوة.

كانت كل اللحظات تمر سريعة متباطئة، كنت أرى كل لحظة كما لو أنها صورت بالتصوير البطيء.

وأبي يصرخ.. اسعفووووهاااا

لا يا نادية.. لمَ تتركينني؟ قلت لك انتظريني.

لم تحملني قدمَاي، سقطت على الَارض مصدومة مشدوهة، كان شهاب يحتضنني من ظهري، لكني لم أعي أي شيء، كنت أراهم، وأسمعهم، لكني لا أقوى على الحراك أو الكلام، تباطأ الوقت حتى توقف..

توقف الزمن كله..

توقف قلبي..

انطفأ كل ما شع حولي..

اسود وجهي.. فقد ماتت..

ماتت سعادتي..

ماتت ضحكتي..

ماتت سندي وقوتي..

ماتت بركة عمري..

ماتت أمي..

ثم فقدت الحياة لونها. والعصافير فقدت صوتها.. حتى الاشجار

التي كانت تتراقص على أنغام مرور الرياح، خلالها صارلها صوت كفحيح الافاعي. . والشمس أصبحت باردة محمرة، فقدت وهجها وفقدنا أرواحنا وفقد بيتنا معناه. . حاول والدي ادعاء الصلابة منذ أن أطلق تلك الصرخة في المشفى. .

لكن شهقاته وصريخه لم تستطع أقوى العوازل في جدراننا أن تمنعها عني. . بكاها كطفل حرِمَ ثدي أمه، فعلى صراخه اعتراضًا عَلَّ أحدهم يستجيب لاعتراضه.

فهو لم يكن يبيت الا في جانبها من السرير. . لكن ما أن تضيء السماء معلنة انقضاء الليل وظلمته. . حتى يعود لادعائه القوي المتماسك، فلا يقرب ذكرها ما أن يرى طيفي يقترب. . يمضي النهارمحدقًا في صورتها على ذلك الحائط الابيض كقلبها. . . كثيرًا ما كنت أسمع همسه يحدثها، كما لو أنها ما زالت بجانبه يسألها عن سبب رحيلها، يرجوها لتعود. . يجثو على ركبتيه ويطرق رأسه في الارض مناديًا باسمها. . حتى يغلبه النعاس على حاله هذا، ويأتيه نهار جديد، يبكي وحدته وغيابها. . .

آلمني ألم أبي وبكاؤه عليها أكثر من فقدانها. . .

مر شهر من وفاة أمي. . كل الايام تشبه بعضها. . وجوه تأتي وتغيب، كلمات بلا معنى، وبعضها بلا عاطفة. . عناقات مختلفة بعضها تكاد تفصلك عن ضلوعك، وبعضها بارد يؤدي ذلك الواجب الاجتماعي، لكن لا يغني من جوع ولا يطبب ألمًا. . على كل كلها لا يعيد ما قد فقد. . فما أهميتها على أي حال. . لا أعلم أن كان تبلدي هو صدمة أم رغبة في الصمت أم هي الحياة تجمدت بعد رحيلها!

اعتادت خالتي أن تهتم باعمال المنزل وأحوالنا، وتتناوب علينا هي

وبناتها . . في عزلتنا عن العالم أجمع . . والدي من عمله . . وأنا من الحياة بأسرها . . .

تلك الحياة التي علمتني أني لم يكن لي فيه سوى أمي . . هي مواقف ومشاهد في الحياة ترى المزيفين في هذه الحياة وقت حاجتك يسقطون دون أثر كما لو خسفت بهم الارض . . كم أتمنى لو تخسف بهم حقيقة . . !

كنت أراقب والدي الذي يحدق في الفراغ يبحث عن شيء لا أعلمه، يبحث عن سكن لوحدته . . ربما حتى يبحث عني، ولكني لا أجدني يا أبي حتى آتيك بي أو أحتويك كما لو كانت هي لتفعل . .

حتى استجاب الله صلوات كل من زارنا . . وصلب ظهر أبي حتى استطاع ارتداء حُلَّته الزرقاء، وحمل حقيبته السوداء التي اعتدت اللعب بها وتخبئتها منه في صغري مدعية أني مديرة الشركة . . ووضع عطره معلنًا عودته إلى العمل . .

قبَّل رأسي وقال بنبرة تغالب الحزن . .

- كيف أصبح ملاكي ،
- الحمد لله يا أبي،
- ألا يكفينا ذلك؟
- تبسمت فقط،
- رحيلها لا يعني أبدًا غيابها . . ستظل ترانا وتعلم أخبارنا ويسوؤها سوء حالنا . . الا تريدين أن ترانا في أحسن حال؟ . . سأعاود العمل من اليوم أن شاء الله، سأعزم على تقليل سفراتي حتى وإن أدى ذلك لقصر في أعمالي . . أحتاجك معي وتحتاجيني معك . . أعينيني وسأعينك وسنتخطى كل شيء سويًّا . . أعدك

يا حلوتي عديني أيضًا أنك ستعودين لجامعتك، وستعودين وردة متفتحة رحيقها هو ما يعيد إليّ رُوحي كل يوم.

لم أجد في جعبتي ما أجيبه به سوى نصف ابتسامة أرسمها على شفتي كلما هربت مني حروفي.. مسح وجهي بكفه في حنٍّو وغادرني.. وهو يقول..

لا تنسي الصندوق.. يأكلني الفضول لأعرف ما فيه..

رغم تساقط البشر من حولي وانكشاف معادن لم أعلم عن وجودها يومًا.. ورغم تخلي الجميع عني لأني لم أعد على الحالة التي عهدوني عليها.. الا أن ذلك الجميل،

لم يفارقني يومًا أنا وأبي في هذا الشهر الكئيب كان حزينًا مسودًا كما لو كان المصاب في أهله.. لربما ذكرناه بفقده والده.. كانت أمي دائمًا ما تقول أنه حين وقوع البلاء يذكر الإنسان دائمًا بلاءه وفقده الاول، ويبكيه كما بكى سيدنا يعقوب فقده الاول (سيدنا يوسف) حين علم بفقده ولده الثاني، ورغم ذلك فهو قد تحمل كل تلوني وتبدلي.. واستمع الاف المرات لنحيبي وربما كان نحيبي هو آخر ما نامت عليه أذناه.. دون تذمر أو ملل أو عتاب، هاتفني:

- أحقًا ما سمعتُ؟
- وماذا سمعتَ؟
- أن حلوتي ستذهب للسوق لشراء أغراض المنزل، وستعاود دراستها مرة أخرى.
- حقًا.. من أين لكَ هذا؟

- هاتفني والدك . . تجهزي سأمر عليك في خلال ساعة . . لكن منذ متى وهو يبعث أميرته للتسوق . . يبدو أنه سيرفع عنك الدلال .

- أشتاق رؤيتك . .

ـ ذابت روحي في بعدك يا ريم

مضت أقل من ساعة ، وكان هو أمام باب منزلي يحمل طاقة كبيرة من الورود الحمراء يتوسطها بطاقة بيضاء مكتوب عليها بخط يده الجميل . . كل الورود أمام حسنك مجرد شوك !

لا أعلم بعدُ مَا هي الحسنة التي فعلتها في حياتي ليـنعم الله عليَّ بـه في حياتي ،

أتمنى لو كانت أمي أكثر عطفًا وعرفته على حقيقته . .

لم أرثْ عاطفتي من أمي أبدا على ما يبدو . .

كانت دائمًا لا تظهر مشاعرها ، كانت جامدة لا تثق بأحد ، ولا تهتم لوجود أحد أو غيابه .

كانت كما الحجر لا تتأثر لشيء أبدًا . . ولا تظهرعاطفة فَقْد أو حنين ، وإن هاجمها الخوف أو أي نوع من العاطفة كانت تدفنه تحت موجات من الغضب والصوت المرتفع قبل أن يتملكها أي إحساس إنساني .

والدي دائمًا ما كان يدافع عنها ويخبرني أنها هكذا لكثرة خيباتها . . لكنها تحمل قلب طفلة وجنون مراهقة . .

رغم ذلك كانت كل أفعالها في علاقتها مع والدي تتسم بالمثالية . . لم أرها يومًا تغضب أبي أو وجدها في مظهر أشعث .

كانت دائمًا جميلة مبستمة بسيطة تسبقها رائحة عطرها . . .

أمضيت عمرًا دون أن أسمع خلافًا لهما أو شجارًا أو أحدهما يتفقد هاتف الاخر أو يبحث في أغراضه لم أر يومًا أي علامات لشك أحدهما بالآخر أو حتى متابعته كانا يلتمسان الاعذار لبعضهما البعض كانا الاكمل الاجمل لطالما حلمت بمثل ما يعيشانه.

حياة هادئه كاملة حتى مع المتغيرات هم ثوابت دون صراخ أو عويل..

يكبر أبي أمي بضع سنوات فقط، ربما لهذا كانت تعترض على زواجي من شهاب، كانت تؤمن هي بأن فارق العمر يباعد التفكير والأشياء المشتركة التي تخلق لغة الحوار بين الازواج.. كانت تؤمن بأن الحوار والصداقة بين الازواج أهم من الحب وناره... إن كان هذا ما يربطها بوالدي.. فأظن أنها كانت فعلاً على حق..

لكنها أبدت اعتراضها قبل أن تعرف عن فرق السن وقبل أن تعرف أي شيء عنه..

لحظت هي تغيري في طيلة الشهر منذ أن قابلته.. فكنتُ أغادر المنزل مبكرة وأعود متأخرة.. على غير عادة أكون متوهجة أغازلها.. أسألها عن أحوالها عن عملها.... كثيرًا ما عنفتني على تأخري وعلى اهتمامي المتزايد بمظهري..

حتى تلك الليلة.. التي غادرنا فيها المقهى لأول مرة.. وظللنا نمشي على الكورنيش لا ينفذ منا الحديث ولا نستجيب لشكوى أقدامنا حتى قاربت الشمس على الشروق.. فجلسنا على أحد الاسوار نراقب مشرقها.. وما أن اكتمل ظهور ذلك القرص الملتهب.. حتى تلمس بكفه كفي فألهب قلبي.. وأدار بكفه الاخر وجهي ناحيته، وقال في همس.. أنت جنتي في الدنيا.. هلا كنت سكني ومسكني؟

وافقته على الفور . . لم أتردد ثانية ولم أكن أطيق صبراً لأزف الخبر لأمي ، وأزيل ذاك الستار الذي أختبئ خلفه . .

عدت إلى المنزل متراقصة أغني والسعادة تكاد تشق وجهي . . لأجد أمي مكفهرة الوجة تنتظرني في الحديقة على كرسي خشبي وحاجبيها منعقدان ، يكاد وجهها يشتاط من حمرته . .

تخشبت في مكاني ما أن رأيت حالها . . وقالت وهي تعض على أسنانها . .

أين كنت كل هذا الوقت؟ ومافائدة هاتفك أن كنت ستغلقينه؟ ربما عليك العودة مَن حيثُ أتيت أن كنت تملكين مأوىً غير بيتكَ . .

حَاولت تهدئتها وأخبرتَها بأن هَناك أمراً مهمًّا عليّ أن أخبرها عنه ، وأنها ما أن تعلم سبب تأخري فستعذرني . .

كنتُ أعلم كم تحب والدي ، وأعلم كم ستقدر حبي له . .

حاولت تهدئة بركانها واحتوائه حتى رويت قصتي . . ويا ليتني لم أروها . . فقد ثار بركان ربما كان خامداً عمرها كله . . كان كله وعيد وصريخ واستهزاء بصغري وقلة حكمتي . . تلاه سيل من السباب والنقد عن قلة تربيتي وفشلها في تنشئتي . . ثم العقاب والوعيد والويلات التي ستصيبني أن غادرتُ المنزل مرة أخرى لالاه أو ذكرته مجدداً طوال حياتها . . دون مبرر دون أسباب دون حتى أن تعرف اسمه . . قد رفضته وأعلنتْ الحرب على وجوده للأبد . .

رافقني شهاب وأنهينا التسوق سويًّا . . وقرر هو أن نُعد العشاء سويًّا لوالدي . . هاتفتُ خالتي التي أتت هي وبناتها وساعدننا في تحضير وجبة جميلة وهادئة . .

تناثرت رائحة الطعام الزكية في منزلنا بعد أن سكنت جدرانه رائحة الورد الذابل الذي أحضره الناس للعزاء . . ما نفعها على أي حال . . ستموت بعد ساعات وتذكرنا بانتهاء الاجال وبما فقدنا . .

علت صوت الضحكات في منزلنا بعد أن تشققت جدرانه لنحيب والدي كل ليلة .

عادت الحياة لمنزلنا في تلك الليلة . .

رافقنا الجميع للخارج أنا وأبي . . ثم رافقته بدوري إلى غرفته . .

وتركته ليبدل ثيابه . . ما كدت أخرج من جناح غرفته حتى قال :

ريم خذي . .

التفت له فإذا به يحمل ذلك الصندوق . .

- طلبت منكَ فتح الصندوق . . لا إعداد مأدبة . .

كان يبتسم ابتسامة خبيثة : طوال عمرك وأنت مشاغبة ،

تبسمت في توتر وحملت الصندوق إلى غَرفتي . . يسعدني أن أبي قد تخطى كثيرًا من ألمه لكني متأكدة أنه ليس سوى قناع يضعه أمامي أو حتى أمام نفسه ليستطيع التغلب على ضعفه . .

ظللت أنظر إلى الصندوق طويلاً . .

حبست أنفاسي ، وقمت بفتحه دون حاجة لذلك المفتاح الملقى على صدري ، لم يكن القفل موصداً على أي حال . .

لا شيء بداخله سوى مجلد مخملي أحمر اللون . .

كأنه حديث الوضع في ذلك الصندوق لم تمسه أي ذرة غبار أبدًا

أغلقت هاتفي بعد أن تمنى شهاب لي ليلة هانئة . .

لم أحدثه عن ما وجدت أو ما قالت أمي عن ذلك الصندوق . . كان

يهمني كثيراً أن أعرف ما تركت أمي وحدي أردت أن احفظ شيئًا منهـا لـي دون بعثرته مع أي كان . .

فتحت المجلد . .

***

((الليل لوحدتك . . لايستحق الاخرون منك أكثر من نهار كامل . .))

قاسم حداد

إن أقصى مراحل الحب في نظري هو أن تفعل ما لا يسعدك لأجل سعادة من تحب . . . أن ترغب فيم لم ترغب به يومًا ليس لشيء سوى رغبة محبوبك فيه .

أن تترك حياة أحدهم وقربه حتى وإن كان في ذلك حياة قلبك لأجل أن تكون حياته هو أهنأ وقلبه أسعد . . وتكتفي بالمشاهدة عن بعد بتلك الابتسامة التي تنير وجهه ، وتعلم أنك كنت سببًا في رسمها . .

أن يسمو قلبك عن الانا المطلقة . . وحتى عن المشاركة . .

لن تفعل هذا الا وقد بلغت أسمى وأقصى مراحل الحب ، بدون أي مصالح ، بدون أي عوائد ، بدون حتى أي أخذ ، هو عطاء فقط بدون سقف أو شروط أو حدود تحده سعادة من تحب فقط .

تلك الفرحة التي تلمع في أعينهم حين يروك ، حين تبذل ما يسعدهم ، حين تكون موجوداً معهم . . . لكن عليك التخلي عن ذاتك ، عن رغباتك ، عن أحلامك ، حتى عن كرامتك في بعض الاحيان حين تسوء الاحوال . . نعم هو يسوء كحال أي علاقة . .

في غالب الحال يكون هذا النوع من الحب ذلك الحب الابتر الذي يأتي من طرف واحد ، ستكون الاوحد في هذا الكون إن كانت تلك المشاعر متبادلة .

أو ربما دون مبالغة ستكون من أندر النادرين . .

إن نلته متبادلاً فلن يدوم كما هي الدنيا ، فلا شيء يكمل ، وحده الله الكامل الاعظم ولن يكمل لندرة حامليه ، فإن وجدته في قلبك فلن تجده في قلب من أحببت . .

لكن حتى بمرارة فقده أو مرارة وحدته فهو جدير بالعناء يستحق الالم من أجله فهو يبعث في كل جزيئاتك الحياة ويؤنسك حتى وأنت وحيد، لم تمضِ حياتي سدًى ، ، لم تمضِ سنيني عبثًا . . لم أكن الاميز أو الاجمل أو الانجح . .

لكن كنتُ أمر في هذه الدنيا مرور الكرام، مشي الخائفين أليس من خاف سلم؟!

مر عقدان من عمري دون أن أكره أحد أو أسيء إلى أحد

حتى إساءة الناس لي لم تكن تلفتني، كان قلبي أنقى من أن يلتفت إلى المشاكل والأحقاد.

كان كل ما فِيَّ خامًا لم يمسه بشر، لم أغضب لأحد، ولم أحب أحدًا،

كل ما ملكته في هذه الدنيا من حب هو حب أهلي وصديقتي الوحيدة التي رافقتني مشواري منذ أن ولدت في هذه الدنيا ، ،ليلى

لطالما كانت هي أجمل مني وأقوى حجة . .

كانت هي صاحبة القرار، وذات شخصية وإرادة قوية أبهرتني فتبعتها كطالب علم يصاحب معلمه . .

لا ضعفًا مني قدر ما كان عدم ثقة في اختياري، لم أثق يومًا بأني أقدر أن اتخذ أي قرار وحدي، ولم يؤمن بي أحد أو يثق بأني أستطيع كنت الاصغر في بيتنا . . ولذلك طالما تم تخطيئي وإصدار الاحكام والتحكمات عليَّ خاصة بعد وفاة والديّ الذين لم أعرفهما فقد أنجباني بعد أن بلغا من العمر عتيًّا وكان وقتها أخي الاكبر يدرس في الجامعه، فلم يكن الاهتمام الاول لتلك الطفلة التي لا تفقه شيئًا تولت أختي القسم الاكبر من الاهتمام بي، وكان التدليل نصيب والديّ الذين فقدناهما في نفس العام تواليًا يفرق

بينهما شهران . . أذكر كم بكاهم الجميع وقتها، وكثيراً ما اعادت أختي على مسمعي أنهما لم يفترقا يومًا وهم أحياء، وما افترقا حتى في مماتهما . .

تبدلت الاحوال بعدهما . . تمنيت لو بيدي سلطة لأعيد ترتيب الزمان لأعيد أيامنا قبل فَقْد ركائز البيت . . لم يدع أحدٌ قولاً أو أمراً يستطيع أن يأمرني به الا وقذفني به . . كنت أعيش حياتهما، رغباتهما، قوانينهما هما . . لم يعتنيا حتى بتعليمي كيف أكون شخصية مستقلة . . كيف أكون رأييًا بعيداً عنهما . . ومن يتجنب إلقاء الاوامر فهو قد ورث الدلال من والدي، فكل طلباتي أوامر، كل أحلامي محققة رغم قلة طلباتي، ورغم بساطة أحلامي، تأرجحت روحي بين وفرة الدلال وشدة التحكم، وفقدتُ نفسي في مرحلة من عمري، لا أعلم متى ولا أعلم من كنت قبلها، ولا ما سأكون بعدها . . ومن هنا نشأت تلك العلاقة الغريبة بليلى . . فهي على عكسي تمامًا كانت تعيش وحيدة ، أهلها يعيشون بالخارج في أحد البلدان الاوروبية تفعل ما يحلو لها . . بعلمهم أو بدونه، الامر لا يشكل فارقًا كبيراً على كل من سيخبرهم! كانت حياتها مبهرة لمثلي . . كانت تعيش كما المشاهير، تخرج وتسهر وتعرف من الاصحاب ما لا أستطيع حتى إحصائه، وعرفتْ الحب مبكراً كانت جعبتها دائمًا مليئة بالكثير من المغامرات على مر السنين . . مما جعلني أعينها داخلي مثالاً أعلى ومعلمة وقائدة لمستقبل متمرد لا أعلم كيف أو متى سأبدؤه .

حتى اختيار ثيابي وأكلي لطالما شاركتني فيه . . . كانت دائمًا هي محط الاعجاب من الناس فهي المتحدثة بطلاقة، هي الرشيقة في كلامها وحركتها، كانت لتجذب انتباه أيًا كان دون مجهود يذكر . .

بينما اكتفي أنا بتلك الابتسامات البلهاء التي ترتسم على وجهي إخفاء

لذلك الاحراج الذي أشعر به، وربما بعض الغيرة الخفيفة من اهتمام الجميع بها وإهمالي.

لكنه ليس ذنبها أو ذنبهم.

. . لم أعش في العالم الخارجي كفاية لأثق بأقوالي وأفكاري أو ربما أفكار إخوتي. .

كنت أحبها كثيراً، وأثق بها كما لو كانت أختي، ربما كنت أحبها أكثر من إخوتي حتى!

لم يسكن قلبي أي رجل حتى وإن أعجب بي أحدهم في الجامعه لأي سبب لا أعلمه كان لا بد أن يقابلها لأني كنت لا أستغني عن وجودها جانبي.

ثم كان يتركني، وإما أن يعجب هو بها أو يرى أن هناك من هو أفضل مني فيتخلى عني.

لكن حتى هذا لم يكن يؤلمني أبداً ولطالما ظننت أن هذا للأفضل،

ربما أنا لست مستعدة بعد للحب للالتزام.

ربما لم أقابل بعد ذلك الإنسان الذي يراني حقيقة دون أن أضطر أن أكون صاخبة واضحة ظاهرة.

ذلك الذي يستطيع أن يخرج ما بداخلي له وحده.

لكن مضت عشرون سنة دون أن يأتي رغم أن رفيقاتنا كلهن كُن قد قابلن حبهن الاول، وربما حتى تتزوجن وأنجبن، فكان وقتها الزواج المبكر أفضل ألف مرة من تفلت في الجامعات. . لكني كنت على الهامش، فلم يتقدم لخطبتي أحد، ولم يتمسك بقربي أحد وليلى لا زالت تحاول التمسك بأي أحد يستطيع أن يستمر معها حتى بيت الزوجية ورغم كثرة خيباتها. .

الا أن روحها لا زالت شابة مفعمة تؤمن بالحب من أول نظرة وما شابه . . لم تفقد أملها في الحب أبدًا . . لو كان الحب رجلاً لأحبها لصدق إيمانها به . . لكني كنت تلميذة مجتهدة، فكنت أدرس كيفية حوارها، وإيمانها بالحب، قناعاتها كنت أرسخها داخلي جيداً وأحاول تنميتها بطريقتي الخاصة . . كثيراً ما كانت تتصادم مع تلك الافكار التي تتكرر على مسمعي بشكل يومي من إخوتي . . الا أني وجدت حلاً وسطًا لكل تلك الاصوات كي تنفذ،

كانت تشق طريقها للخارج، تحاول أن تعيش رغم موتها داخلي، رغم وادي إياها تعيش في عالم آخر، كنت أغذيها في الخفاء بعيداً عن البشر . .

تتخلق في رحم بعيد عن العيون مع أناس غير موجودين في أرض الواقع . . فما أن تنسدل ستائر الليل حتى تبعث فيها الروح ويحين وقت ولادتها . .

كانت تولد كل ليلة في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة غرفتي، وظلمة الخوف.

خلقت على شكل كلمات، وكتابات، تخرج لنور أضعف من أن يضيء حوائط غرفتي كلها . .

مع أناس يفصل بيني وبينهم الاف الاميال، وتجمعنا شاشة واحدة،

تحت اسم مستعار وصورة إحدى العارضات التي أتمنى لو كنت أشبه ظفرها.

وتحت غطاء من معلومات كاذبة، ربما تكون تلك المعلومات هي أمالي وأحلامي، وأقصى ما أريد أن أصل إليه.

لا أعلم حقًا . . من كنت ومن كانت تلك الشخصية!

أيٌّ منا هي نادية الحقيقية وأي منا هي المختبئة بداخل الاخرى

لكن نادية الشبكية كانت جميلة جريئة واثقة، ، صحيح أنها كانت كاذبة مخادعة لكنه ليس بالكذب المضر .

لم تكن حياة أحدهم لتدمر حين أخبره أني محاسبة في أكبر بنوك البلدة، في حين أني مهندسة حاسوب أو طبيبة . . .

لم يكن أحد ليبالي أصلاً بمن أنا .

ففي هذه الحياة الشبكية الكل يهرب يبحث عن غريب يهدي إليه عيوبه وآفاته يحمله حزنه أو حتى سعادته دون تحفظ أو خوف أن يرفع عينه أمامه بخجل بعد أن علم عنه سواده .

حفاظًا على ستري وعدم كشف ظلمتي سننت قوانين لا أسمح لنفسي بتخطيها . .

لم أحدث أحدهم أكثر من مرة أبدًا، هي محادثة واحدة طالت أو قصرت .

دون تعلق دون حقائق دون ذكر أي أمور شخصية . .

عرفت جميع المستويات، الغنى والفقير، المهم والنكرة، الغبي وذا الخبرة الواسعة .

ولكن لم أكن لأبالي . . فما كنت أرى سوى أنهم كاذبون مثلي!

لم يعلم أحد من أهلي بحياتي المزدوجة تلك، ولا أصدقائي، ولا حتى ليلى صديقتي المقربة .

كانت سري الاوحد، وربما عاري الاعظم . . في مجتمع مثل الذي أعيش فيه، فما هذا الذي أفعله الا عار لأي فتاة وفضيحة وحرام على كل من ساعدني أو شاركني فيه .

لكني لم أكن فتاة ضالة فنسختي الخارجية كما هي في داخلي، هي فتاة ملتزمة بحجابها، مطيعة لأهلها، لم أفعل يومًا أي شيء يؤخذ عليّ لا علنًا ولا خلوة..

لم أتمن يومًا سوى أن يراني الناس أن يسمعوني أن أمتلك عددًا من الاصدقاء، أمل من كثرتهم أن يحبني الناس، ويتمنوا قضاء أيامهم بجواري، أو يغنيني عن كل هذا ذلك الفارس الاسمر الذي يحبني ويحب عيوبي وغبائي وخجلي وانعدام ثقتي.

لكني لم أملك أيًّا منهم، فلم أجد لنفسي سوى ذلك المسكن حيث يثني عليك الناس دون توقف فقط لتستمر في محادثتهم لأطول فترة ممكنة.

أنانية أنا في هذا المجتمع، لا أبادل المجاملات، ولا أفعل ما يراد مني، فحين تغلق المحادثة يمحى هذا الشخص من تاريخي.

بكل ما قاله وكل ما كانه.. هو فراغ لا يوجد في هذا الكون كدمية يتدرب عليها طبيب في المشرحة.. هم دمى أتدرب على الحديث معهم لا أكثر..

كنت أعد الساعات والدقائق لأعود لذلك الحاسوب الاول، وأضع خط الهاتف.. تلك الاصوات التي ربما تكون مزعجة لغيري حين يقوم بالاتصال.. هي نغمات ترد روحي وتدب الحياة في نفسي التي أحبها..... هي كل ما أحلم بسماعه، وكل ما أتوق إليه في نهاري وفي كل نشاطاتي المملة..

يبدأ موعدنا حين يتوسط القمر حلكة الليل، حين تنام كل الملائكة، وتبدأ الوحوش في القيام من مراقدها.. الليل هو أجمل ستار يغطي العاشقين والهاربين والمذنبين مثلي.. هو صديقي هو ستار خطيئتي.

لم أكن أبالي بنوعية من أحادثهم أو حتى جنسياتهم . . طالما كل شيء ملفق ولا يستطيع أحد اكتشافه . . فلم لا . .

مللت المذاكرة ذات ليلة من ليالي الامتحانات في السنة الثالثة من الجامعه في وقت متأخر من الليل متململة باحثة عن من يحدثني فيؤنس وحشتي ويشاركني عزلتي .

كثيرون مثلي في غرفة المحادثة تلك . . منهم من يبحث عن أرملة أو مطلقة وآخر يطلق أحكامًا علينا بالكفر ، وينهال بالسباب على الموجودين ، ويكتب آيات قرآنية ليذكرنا بحرمانية ما نحن فيه من خلوة . . كانت غرفة ممتلئة بالمرضى النفسيين على ما يبدو . . آثرت الصمت ، حتى ظهر وجه مبتسم جديد معلنا أن أحدهم قد انضم حديثًا إلى الغرفة . . بجانب الوجه الاصفر اسم طبيعي زياد ـ ريان . . اخترته هو لقضاء الليلة في الحديث معه . . ربما يكون معتوها هو الاخر واستسلم لدراستي مجبرة فتحت نافذة محادثته الخاصة ، ما كدت أراسله حتى وجدته سبقني مرسلاً .

ـ هاي .

ـ وعليكم الهاي .

ـ ما أخف دمك !

ـ ماذا يؤرقك؟

ـ ممم عدت للمنزل لتوي . . وأنت؟

ـ لا شيء يهمك .

ـ نتشرف باسم سعادتك؟

ـ دعك من الخصوصيات . . هل لنا أن نتحدث في أي أمور عامة؟

ـ حسنًا . . لن أقوم باختطافك على أي حال إن علمت اسمك لكن لا بأس ببعض المغامرة لليلة . . كلي آذان صاغية تحدثي . .

ـ شكراً، سنلعب لعبة . . كل منا يسأل الاخر سؤالا . .
ـ تبدو فكرة جيدة . . سأبدأ . . أين ترين موقعك في حياتي مستقبلا؟
ـ ههه أي هراء هذا! لا أراني أنتمي لأي مما يخصك . . هي ليلة تقضى وكل يذهب في حال سبيله . .
ـ عيني عينك كدا! ستأخذين مني أعز ما أملك وتتركين ما بقي مني للكلاب!
ـ وما هو أعز ما تملك يا متذاكي .
ـ وقتي .
ـ إن حرصت عليه كما تزعم لما كنت هنا الان . .
ـ وجدتني هنا الان ربما لنفس أسبابك . . أنا أقيم من أن أعبث بوقتي وأضيعه في أي كان
ـ بربك! إذن حدثني عن الوقت .
ـ الوقت يا سيدتي . . هو المال . . هو رأس مالك وعمرك، هو سعادتك وشقاؤك، هو خلودك وفنائك . . وقتي هو أنا لا أعطيه لمن لا يستحق ولا أصرفه فيما لا ينفع

YOU Can't RECYCLE WASTED TIME

لايمكنك استعادة الوقت الضائع . .
ـ أو ينفعك حديثك معي؟
ـ هذا ما نحن على وشك معرفته . .
ـ ادعيت أنك هنا لنفس أسبابي . . أعلمني بأسبابي إن تفضلت؟!
ـ كثيرة تساؤلاتك . . ما أطار النوم عن عين فرخ مثلك؟ هو دوري إن كنتي نسيتي . .

ـ عمل

ـ وما تفعلين الان بعمل!

ـ تركته يا متذاكي لأحادثك . . حدثني عن أي شيء تحب . .

ـ سأسميكي بسمو الاميرة . . طريقة كتابتك تدل على أنك من عائلة مرموقة خلافًا لمن أراهم هنا . . حتى تمني على باسمك الملفت جدًا كما أعتقد . .

ـ لسان معسول . . . أنا أظنك زير نساء!

ـ ههه لا بأس إن ظننتي في ذلك، لم يعد أحد يعلم حقيقة من يحدث خلف هذه الاجهزة اللعينة، أحب النجاح يا سمو الاميرة، أرفض الفشل والتكاسل، أحب الانجاز والإرهاق في تحقيق ما تتمنى أن تعود منزلك غير قادر على الوقوف على قدميك من كثرة ما حققت من إنجازات في يومك .

ـ وتحقق هذا فعلاً؟

ـ على العكس تمامًا . . الوضع لا يسمح سوى بروتين قاتل ينتهي بترقية متوقعة آخر كل عام، ومجاملات وكلمات منمقة من زملائك . .

ـ كنت على وشك أن أحسدك . .

ـ وأنت ماذا تحققين في حياتك .

ـ أنا؟ أكاد أموت دون أن يلتفت أحد لوجودي على هذه الارض . .

ـ لم؟

ـ لا أملك شيئًا يستدعي لفت الانتباه إليه . . لا جمال ولا موهبة . . ولا حتى قدرة على إجراء حديث منمق .

ـ حاشاه أن يكون خلق شيئًا بشعًا . . أراهنك أنك أجمل مما تدعين . . الجميلات دائمًا لا يعلمن أنهن كذلك . .

ـ أضحكتني . . ربما ،

ـ ثم الحديث المنمق والشخصيات البراقة ذاك أمر مكتسب تستطيعين بكل سهولة إضافتها إلى شخصك يا أميرة . . وها أنت أجريتي معي حديثًا لا بأس به . . لا أظنك تعانين شيئًا . .

ـ لا أحتاج إضافة شيء . . أنا في أقصى درجات الراحة هكذا . .

ـ أنت تحبسين نفسك في صندوق الامان ، تحيطين نفسك بحوائط تبعدك عن الحياة ، ربما أنت فعلاً في أمان وراحة . . لكنك تفقدين أهم أسباب السعادة ، لابد لك من مغامرات وأخطاء وهفوات تذكرينها وقت عجزك وكبر سنك ، وتفقدين أنفاسك ضحكًا على قراراتك الطائشة وتفاهة طموحك وقتها . . أولئك الذين اختارا صندوق الامان أمثالك شابوا وهم مازالوا شبابًا حتى وإن مازالوا مراهقين أموات وهم أحياءلم يذوقوا طعم الحياة ، ولا شهوتها ما عاشوا هم وجدوا وحسب في هذه الدنيا أجسادًا فقط دون أرواح .

ـ أمتني في جملةّ! سامحك الله ، ما كان ينقصني كلامك هذا . .

ـ حسنًا . . سأعقد معك صفقة . . بشرط أن توافقي بشكل سابق

ـ صفقة ماذا . . وكيف أوافق على شيء لا أعلمه؟ !

ـ الا تثقين بي؟

ـ بالطبع لا . . أمجنون أنت أم مجنونة أنا . . !

ـ على كل . . الاتفاق كالآتي ستحضرين ورقة وقلم ، وستكتبين فيها اسمك في دائرة تتوسط أعلى الصفحة . . ثم تقسمين الصفحة

بالمنتصف . . أعلى كل نصف وجه كالأصفر الذي يرافق أساميا هنا . . عدا أنه في أحد الانصاف مبتسم وفي الاخر حزين تحت المبتسم ستكتبين كل ما تحبين فيك، كل صفاتك المحببة لك، وفي شكلك وبالعكس في الجهة الاخرى . . وغداً في مثل هذا الوقت نلتقي هنا نبدأ رحلة التغيير الشامل، ويمكن أن نبدأ من نقطة الحديث الجميل المرتب . . لا أعاني نقصًا في هذه الصفة بل على العكس فعملي يقتضي ذلك اللسان المعسول الذي ذكرته، والشخصية المحببة للجميع، لذا سأعلمك كيف تخطفين لب من أمامك في دقيقتين . . .

ـ وفي المقابل؟

ـ مم ستتنازلين عن فكرة الليلة العابرة تلك، وتحدثيني كل ليلة تؤنسي وحشتي . .

ـ فقط ! !

ـ أرايت كيف أني شخص آمن جميل متواضع . . عليكِ الان بإعلان الموافقة لأني مضطر لمغادرتك . .

ـ موافقة . .

ـ موعدنا الغد إذًا يا فوكسي ليدي كما تلقبين نفسك، ههه دعي حديثك معي، غداً يكون آخر ما تفعلينه، حدثي من تشائين قبل موعدنا . . تحياتي يا أميرة .

ـ وداعًا .

وأظلم ذلك الوجه المبتسم واختفى . . لم أبعث له بإضافة لقائمة أصدقائي . . لم أدون حتى اسمه وما أظني كنت بحاجة لمثل هذا فقد حفظت لقبه عن ظهر قلب . . أغلقت غرفة المحادثة، وأغلقت الحاسوب كله،

ليس طاعة له فيما أمر . . فمن هو ليأتمر عليّ، لكن والله ما عاد لمحادثة أحد بعده معنى فجأة . . ظللت أقلب حديثه في رأسي مرارًا وتكرارًا كأنه شريط تلف لا ينفك يعاد دون توقف . .

استوعبتُ كثيرًا من حديثنا بعد أن أنهيناه . . لا أدري كيف وافقت على أن أحادثه كل ليلة، كيف كسرت تلك القاعدة التي استمرت طوال سنوات، لم يخترقها أحد دون أن أشعر أم أني شعرت وأحببت خرقها . .

من هو أصلاً كي يخترقها بتلك السهولة؟ كيف لم أفكر فيما فعلت مليًّا؟ خانتني يداي ووافقت دون أن تسألني .

وكيف شعر بما في داخلي ولخص إحساسي في نصف دقيقة!! من أين له بتلك الجرأة أن يحكم عليّ من كلمة قلتها .

أيعقل أن يكون يعرفني؟؟ أيعقل أن يكون مزحة سخيفة من أحد الزملاء؟ أيعقل أن يكون كشف سري من أحدهم؟؟ ربما هو أخي ويعلمني الدرس بطريقة مريبة مثله . . كيف له وصوت شخيره يخترق الجدران ويصم أذني رغم بُعد غرفته . .

لم أستطع إكمال دراستي ليلتها من كثرة التساؤلات في رأسي .

لم أستطع أن أكون على أحد الاطراف، فلم أكن حزينة، ولا سعيدة، ولا مطمئنة، ولا خائفة، كنت ما بين بين في كل شيء . .

من أنت وكيف أوصلتني لكل هذا دون أن أعرفكَ .

***

هل في وسعي أن أختار أحلامي ، لئلا أحلم بما لا يتحقق؟!

محمود درويش

لم أفعل أيًّا مما طالبني به . . وقطعت على نفسي ألف عهد وعهد خلال ذلك النهار أني لن أحادثه وأني سأحظره من قائمة المحادثات حالما أعود إلى المنزل .

عدت إلى المنزل انتصبت أمام الحاسوب في تجهم كدت أحظره، ثم وسوست لي نفسي أن أنام لبعض الوقت فكثرة التفكير أرهقتني، وحين أستيقظ سأحظره لا داعي للعجلة . . مادمت خارج غرفة المحادثة لن يتجرأ بإرسال شيء، وارتميت في أحضان سريري كطفلة ضائعة غطيت في نوم عميق، أيقظني منه صوت رسالة على برنامج المحادثات ذاك صحوت فزعة . . أعلم الصوت جيداً والصوت يدوي في الغرفة . . ياويلي لو تنبه له أحد . . تسمرت عيناي على شاشة الحاسب . . كيف له أن يستطيع محادثتي وأنا خارج غرف المحادثة . .

ـ مساء الورد يا سمو الاميرة . .

أجبت بنصف جفن مفتوح بالكاد يتخلله ضوء الجهاز . .

ـ مساء النور . .

تذكرت كل وعودي لنفسي، وحظري له، وقراراتي التي ذهبت هباء منثوراً، وكان كل ما يجول ببالي هو ماذا سيحدث أن تحدثنا مرة أخرى! هو لا يزال لا يعرف من أنا . . ولن أخبره،

ـ كيف أمسيت . . أقل اكتئاباً كما آمل؟

ـ بخير، الحمد الله . . وأنت؟

ـ أنا بخير . .

صمت كلانا لمدة كانت كافية بأن أتيقظ من نعاسي، وأعتدل بجلستي، وأرقب الشاشة في انتظار رسالة منه . .

- أتممت واجبك المنزلي؟
- لا .
- وما هو ذاك . . عدم اهتمام . . تجاهل أم إهمال . .؟؟ في أي الخانات على أن أصنفه؟
- لا شيء من ذلك . . سوى أني قررت أن لا أحادثك مرة أخرى
- وماذا تغير؟
- ماذا تعني؟
- ألا تعين أنك تحادثيني الان . . ماذا حملك على تغيير قرارك . . بغض النظر عن اتفاقك البارحة الذي تتجاهَلينه . .

لم أجبه . . لم أملك مبرراً ولا سبباً يدعوني لمواصلة الحديث، لكني أرغب حقًّا في ذلك، كان طيفًا هو من حرك أصابعي على لوح الكتابة ليراسله . . . صمت طويلاً فتدارك كرامته .

- على كل الامر بيدك . . إن شئت أن توقفي حديثك معي فأنت حرة، أمرك وقتما تشائين غادري . . أنت مجرد عابثة كما أظن . . وإلا لما خلفتي اتفاقك .
- لستُ كما تصفني . .
- ساعديني لأجد تفسيراً آخر؟
- أنا أجهلك . .
- لا أظن أني أعرفك أيضًا، وأظن أيضًا أن ذلك كان بناء على رغبة منكِ . . يمكنك اعتبار اسمي أحمد وأني أبلغ من العمر ٢٧ عامًا

اطمأننتي الان؟؟ كفاك تمثيلاً ودعينا نتكلم . . لست في مزاج جيد لدلال فاسد .

- دلال فاسد؟؟ حسنًا . . تفضل تكلم .
- أكملي يا أميرة لعبتك . . لكن اليوم يمكنك سؤالي أي شيء تودين معرفته عني .
- البارحة كان شرطك أن أؤنسك . . وقلت أنك متحدث لبق وشخص محبوب . . كيف لك أن تكون وحيدًا تحتاج من يؤنسك؟
- سؤال لا أعلم علاقة أوله بآخره . . لكن لا بأس . . أي شيء تودين يا أميرة قدرتي على إجراء حديث أو اكتساب حب الناس؟ لايعني البتة أني أملك العديد من الاصحاب وامتلاكي للأصحاب أيضًا لا يعني عدم وحدتي ، بعض الاصدقاء هم الوحدة تمشي على رجلين لا يسمن ولا يغني وجودهم من جوع . . وإن كثر الناس حولي يا سمو الاميرة فأنا خارجي ضجيج وداخلي وحيد ، واختارك القدر لتكوني ونيستي لا أعلم لم بعد . . لكن كل من يقاد إليك في حياتك هو رسالة . . ورسالتك ستصل إلي بالتدريج . . دوري في السؤال . . ما اكثر ما تخشين؟
- أن تكون تعرفني حقيقة ، وما كل هذا سوى مقلب تافه . .
- هههههه ما زلتي فتية يا سمو الاميرة .
- أمعتاد على إطلاق الاحكام يا متذاكي؟
- درست في علم النفس ولغة الجسد والفراسة ما يكفيني لإطلق أحكامًا مبدئية ، وأنت ما زلت في طور النشء يا أميرة وسأعتبر هذا سؤالك عقابًا لكِ على محاولتك للتذاكي معي . . هل لي بطلب؟

- ماذا تريد؟
- كم أود لو نكتفي اليوم بهذا القدر من لعبة الاسئلة، أود أن أتحدث معك دون أسئلة وأدوار . .
- لم ينتظر حتى موافقتي واسترسل : أنا في إجازة لبعض الوقت من عملي وأود حقًّا أن أساعدك، لا أعلم لِمَ ولا أعلم لِمَ تجتاحني راحة أثناء حديثي معك (أعلم أن هذا قول مشهور لكل المغتصبين المقيمين هنا) لكني أود حقًّا أن أعلم كيف استطعت أن تحكمي على نفسك بما قلته البارحة . . رغم تأكدي من صغر سنك الا أن طريقة حديثك أسرتني ولهفتك للمعرفة وكثرة أسئلتك لا تقودني الا لفتاة مميزة جدًّا . . ضعي يدي على موضع ألمك وأعدك بأني قادر على تغييره وإزالته .
- ترى ما ترى لأني أحدثك بتلك الشخصية الخفية التي لا تظهر الا خلف الشاشات والأسماء المستعارة وفي محادثة لليلة واحدة لا يعلق بقدميك شيئًا وأنت تغادرها . . لكن إن عرفت شخصي اليومي الحقيقي فأنا صنم لا يعرف كيف يوجه حديثًا، ولا حتى يحمل حديثًا على الاستمرار، وإن أصابني من الاعجاز ما يطلق لساني فلا بد أن تظهر عدم ثقتي بنفسي وأتلعثم وأقول ما لا يصح قوله أو مالا يقود لمعنى أو هدف فبدلاً من لفت النظر لمدى ثقافتي التي انكببت عمرًا أنميها . . لا يرى مني المتحدث معي سوى تفاهة وسطحية وشخصية غير مستقرة لا تعلم عن أي شيء تتحدث .
- خلق الله الدنيا في ستة أيام . . مهلك على نفسك . . فلتتعرفي على ذاتك أولاً وتقبليها وتحبيها وتنميها في كل اتجاه تريدين أن تملكي

معرفته في هذا العالم، ثم ابحثي عن الناس والحديث معهم وآرائهم التي لا أرى لها أي داعٍ في الحياة، وستعرفين هذا لاحقًا. . إن فعلت هذا. . أعدك أنكِ ستعرفين كيف وفيم تتحدثين حتى لو مع رئيس الجمهورية. .

- اسمك أحمد؟
- كلا يا سيدتي. . أود أن أعترف لك بشيء.
- إن كان الاعتراف بأن هذا مقلب وأَنت أحد معارفي أقسم أني سأغتالك. .
- كلا يا مجنونة. . لقد قررت أنا الاخر ليلة البارحة أني لن أحدثك مجدداً. . لكن حين حان الوقت المتفق عليه وجدت يدي تقود نفسها إلى اسمك المظلم في تاريخ المحادثات وتراسلك.
- لم قررت هذا؟
- خفت منك. . خفت أن تكوني مهلكتي. . فأنت لم تغيبي عن فكري طوالَ نهار اليوم التالي وشغلني أمرك. . ولست ممن يهتز طرفه بهذه السهولة.
- ما اسمك؟
- هل سأعتبر هذا تنازلاً من شخصكم المكرم، وسنتبادل الخصوصيات بدلاً من العموميات من الان فلاحقًا؟!
- ربما.
- شاكر.
- نادية.
- وأنا من ظن أن اسمك سيكون ملفتًا!

بدأت تفقد لسانك المعسول . . يبدو أن لي تاثيراً كبيراً عليك حقيقة . .

- صف لي فتاة أحلامك؟

- طويلة القوام ممشوقة، عريضة المنكبين، ممدودة العنق، شعرها بني يتموج على بداية ظهرها، ويترك الباقي يتمنى أن تلمسه تلك الشعيرات الحريرية، أقدامها كطفل في نعومتها، وعبقها كبيتي . .

- كيف لها أن تمتلك رائحة كرائحة بيتك؟!

- بمعنى أني حين أتنشق عبقها وتحيطني رائحة جسدها . . أشعر بالأمان كما أشعر وأنا بين جدران بيتي .

- ما أجمله وصفك . . أوجدتها؟

- وهل توجد مثل تلك . . ماذا عنك؟

- أن يضحكني

- تحتاجين مهرجًا إذن . . الا تطمحين بأسمر مليارديرمفتول العضلات يخطفك على صهوة حصان أبيض ثم يظهر بحر من حيث لا ندري وتهربون سويًّا؟

- لا . .

- ما أسهلها . . سأخبرك نكاتًا حتى تموتين ضحكًا . .

- ههه ساذج . .

لم يقطع حديثنا ليلتها سوى ثقل أجفاننا التي أعلنت عن موعد نومنا رغمًا عنّا . .

. . .لم تمض ليلة بعد تلك الليلة دون أن يشهد الليل علينا وعلى أحاديثنا . . يتسلل إلي دون أن أشعر، أصبح ذكره يجري مجرى الدم مني، فإن كنت في الجامعة نهاراً أجمع الاحاديث والتعليقات وأخبار اليوم كله في

رأسي كي أخبره إياها بمجرد أن أعود . . وليلاً ما عادت عيناي تعرف النوم سوى بضع ساعات يزورني فيها في أحلامي أتخيل شكله وهندامه، وأحلم بصوته ونظراته . .

بات يعرف عني كل شيء . . . . . اسمي عمري أهلي . . أين أسكن وماذا آكل . . كنت أنساب مني دون دراية إليه . . كان يتشعب في جسدي ويعشش كما الامراض الخبيثة . . الا أنه كان طيب القلب حنونًا مستمعًا مهتمًا، كفاني عن ليلى وعن أصدقائها، كفاني عن انبهاري بكل ما كان يبهرني . . أصبح هو شاغلي الاول والأخير . .

**

قطع تركيزي في قراءة ذلك المجلد الاحمر رنين المنبه معلنًا تأخري على مقابلة دكتوري لمناقشة مشروعي الذي تأخرت في كل شيء يخصه بسبب وفاة والدتي . .

قمت على عجل، وكم عز عليّ حقًّا أن أترك ذلك المجلد الغريب . . فضولي يقتلني لأكمل . .

أمضيت اليوم كله سارحة شاردة مع محاولات زميلاتي لإنعاشي من حالة الاذبهلال التي تلبستني، كان الكل يتعامل معي كأني مريضة نفسية، النظرات تترصدني من كل صوب، نسيت حقًّا كيف أبدو شريدة ضائعة بعد وفاة أمي، لكني كل تلك الفترة كان يخيل إلي أنه شيء داخلي . . أثبت لي الجميع اليوم أنه خارجي أيضًا . . تباينت ردود أفعالهم لهذا الشحوب والتغير، فمنهم من احتضنني، ومن هاب أن يلمسني أصلاً، ومن قرر أن يتناسى كل ما أمر به، ويبدأ الحديث بإلقاء نكات تافهة لكن دون جدوى، لا علاج لي الا أن أعود إلى المنزل لأبي وشهاب وخالتي هم وحدهم من

يشعرونني أنني ما زلت على ما يرام. . حاولت إنهاء أي شيء مما تراكم عليّ في الشهر الماضي. وكم كنت أحتاج ذلك المجلد معي ليخفيني بعيداً عن كل تلك الاعين التي ترى عري روحي وفقدها. . شغلت نفسي بالتفكير به لأهرب من هذا المجتمع حتى أعود لبقعتي وقوقعتي ومجلدي العجيب. . حتى أعلم ما أنا فاعلة في هذه الحياة دون أمي دون أصدقائي الذين ما إن تسلطت الظلمة على حياتي تبخروا. .

أنهيت قدر ما استطعت مما تراكم عليّ، واعتذرت عن لقاء شهاب بحجة حاجتي للنوم. . عدت للمنزل على عجل. . لا أطيق صبراً لأعود لتلك المتاهة التي بدأتها. . لأجد أبي قد عاد مبكراً هو الاخر من عمله وأعدّ لنا طعام العشاء استبقني قائلاً:

كيف أبليت في جامعتك؟ حضرتُ لك العشاء الليلة يا جميلتي. .

- هل عليّ إخبار أحد أن يتفقدنا بعد العشاء؟ الجامعه كما هي لا شيء قد تغير. .
- هاهاها ما أظرفك. . ستطالبينني كل ليلة بأن أعد لكِ الطعام بعد أن تدمنيه خلال دقائق. .

كدت أخبره بما قرأت، وما وجدت، كنت أملك ألف سؤال داخلي لكني تريثت. . عَلّه جمعني به لخبر أكبر مما أريد، فكل ما هو عليه من غير عاداته. . لا أذكر متى أهتم والدي بوجبة العشاء على كل. . أنهينا عشاءنا دون أن يذكر أي شيء ذا قيمة ينهي تساؤلي

رافقني إلى غرفتي، وقال:

سأسافر غداً إلى لندن في عمل، سأبقى هناك قرابة الشهر. . أعلم أني قطعت لكِ وعداً بأني سأقلل من سفراتي لكن أقسم إن هذه كان موعدها

مرتبًا سابقًا، وقد غفلت عنه في وسط كل ما عايشناه في الوقت الذي مضى، وأعدك بأني سأقتصد من الوقت المخصص لها إن استطعت. . تركت لك ورقة بتفاصيل رحلتي، والفندق الذي سأقيم فيه، وأرقام بعض من سيرافقونني هناك في حال احتجتي أي شيء ولم تستطيعي الوصول إليّ مباشرة تجدينها فوق سريرك يا جميلة. . يعز عليّ مغادرتك كثيراً يا جميلتي، تملكين ما تبقى من روحي في عينيك الجميلتين. . اغرورقت عيناه ولمعت وتمكنت منها التجاعيد فأغلق جفنيهَ خوفًا من انهمار دمعه أمامي. .

رحمتُ ضعفه. . قمتُ إليه وضممته وهمست بأذنه. . حفظك الله سأهاتفك كل ليلة بالتأكيد. .

قاطعني: أخبرت خالتك برغبتي في السفر. . وقالت أنها ستحزم أمتعتها وستأتي لتبقى معك هنا في حال لم ترغبي بالانضمام إلى بناتها في المنزل. . الامر لكم المهم أنَ لا تبقي وحدك في المنزل. .

غادرني وما كاد أن يدلف إلى غرفته حتى التفت إليّ مرة أخرى، وقال بوجه متهلل. . وعينين لامعتين دامعتين تكذب تلك الشفاه التي رسمت ابتسامة محاولة كسر الحزن والألم الذي سكن هذا الوجه:

أخبري ذاك المبتسم أنه ما إن أعود من لندن. . أود أن يزورنا لنتعرف على نواياه فيما يخصك. . ونرى إن كانت أمك محقة في كونه يستحق أن تكون جميلتي عروسته حقًا. .

أومأت برأسي موافقه، وغادرت الغرفة إلى الحديقة وأنا أخفي صوت شهيقي. . . أوجعني بكاؤه أوجعتني تلك اللمعة في عينه. . أوجعني أن أكون لشهاب بعد كل ما حدث. . لم أقدر على التخلي عنه حتى بعد كل ما مررنا به، لكني كدت أنسى أنه يريد الزواج بي. .

ما عاد في الكون شيء يستحق بعد وفاة أمي، ولا سعادة ترتجى بعد دموع أبي . .

نامت دموعي بجانبي، آنست ليلي الاسود الذي مضى ثقيلاً، لم أعد فيه لذلك المجلد . . فاقني تعبي وألمي . . أفاقني من نومي صوت شهقاتي . . كان يوقظني صوت نحيبي وبكائي أبكي في نومي . . ما أشد وجعي! بيت كبير دون أب ولا أم . .

استيقظت مبكراً لأمد يد العون لوالدي في تحضير حقيبته، وأعددتُ له إفطاره ورافقته إلى أبعد ما أستطيع، لو كنت أملك الذهاب معه لرافقته . .

عدت إلى جامعتي نفسي متعبة مهلكة . . واجهت شهاباً يقف أمام إحدى غرف المحاضرات ووجهه يكاد يشيط غضباً . .

- ما جدوى الهواتف التي نحملها إن كنا لا نجيب عليها؟
- مرحباً يا شهاب .
- مرحباً؟! ما أجمل البساطة حقًّا . . أيمكنك أن تخبريني أين كنت ليومين متتاليين، لا أعلم عنك شيئًا، ولا تجيبين أيًّا من اتصالاتي أو رسائلي، ربما على الامتنان أنك لا زلت تذكرين اسمي؟! هلاّ احترمتني ووجهت نظرك لي وأنا أحدثك؟؟

أزاح نظارة الشمس عن وجهي . . فصعق لما رأى . . وصرخ بصوت أعلى مما كان يتجادل به . . ماذا حدث؟

كانت عيناي تختفي داخل هالة سوداء من الالم والتعب والوجع، ودموعي لا تعرف سبيلاً للوقوف، وجفوني ترجوني كي أبقى عينتي مغلقتين، فهي لا تتحمل كل ذلك الضوء والسعادة وضحكات الناس، وهي في أوج ألمها ووحدتها وضعفها . . .

أعـدت نظـارتي مكانهـا . . أنـا اختبـئ خلفهـا لسـتُ مسـتعدة بعـدُ لأخرج . . تابعت طريقي للمحاضرة .

لحقـني وصـوته يخـرق آذان كـل مـن حـولي . . ريـم أجيبـيني لا تتجاهليني ، ماذا أصابك؟ لِـمَ كـل هـذا الحـزن علـى وجهـك . . أرجـوك جاوبيني؟

أصبحت الان مرئية لكل من أهمه الامـر ، ومـن لم يهمـه . . اسـتطاع بصوته الجهوري الجميل أن يجمع كـل نظـرات الشـفقة والاسـتفهام وحتـى الاستهزاء نحوي ، لم يكفه صريخه عليّ بل زاد حرجي وألمي ، بـدأت تتعـالى التعليقات والهمسات لتصم أذني .

(يا إلهى . . الا زالتْ تبكي والدتها؟)

(أما آن لها الاوان كي تكف عن كل هذه الدراما؟)

(انظروا كيف تتجاهله . . ما ذنبه هو؟)

تمنيت لو بإمكاني أن أفقد وعيي في هذه اللحظة فتختفي روحـي بعيـدا عن كل هذا . . لا أصدق حقًّا كـل هـذا الا حـراج ، اسـتدرت بعيـدًا عـن المحاضرة ، وجمعت كل ما أوتيت مـن قـوة في جسـدي الهزيـل ، وركضـت بأقصـى سـرعة في اتجـاه سـيارتي . . وشـهاب لا يـزال يصـرخ خلفـي يتبعني . . فقدني في مكان ما لا أعلم أين؟ ولم أهتم ، حمدت الله وقتهـا فقـط أن صـوته غـاب عـن رأسـي ، حملـت نفسـي وسـيارتي إلى منزلـي بأقصـى سرعة . . وتركت السبيل لدموعي وصـريخي أن يتحـرر عَـلّ روحـي تهـدأ وتهون عنها . .

عدت للمنزل ، تذكرت أن والدي أخبرني أن خـالتي سـتأتي اليـوم . . كنت قد أغلقت هاتفي ولم يكن لها من مجال لتصل إليّ . . فـلا بـد أنهـا في

المنزل تنتظر . . رفعت سلاحي الوحيد نظاراتي السوداء، واختبأت خلفها، وفتحت الباب متأملة أن تكون قد غابت، ولم تأت، وجدت خالتي تجلس على أريكة أمام المدخل والسعادة تكاد تشقق وجهها، وضعتْ المصحف من يديها وقامت باتجاهي . .

حمدًا لله على سلامتك . . هاتفتك كثيرًا كان هاتفك مغلقًا . . ربما هي شبكة الاتصال فكثيرًا ما تقطع اتصالي ببناتي أيضًا . .

أكملتْ حديثها وهي تتوجه تجاه المطبخ بعد أن قبلتني . . بضع دقائق، وستكون مائدتك جاهزة، ستنضم إلينا الفتيات بعد قليل . . أعددت لك كل ما تحبين . . لم توجه لي حديثًا يستوجب الرد . . فابتسمتُ من خلف قناعي، وتسللت على الدرج إلى غرفتي . . ثم قلت :

سأبدل ثيابي لحين قدوم الفتيات . . عن اذنك يا خالة ، أوصدت غرفتي، أزلت قناعي . ارتميت على سريري مخبئة رأسي في وسادتي . . صرخت كثيرًا وبكيت وشهقت حتى كدت أفقد صوتي . .

سامحك الله يا شهاب . . أنت من عرى ألمي بين الناس . . جعلت مني حديثًا لأناس لا ألقي بوجودهم في هذا العالم أي بال . . تعلم جيدًا كم أكره أن يرى الناس ألمي أو حتى سعادتي، ألم تكفيك عيناي لتفهم ما بي لتشعر بفقدي؟ . . أكان يلزمك حقًا تلك الكلمات والأحاديث وأن أرسم الابتسامة المصطنعة كي تستطيع استيعابي . . لم يكن ذلك شهاب . . شهاب الذي أعرفه يشعر بي قبل أن أحدثه ليس شهابًا . . كنت أحلم، كنت أحلم، يارب أرجوك اجعله حلمًا . . ظللت أردد هذا حتى غفوت .

أيقظني صوت طرق خالتي على الباب، وصوتها يسترجيني من خلفه :

الفتيات قد أتين يا ريم . . هلاّ أتيت لتتناولي الغداء . . أرجوك افتحي الباب طال بقاؤك هنا . . هل غفوت؟

خرجتُ متكاسلة إرضاء لها وخوفًا أن تبلغ والدي بتدهوري بعده . .

بناتها تنتظرني على طاولة الطعام . . ظللن يتحدثن عن أشغالهن ومآسيهن التي لا تشكل شوكة قد تدخل في أصبعي وسط ما أعايشة . . شغلنني عن مأساتي قليلاً وإن كنتُ أهزأ بهم داخلي .

اعتذرتُ منهن بأن لدي الكثير من العمل الجامعي لإنجازه . . بعد أن اكتفيت من أحاديثهم، وجلست معهم ما يكفي، ليصبح التقرير الذي سيقدم لوالدي بأني كنت مطيعة متعاونة . . سلمت عليهن وغادرتهن إلى قوقعتي . .

عدت لسريري . . أبقيت هاتفي مغلقًا . . ربما يحتاج العالم الخارجي أن يبقى خارجًا لبعض الوقت . . أخرجت المجلد من تحت وسادتي وقررت أن أهرب من عالمي لعالم أمي مرة أخرى . . أو أيًّا كانت تلك المتاهة التي اختطفتني . .

***

أين تباع المسافات . . لعلي أشتري أقربها إليك . .

فهد الكبيسي

مر الشهر سريعًا كما لو كانت ساعة عابرة في نهار شتوي . . اقتربت امتحانات نهاية العام، وطلبت من إخوتي خط هاتف خاص بي، يتم توصيله لغرفتي بحجة عوزي للإنترنت في أغلب الاوقات، ومحادثة صديقاتي لمتابعة الدراسة سويًا . . على أن أقتطع مبلغ فاتورته من مصاريفي الشخصية . . لم أدع لهم أي مجال للرفض، وتم ذلك . . كنت أستعد لقضاء اليوم مع صديقتي ليلى في إحدى الصباحات الجميلة هربًا من المذاكرة وكذبًا على إخوتي أنها سترافقني لندرس في منزلها سويًا، قطع تجهيزي لحقيبتي مهاتفته لي . . :

أين أخبرتني بأنك تعيشين؟

- جاردن سيتي

- يا إلهي!

- مابك؟

- حسنًا تجهزي أنا في طريقي، أين تودين أن أقابلك . . سأكون أمامك في خلال الساعه . .

- ماذا؟؟

- أظننتي أني سابقى مدى الدهر لا أعلم كيف تبدين . . وسأقتصر بمحادثة ذلك الجهاز العقيم . . لست بصدد استشارتك، كوني جاهزة سأتحرك خلال دقائق . .

- ح ح حسنًا . . سأنتظرك على كبري قصر النيل . .

كالعادة معه لم أجادله، ووافقت كما لو كنت منومة مغناطيسيًّا.. توترتُ كثيرًا.. كيف سأقابله؟ ماذا سأقول؟ كيف سأبدو؟ ماذا أرتدي؟.. لا بد أنه سينهي معرفته بي الليلة بعد أن يجلس معي، ويجد أني أتفه وأمل مما أدعي.. لم أجد صعوبة في التهرب من ليلى.. فهي دائمًا تملك البديل عني.

حاولت أن أخفف عن نفسي قليلاً.. ارتديت ثيابًا عادية لم أتكلف في شيء، لم أرده أن يظن أني تأنقت له.. رغم كل شيء فهو مجرد جهاز عقيم كما ادعى لي أنا أيضًا.. حملت في حقيبتي سكينًا صغيرًا حادًا من المطبخ.. في حين ارتدت أفعالي عليّ، وكان مغتصبًا يختار ضحاياه بدقة.. مرت الدقائق كما لو أنها قرون.. وأفكاري تزداد سوادًا حتى غربت الشمس قبل وصوله.. لتزيد خوفي ورهبتي منه..

غادرت المنزل وقلبي ينتفض بين أضلعي.. انتظرت كثيرًا على كرسي لا أعلم من أين وجد.. قمت من مكاني ألف مرة لأغادر وأعود للمنزل، وأتراجع عن هذه الفكرة الغبية.. وفي كل مرة كنت أقول.. ربما لن أخسر شيئًا دعي عنك الخوف لمرة في حياتك.. استجمعت كل قوتي، ودعوت الله أن لا يخذلني، أغمضت عيني متنهدة.. وما أن فتحتها حتى استقرت أمامي سيارة سوداء نوافذها مغطاة بستائر، وكانت نافذتها تفتح على مهل، قتل كل ما بقي في من شجاعة.. قمت من مكاني مرتعدة لأغادر.. يكفيني ما عشت لا أود حتى أن أعرف شاكر هذا مرة أخرى.. بدأت أردد بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء.. خرج صوت مرتعد بقدر خوفي من السيارة.. نادية؟! أدرت رأسي تجاه تلك النافذة، وأكاد أسمع صوت طرق ركبتيّ ببعضهما يصم أذني..

فتح الباب المواجه لي لأفاجأ به يكاد يلتصق في زجاج السيارة من شدة

رعبه مني . . قطع توتري منظره، ظللت مسمرة مكاني، وسألت بصوت بدا يعاود سكونه في تلك الاحبال التي تحمله : شاكر؟

- نعم هو يا مجنونة . . تعالي إلى الداخل،

تفحصته وأنا أغلق الباب بعد ركوبي :

ما بك تكاد تلتصق بالزجاج كأبو بريص هكذا؟! تخاف مني؟؟ والله أني لاظن بأن عظام ركبتيّ قد تكسرت من شدة تخبطهما ببعض . . طوال وقت انتظارك . . وما آمن قلبي الا حين رأيت رعبك هذا . .

ضحك واعتدل في جلسته . . التفت أتأمله . .

لم يكن وسيم الملامح البتة . . لكن ما هذه الجاذبية! لم أر رجلاً يومًا يجبرك الا ترى عينك سواه من حولك . . أو ربما لم أر ما يكفي من الرجال . . لكنه نجح في أن تتسمر عيناي عليه . .

كان يرتدي قبعة ونظارة نظر وشورت كأنه خرج للتو من تدريب للتنس . . يبدو أنه هو الاخر لم يرد أن أظن أنه تأنق لأجلي . . لكن رائحة عطره غطت ذاك المظهر الاشعث . . رائحة دافئة مثيرة، جعلتني أود لو أحتضنه وأظل أشتم نفسه حتى أموت . .

لم أكن أعرف أماكن المقاهي والأماكن التي يرتادها الشباب، فقد اعتدت أن هذا الجزء هو من اختصاص ليلى . . فتولى هو الامر وسأل المارين . . حتى تحصلنا على أحد المقاهي القريبة .

وكان هو أسعد ما يكون بذلك المكان، ظل طوال الطريق يصف لي مدى حبه للشيشة، وكيف أنها أبسط وأجمل أنواع متع الحياة، لم أمل حديثه عن شيء حقًّا لا أفقه حتى فائدته في هذه الحياة . . الا أني استمتعت بصوته ومخارج حروفه . . كان يملك لهجة كأنه أجنبي تعلم العربية مؤخرًا

وصوته كان حاداً غير مؤذ في سماعه . . يبعث الطمأنينة لكنه يجبرك على الانتباه لما يقول . . لعلو نبرته .

كانت أول طلباته ما أن جلسنا هي الشيشة . . ذلك الاختراع العظيم الذي يدعي أنه سينقلنا إلى الجنة . .

أعطاه المضيف صندوقًا كصناديق الكنز ، بداخله علب كأنها جواهر ، كل علبه تحتوي على نوعين من الفواكه مجففة يمكنك اختيار الكوكتيل الذي تريده عصيراً من خلالها . . كان هو مأخوذًا بالفكرة كثيراً . . وأنا كنت منبهرة بالصندوق وبيديه التي احتوت الصندوق العظيم كأنه علبة موسيقى صغيرة .

حدثني عن أحواله يومها . . لم أكن أعلم الكثير ، أخبرني بأنه يعمل في الخارج في أحد البلدان الاجنبية ، حدثني عن أخيه الوحيد ، وعن طفولتهم ، وكيف تفنن أخوه في صغرهم في أداء المقالب به . . وأنه عاهد نفسه بأن يردها له وهم كبار ، وهذا هو هدفه الاسمى في الحياة . . أن ينتقم لعدد فزعاته التي بلل نفسه منها في صغره . . حدثني عن أصدقائه ، وعن أغرب مواقفهم . . ضحكنا كثيراً حتى دمعت أعيننا . . لم تفارق مقلتيه مقلتي لحظة مهما أخذنا الحديث . . اتحدت أرواحنا لحظتها . . حتى أنه تجاهل شيشتة تلك التي قضى نصف ساعة يصفها . . ترك شعلتها تبرد مراراً فقط ليحدثني . . كنت ملكته . لم يظهر مني غبائي ولا ضعفي . . كنت أقوى وأجمل من أي وقت مضى علي . . قضينا ساعتين فقط ، وكان عليّ العودة إلى المنزل حتى لا أتأخر . . اعتدل في جلسته حين أخبرته بمحين وقت عودتي . . وقال بجدية :

لم أشعر بتلك النشوة والسعادة والخوف والتوتر في آن واحد كما الليلة ، ورغم زعمك بشعورك بمثل هذا الا أني استشعرت فيك هدوءاً

وسلامًا نفسيًّا أراه في قليل من البشر . . وجـودك مـريح ، وصـوتك دافيء ، وملامحك توحي بطيب خلقك وخصالك . .

لا أعلم كيف لي أن أشكرك أو ما يسـتوجب فعلـه كـي أخـبرك مـدى امتناني بلقائي بك . .

غادرني مسرعًا ما أن أنهى حديثه ليطلب منهم الحساب ثم أتاني بوجه متغير . . بادرني :

أتذكرين أين صففنا السيارة؟

نعم . . لِمَ؟

هاك المفتاح . . اسبقيني وسألحق بك . .

شاكرماذا حدث؟

افعلي فقط ما قلت . .

خفت أن يكون هناك مشكلة . . خفت عليه أن ينتهي يومـه سـيئًا بعـد ذلك الوقـت الـذي تراقصـت فيـه أرواحنـا ونحـن جلـوس نـدعي الثبـات والجمود . . لم أجادله وسبقته إلى السيارة . . دارت عيوني حولي فالمكان كان مظلمًا يدب في قلبي الرعب والخوف أكثر عليه وعما يحـدث في الـداخل . . لعنت فكرة خروجي معه . . بعض الاحاسيس يجب أن تتبع على مـا يبـدو . رفعت رأسي فوجدته يقف عند نافذتي . . حاملاً صندوق الكنز ذاك . .

فتحت له الباب :

تفضلي . .

أسرقته؟ !

ههه نعم . .

مددت يدي أتناوله منه . .

أجننت . . عليك أن تعيده . . كيف سرقته . . لا يحق لنا أخذ . .

قاطعني . . أن كنت تريدين إعادته كل هذا القدر . . فلم تحتضنينه هكذا

- حسنًا . . لا أنكر أني أحببته . . لكن ليس بسرق . .

لم أسرقه . . لقد ساومتهم عليهم وهم قبلوا العرض . . هو ملكنا الان . .

كم أحببت فكرة أننا بتنا نمتلك شيئًا سويًّا . . لمعت عيناي ورفعتها عن الصندوق أخيراً جهته . . سحبه من يدي :

مهلك . . سيكون ملكك بشرط . .

أي شيء تريد؟ . .

الجواهر ملكي . . والصندوق ملكك . .

أوه . . حسنًا . . لا حاجة لي بها على كل حال . .

علام ساومتهم؟ .

هذه أقل مهاراتي . . يجب أن تؤمني بشيكو أكثر قليلاً . .

اتجهنا عائدين لمنزلي . . مد كفه ملامسًا يدي، ثم أسقط بداخلها مفتاحًا ذهبيًّا جميلاً وبادلني النظرات وقال . .

مفتاح الكنز يا كنزي . .

- لا أعي حتى الان أنك فعلاً أخذته منهم . . أنت حقًّا مجنون . .

- مجنونك يا أميرة . .

اقتربت منه وقبلت وجنته . . . قام بإيقاف السيارة حيث كنا، ونظر إليّ طويلاً . . . خفت أن يكون كره فعلتي . . ثم فكرت لوهلة فيما صدر مني . . وفجعت من فعلتي . .

فقطعت نظراته التي كانت تأكلني . .

آسفة . . لا أعلم لِمَ فعلتُ هذا حقًّا . . كنت أريد شكرك، وشعرت أن كلمة الشكر أقل من ما فعلت لأجلي، ولم أجد في جعبتي كلامًا منمقًا كالذي قلت . . ساترج . .

قاطع كلامي بنفسه، تداخل في نفسي، شفتاه كانتا دافئتين أدفأت روحي بعد سنين من بردها . . . لملمت بعثرة روحي لكنها بعثرت جسدي . .

ما إن انفصلت شفاهنا عن بعضها . . لازمنا الصمت كلانا، وعاود هو القيادة، كنت مشدوهة أتأمل الشارع حولي . . ثم تمتم هو بخفة ومكر :

هكذا تشكرينني يا أميرة . .

لم تستطع شفتاي أن تتقابل لتكون حرفًا آخر حتى وصلنا إلى أقرب تقاطع لمنزلي . . ودعته بعبارات تكاد تكون رسمية، وأكملت طريقي للمنزل كما غادرته . . مشدوهة مرتعدة تصطك ركبتاي ببعضهما . . ولكن شتان بين ما أرعبني سابقًا وما يرعد أطرافي الان . . صعدت إلى غرفتي

وقفت أمام مرآتي . . أتأملني . . كانت لا تزال شفاهي تلمع من آثار رحيق شفاهه عليها . . أو هكذا أملت . .

أوجعني قلبي . . مسحت شفاهي بشدة، وبكيت بكيت كثيرًا بكيت كما لم أبك قط . . كرهت نفسي . . سأخسرك لكني لن أخسرك الان لأني لن أروق لكَ . . بل لأني فتاة عابثة . . لم يكفني أن خرجت معه دون علم أهلي ورافقته في سيارته . . لكني قبلته . . وأنا من بدأ أيضًا ما أغباني . . لا علاج لما بي، أنا متأكده . . ظللت أبكي الليلة، وأكد لي ظنوني غيابه التام، فلم يهاتفني ليلتها . . ولم يضئ الوجه الاصفر المرافق لاسمه في

برنامج المحادثة . . وتركني وحدي ليلتها أعاني عري شفاهي . . وانقلاب كل سعادتي حزن وخوف من فقده . .

استسلمت لفكرة فقداني له . . وظللت ألوم نفسي على غبائها وانحرافها حتى غلبني النعاس . .

واجهت صباحي في يومي التالي بقلب مكسور خجل مبعثر أتممت اختباري، ولا أعلم ما كتبت، ولا ما كان الذي جاوبت عليه .

خرجت أجر قدمي خلفي، وذلك الظل السمين الذي لم يتوانَ عن تذكيري بغبائي .

رفعت رأسي أبحث عن سيارتي لأحمل كل أثقالي تحت لحافي وأنزوي عن العالم، وجدتها مختبئة خلف سيارة فارهة حمراء، ويقف أمامها بظهره شاب طويل عريض المنكبين، أسمر البشرة، مفتول العضلات، يرتدي بنطالاً من الجينز، طبع عليه من الخلف جناحين كبيرين كما أجنحة نسر .

تمتمت بصوت يكاد يسمع أستأذنه أن يتحرك لأخرج بسيارتي .

التف ذلك الملاك لأجده شاكراً يختبئ خلف نظارة شمس وفاحت منه رائحة عطره التي أفاقت جميع حواسي ونصبت ظهري الملتوي . . تاهت حروفي، ظللت واقفة مشدوهة مفتوحة الفم، لا أدري ما أفعل .

مد يداً حانية أغلق بها فمي، وانحنى ليقترب من أذني :

قاربت على إتمام ثلاث ساعات في انتظارك . . أتختلف اختبارات الاميرات عن اختبار البشر أمثالنا؟ . .

لم أملك أن أجاوبه . أي بشر مثلك . . ماذا دهى عينيّ البارحة كيلا ترى كل هذا؟ . .

أجبت وصوتي يكاد يختفي من فجعتي :

هل أنت متأكد أنك كنت تنتظرني؟

- سكنتي أحلامي طوال الليلة الماضية يا نادية . . ادخلي إلى السيارة . . أحتاج أن أحادثك . .

اختفى ذلك الظل السمين تمامًا، ولم يعد بجانبي، تهلل وجهي وركبت سيارته، وظللت أتامله كثيرًا . . لم أر منه شيئًا ليلة البارحة على ما يبدو . . لم أعلم كم هو طويل ممشوق، ولم أميز لون بشرته حتى وجدته مختلفًا تمامًا كأني أراه لأول مرة . . كيف تلمع بشرته كأنه قطعة من البلاستيك . . وعيناه عسليتان تعكسان ضوء الشمس وتتلألأ كأنها شمس بذاتها . . وذاك الجسد . . أقسم أنه يكاد يخفيني داخله . . ما أصغرني وأضعفني بجانبه . . !

توقف عند ناصية شارع منزلي وبادرني :

عودي لغرفتك . . ارتدي ما تحبين وأنا هنا بانتظارك . . وأحضري معك طبقة إضافية مَن الثياب . . ستكون ليلة باردة . .

لَيلة؟؟

نعم سأصطحبك خارجًا حتى يأتي الليل . . ولا تنسي أن تخبري أهلك . . أعلم أنك تستَطيعين اختلاق شيء ما . .

دخلت المنزل أترقب، لم أعرف بم أخبرهم؟ أين سأذهب؟ وأين سأكون؟ ولأي وقت؟ . . فأنا أصلاً لا أعلم أي شيء من هذا . . أنا فقط أوافق على كل ما يقال، وأتبع ذلك الملاك الاسمر حتى الهلاك . .

كنت أعيش مع أختي وزوجها في شقة تحت شقة أخي وزوجته على حالنا هذا منذ وفاة أبي وأمي في عقار تركه لنا والدي لكل منا فيها شقة كاملة بكل أجهزتها وحاجاتها . . لم أكن يتيمة أبدًا، ولم أشعر باليتم يومًا بعد فقدانهم .

لم يترك إخوتي مجالاً لأي نقص فيّ . . رغم انقلاب جميع أقاربنا علينا بعد وفاة أبي وأمي . . كما في الافلام تمامًا . . كادوا لو ينهشوا لحومنا أحياء . . حاربناهم كثيراً حتى استطعنا أن ننفصل عنهم . . كأننا لم نخلق من نسل أحد . . لم نعرف سوى بعضنا، ولم نكن يومًا سوى يد واحدة . . رغم كثرة أخطائهم في تنشئتي . . لكن كيف لي أن ألومهم . . لم يكونوا سوى مراهقين هم الاخرون . .

جلست بجانب أختي كانت تحادث زوجها المسافر . . هو مغترب في إحدى دول الخليج لجمع أكبر قدر من المال، والعيش حياة مرفهة رغم عدم احتياجه لكل تلك الاموال، وهي رفضت مرافقته مراراً وتكراراً؛ لتبقى معي إلى أن يحين نصيبي . . فاكتفى هو بزيارتها كلما تسنت له الفرصة لأخذ إجازة . . . شعرت بارتباكي فأغلقت هاتفها، وأولت كل انتباهها لي مما زاد من خوفي .

- راوية . . أود حقًّا أن أقضي اليوم مع ليلى . . أشعر بالوحدة كثيراً . . وإن تأخرنا فسأبيت عندها . . أرجوكِ لا تعترضي، لم أسألكم شيئًا منذ وقت طويل . .
- ألم ترافقيها البارحة؟ما بالك أتريدين أن يتدنى مستواك الدراسي؟
- لقد رافقتني البارحة ودرسنا . . وها أنذا أبليت حسنًا في اختباري اليوم . . ثم إن جدولي فارغ حتى نهاية الاسبوع الا يحق لنا أن نرفه عن نفسنا ولو قليلاً . . !
- لا بأس . . إن كنت ستبيتين في منزلها هاتفيني وأعلميني . . تعلمين أن ياسر سيسأل عنكَ . .

حصلت على الموافقة . . لكنه لم يكن الجزء الاصعب . . هم دائمًا ما

يريدون إرضائي بعض من الدلال ينهي المهمة ويقودهم للموافقة على أيٍّ كان ما أريد . . ثم إن ذكر اسم ليلى هو إكسير سحري يمهد كل شيء أمامي . . فهم يعرفونها منذ الازل، ويعرفون والدتها وأهلها جيداً، وهي كل ما أملك . . فلا يشكون أبداً في وجود غيرها . . . كان الاصعب عليّ هو ما سأرتدي، وكيف أكون له؟ . . . كيف يريدني أن أكون؟

تأخرت عنه قرابة الساعة . .

ارتديت فستانًا زهري اللون، ريفيًا بسيط المظهر، وكحلت عيني الواسعتين التي تنبض سعادة بقلم كحل أسود سرقته من غرفة راوية . . جملتها حتى تتأمل بشرته السمراء وعضلات ذراعيه التي تكاد تشق جلده، وتساورني نفسي أن أتلمسها في كل مرة تقع عيني عليها .

وضعت حجابًا رماديًّا فاتحًا يناسب نقشة فستاني، وخرجت لأجده في مكانه بنفس تأهبه كأني لم أغب عن ناظره سوى دقيقة . .

ما إن أغلق باب السيارة حتى أقترب مني كثيرًا وأخذ نفسًا عميقًا من أسفلي لأعلاي :

- ماذا تضعين؟
- ماذا تعني؟
- أي عطر تضعين؟
- لم أقرب أي زجاجة عطر . .
- أتقولين إن تلك رائحتك!

ظللتُ أشتم ثيابي :

- أظن ذلك . . ما بها . . أهي سيئة . . أظنني أحمل قارورة عطر في حقيبتي لا تقلق سأصلحها .
- لم افترضت سوءها . . لقد شعرت كأن باب سيارتي فتح أمام

حديقة مليئة بالزهور . . حتى أني لا أميز رائحة زهرة عن أختها . .

احمرت وجنتاي خجلاً من قوله . . معسول اللسان هو . . يكسو روحي خجلاً كلما تغزل بي . .

تسمرت عيناي على شفاهه أثناء حديثه . . لم أكن قد رأيتها البارحة . . رغم أني ما زلت أحسهما وأستطيع وصفهما غيبًا . . الشفاه التي قطعت خجلي التي أخرجتني من قدسيتي، مددت يدي دون وعي مني أحاول أن أتلمسها، وهو يتحدث، لم أدر على كل ما كان يقول شغلت عن صوته الحاد . . لم أكد ألمسها حتى انتبهت بيده تمسك يدي وتقربها من شفاهه . . وضع أصابعي على شفاهه وقبلهما، ثم قال :

- ما بال عيناكِ تلمعان هكذا وأنت تتأمليهما . . أشتقتهم؟

أخجلني انتباههَ لي فأبعدت يدي وقاطعته :

إلى أين نحن متجهان؟

أخبرني بأنه قد اختطفني اليوم، وأني لن أعود للمنزل، أنه أنهى كل مواعيده وأعماله، ليكون هذا اليوم لي فقط لأكون ملكه وحده .

***

(لو أعلم ما لقيت مني ليكون الجفاء هو جزائي . . تفقدينني بقايا روحي بأفعالك هذه . . انقذينا وانقذي ما بيننا أرجوك . .)

بتلك الكلمات ابتدأ نهاري . . لكم بدأت أكره يا شهاب ما أصابك . . كنت أكثر تفهمًا واهتمامًا ! ! أصبحت الايام ثقيلة موجعة بسبب غياب ذلك الحائط من الثقة في اعتمادي عليك الذي بنيته لي . .

راسلته متجاهلة حروفه البائسة . . (سيعود والدي في نهاية الاسبوع المقبل . . وطلب مني أن نحدد موعدًا لزيارة أهلك لنا . . لتحديد خط سير

هـذه العلاقـة . . سـأذهب إلى المقهـى إن أردت الحـديث يمكنـك ملاقـاتي هناك . .)

أغلقت هـاتفي، وغسـلت ملامـح الحـزن مـن وجهـي . . لم أعـرف عروسًا يومًا تحمل كل هذا الهم، وتعايش كل هذه الدراما قبل تحديد موعـد زفافها كما غادرني والدي حزينة ممزقة يبـدو أنـه سـيعود ليجـدني لم أتغـير ألبتة، ولم ترتسم البسمة على شفاهي بعد . .

قابلت خالتي أول ما فتحت غرفتي متجهة ناحيتي تريد مجالستي أثنـاء تناولي الافطار، لكنها تركتني أنهمك في تناول ما حملتـه الصـحون وحـدي لبعض دقائق، ثم استطردت: لو كان البكاء يرد غائبًا أو يصـلح حـالاً والله ما جففت دمعي على أبوي يومًا . . لكن الصعاب تصنع الرجال يـا فتـاة . . حين توفي جداك كانت لا تزال والدتك فتية . . ربطنا حجرًا علـى قلبينـا أنـا وخالك . . وحاربنا أهلنا . . وحاربنا كـل مـا اسـتطعنا . . حاربنـا ظروفنـا وعجزنا وقلة حيلتنا . . استعنا بالله وسعينا، كان همنا الاكبر هـو الاهتمـام بوالدتك وتربيتها . . خفنا ضياعها وخفنـا تقصـيرنا في حقهـا فتعـود لتلقـي باللوم علينا في كبرنا . . ربيناهـا أن تكـون قويـة . . أن تضـع حجـرًا مكـان قلبها هي الاخرى؛ لتستطيع اختراق الصعاب لتبني نفسها لتكـون جـبلاً لا يزعزعه أي عوامل تعرية تمر به أو تحاوطه . . وقـد كـان . واضـمن لـك بأننـا قاسينا الامرين لتكون هي ولنكون نحـن هكـذا، فالحيـاة ليسـت هينـة كمـا تظنين . . ربما لم تكـن أمـك صـديقتي كمـا كنـت أظـن حقًّـا وكانـت لهـا أسرارها لكني والله لكنت أرى الحزن في عينيها والوجع يملؤها وأراها تمتلـئ عزيمة ويمضى اليوم يتبعه اليوم وهي تزهر كشجرة تتبدل عليهـا الفصـول . . حتى تشفى عيناها من كل ما سكنها من شقاء . . لم يفرح بها عدو يومًـا . . من قوتها على الشدائد . . أنـت ابنتهـا يـا ريـم . . اخلفيهـا . . أعلـم أنـك

تستطيعين ذلك وأنا هنا معك ومالم أستطع أن أكونه لنادية سأمضي ما بقي من عمري لأجلك ولأجل بناتي . . . . تذكري يا بنتي . . الرياح لا تحرك الجبال لكنها تشكل الرمال على هواها . . وحاشاك أن تكوني رمالاً . .

قطعت شهيتي عن الطعام . . ولم ترقب لي قولاً . . أنهت حديثها وغادرت إلى غرفتها . . لم يكن في جعبتي ما أقدر على الرد به . . آثرت الصمت وبدأت التحضر للنزول . . ورأسي ممتلئ بحديثها يعاد مراراً وتكراراً في رأسي . . وكلامها يأبى أن يغادر رأسي . . حاولت أن أشتته بمسجل السيارة لكنه أبى أن يتزحزح . . فقررت أن أعمل شيئًا بحقه . . قررت أن أبدأ بالمحاولة حقًّا . . أنا فعلاً لم أفعل شيئًا في الايام الماضية سوى الهروب والاستسلام . . لم أجرب مقاومة التيار ولو لحظة . . ربما أن الاوان أن أعيد ترتيب أولوياتي . . .

أنهيت يومي الجامعي الذي أصبح خاويًا من كل أنواع البشر . . هي مجرد محاضرات ومشاريع يتم تنفيذها . . دون أي احتكاك يذكر بأي أصناف البشر . . والله وحده يعلم كم اراحني هذا وأزال عني هم المجاملات المفتعلة . . والتعزية الشفهية . فما لايخرج من القلب لا يصل إلى القلب . .

توجهت لمكان لقائنا المعتاد علّه يأت . .

وجدته سبقني إلى هناك يجلس في طاولتنا المعتادة ممتعضًا كاشرًا . . ظننت أن بعد اخباري له برغبة والدي سيكون هذا كافيًا بتهلل وجهه وترك أيًّا كان ما يضع هذا الخلاف بيننا جانبًا . . لكن بعض الظن إثم على ما يبدو . .

جلست أمامه فالتفت لي في غضب :

- ألا زلت تريدين إبقائي في حياتك؟

- الحمد لله بخير . . وكيف أحوالك أنت يا شهاب؟
- اسمعيني جيداً . . لستُ لعبة تلهين بها متى تشائين يا ريم، تمر الايام دون أي خبر منك، ثم تبعثين رسالة برغبتك في مقابلتي وعلي أن أكون جالساً هنا بانتظار سيادتك . . لأشحذ منك الكلمات لأعلم ما بك . . متى خلق هذا الجفاء والعلو في قلبك؟؟
- ومن أين جاءتك فكرة أني ألهو بك؟ أظن أن السؤال الصحيح الذي يجب إلقاؤه هنا . . هو منذ متى وأنت تنفعل لغيابي بهذه الطريقة، ومنذ متى وأنا أفتقر لسندك ووجودك وعدم مراعاتك لكل الاحداث التي نمر بها . . هل ترى بأني أعيش في جنة وأتمتع بعيداً عنك وأحرمك من مشاركتي . . لست أعيش سوى جحيم زاده لهيباً وتأججاً غيابك . . أم أنك ستنضم لقائمة الذين تخلو عني حين قست أيامي وزاد عبوسي وقل ضحكي وصخبي . .
- أنا آسف . . أنت محقة لقد كنت أنانياً . . لكنك وضعتني في هامش خفت أن أسكن فيه للأبد . . لم أقبله . . كان لا بد أن أثور . . أعتذر . . أنا آسف حقاً . . لا أدري ما أصابني . . لكن بعدك يضعفني ويغضبني وأنت تعلمين أن لا حيلة لي بذلك . .

أخذتُ بيده وألقيتها على قلبي . .

- آه يا شهاب لو تعلم ما يختلج في نفسي لو تشعر بالحروب المقامة في صدري . . لو تصب . . .
- سأصبر يا ريم سأعوضك سأسعدك . . أحقاً ما قال والدك؟
- نعم أرادني أن أحدد موعداً . . وأجهز للقائكم . .
- أحقاً . . ستكونين لي . . لا أكاد أصدق . . طال انتظاري لهذا اليوم كثيراً . . أشعر كأني في حلم

همهمت على غير مسمع منه . .

- أتمنى أن يكون حلمًا لا كابوسًا . .

***

أخرج من جيبه تذكرتين للسينما ووضعهما في يدي . . وقال :

- من أقصى متعي في الحياة هي مشاهدة الكرتون، تليها مشاهدة الكرتون في السينما، واخترت أولى نشاطاتنا لهذا اليوم أن ترافقينني في أكثر ما أحب . .

- لم يسبق لي دخول السينما سابقًا أصلاً . .

- كم أحب أني أملك كل بداياتك . . يا لحظي . .

شاهدنا فيلم أحدب نوتردام . .

لم أكن من هواة الافلام أو الكرتون أو أي شيء يشاهد عامة . . لكني أحببت مرافقته . . أحببت حبه لأنه سيكون بدايتي في كل شيء . . يكفيني وجوده معي . . تكفيني تلك السعادة أن أعيش بعدها قرنًا من الاحزان . . .

تابعني هو طوال الفيلم كأنه تلمس تيهي في وسط الاحداث يعرفني على الشخصيات وأدوارهم، ويتكهن بما سيحدث ويراهنني على الاحداث، وكلما تحقق ما تكهنه كان يضرب كفه بكفي عاليًا ثم يتكهن بأشياء يستحيل حدوثها في فيلم أعد للأطفال . . فقط ليثير غضبي فأرمقه نظرة تمتلئ بالشر والنهر فتتعالى قهقهاته في تلك الغرفة المظلمة التي بالكاد جعلتني أتأمل ملامح وجهه . . رغم هدوء القاعة . . الا أننا ملأناها صخبًا ثم حينًا آخر يقترب كثيراً وهو يحدثني بصوت هامس، كانت رائحة أنفاسه وصوته الهامس يذيبني مع كل حرف يخرج منه . . أخيراً مد يده التي احتضنت كفي بداخلها، وظل يتلمس أصابعي وأظافري كأعمى يتعرف على ملامح الحياة بلمسات هي كل ما يملك لاستشعار الحياة . .

رغم صخبه ورقته ولمساته التي كانت تجعل دمي يجري في عروقي كسباق مراثون أكاد أسمع قلبي يلهث محاولاً مجاراة سرعة مرور الدم وهروبه. . رق قلبي لضعف ذلك الاحدب. . لوحدته لنبذ الناس له. . ليتمه ذكرني بنفسي وبنبذ الناس لي بوحدتي بغياب والدي. . أدمع عيني حاله بداية حتى تذكرت حالي، وانهالت دموعي أخفيت نحيبي بقوة شديدة كان يرفع يده فسقطت دمعتى على كفه، شهق وأدار وجهه تجاهي ليراني أغرق في بحر من دموعي. . وضع يديه على وجهي واقترب. . حتى شعرت بأنفاسه الدافئة تعانق خدي، قام بتقبيل دمعي من فوق خدي برقة. . استدار كما كان، وعاد لمسك كفي، ولم يول حزني أي اهتمام، تمالكت نفسي وهدأت من روعي. . وحاولت أن أفهم فعلته لكن لم أجد مبرراً. . لم أعتد أن أرى البشر يقبلون دموع بعضهم!

أنهينا الفيلم، ظل ينظر إليَّ طويلاً ثم عقد حاجبيه وقاد سيارته إلى أقرب فرع لمطعم وجبات سريعة.

خيم الصمت على كلينا. . كنت أطمح في تفسير لما فعل. . ثم بعد أن قضى الطريق كله عاقداً حاجبيه. . تلبسني الشك وظننت أنه ربما كره بكائي أو شعر بمدى صغري وتفاهتي. . تلاحمت الافكار والخيالات في رأسي، وعيني متعلقة به ترجوه أن يكسر هذا الصمت. . حتى تمالكت أعصابي وقررت كسره أنا. . بصوت مرتعش وكفين متعرقين. .

- أعجبني الفيلم. . خيار موفق. . أشكرك. .
- إذن لمَ بكيتي؟. .
- أتظنَ أني بكيت لأنه لم يعجبني؟
- ربما. . تتلبسين شخصية الطفلة في بعض الاحيان. .

تجاهلت قوله . .

- بكيت لأنه آلمني . .
- كيف يؤلمك فيلم؟!
- ذكرني بوحدتي ويتمي . . ذكرني بأني بلا أب ولا أم . .

تنهد ورفع بصره نحو السماء، وقال بلهجة حادة . .

- أملك أبًا وأمًا . . كلاهما ناجح أبي مدير شركة للهندسة في الامارات وأمي محاضرة لعلم النفس والاجتماعيات في إحدى الجامعات هناك . . كلاهما سوي ، شخصيات تتملق اجتماعيًا يعانون من غنى مفرط يفوق حدود خيالك . . وحب أو مجاملات ناس مفرطة أيضًا . . أعطاهم الله ابنين . . بدؤوا حياتهم بي . . قبيل كل هذا الثراء الفاحش وهذه المكانة الاجتماعية . . ولتحقيق هذا فلم أكن أولى اهتماماتهم . . أمضيت أغلب عمري بين الحضانات والمدارس الداخلية . . وأي مكان يؤويني حتى ينتهي احدهم من عمله فيحملني للمنزل لتهتم بي الخادمة وتأخذني لسريري استعدادًا ليوم آخر لا يختلف شيئًا عن سلفه . . تفوقت في دراستي كثيرًا رغبة في لفت انتباههم . . لكن دون جدوى كنت طفلاً مثاليًّا رغبة في فخر منهم أو تربيتة كتف . . لكن أيضًا لم أنلها يومًا . .

قاطعه العامل يسلمه صينية الطعام وبجانب الوجبة كيس لعبه . . حمل الكيس بجانبه وقدم لي وجبة للأطفال وضعها أمامي . . وقال: هذا عقاب لك لأنك كنت طفلة تنتحب في الاماكن العامة . .

وتابع حديثه وهو يفتح طبق السلطة الخاصة به ويقطعه إلى قطع أصغر . .

رزقهم الله بأخي . . في إحدى المراحل التي لم أكن أعي فيها كثيراً . . ثم ما إن شد عودي وبدأت بملاحظة ما حولي . . كانوا قد وصلوا لأولى عتبات الثراء الفاحش . . خففوا كثيراً من مواعيدهم وأحمالهم . . لكنهم لم يكتفوا من العمل يومًا حتى وقتنا هذا . . ثم صرفوا فراغهم هذا في مراقبة أخي والاحتفال بدرجاته المتدنية . . فقط لأنه نجح . . فتلك أعجوبة حقًّا تستحق الاحتفال . . أما كل شهادات التفوق والمثالية التي أملكها أمور طبيعية لا ينبغي الالتفات لها . . كبرت وأنهيت جامعتي . . كان الكل يلاحظ نجاحي وتطوري وتفوقي في شتى المجالات . . الا أمي وأبي . . لو جلس عبد الرحمن القرفصاء . . فهذا إنجاز لا بد من توثيقه . . وإن تعثرت بحجر فأنا أعمى غير سوي . . عملت في نفس الشركة التي يعمل فيها والدي، ما إن تخرجت وفي خلال ثلاث سنوات عينت مديراً عليه . . نتيجة لتوسع قامت به الشركة . . ولعلو ايرادات القسم الذي كنت المشارك الاكبر فيه . . لكن هذا كان خبراً عاديًّا مقابل إن أخي نجح أخيراً في كلية إدارة الاعمال الخاصة بعد سنين من رسوبه أو تأجيله اختباراته دون عذر يذكر . .

صمت وتناول قارورة الماء ليشرب قليلا على حين .

أنهيت وجبتي وأنا أتامله . . كأنه يقول أشياء خيالية . . يستحيل عقلي أن يصدق أن كل هذه العقبات تسكن هذا الشخص الكامل . .

أتعلمين . . أمتلك سيارتين (BMW) . . هنا في مصر حيث

أدعهما سنينًا لا يمسهما شخص، وأملك أخرى عندهم في الامارات، وأملك واحدة أخرى رولز رويس في أمستردام . . كلها من حر مالي لم آخذ من والدي جنيهًا ما إن تخرجت . . حفظت القرش فوق القرش لأستقل عنهم . . لأثبت لهم أني رجل يستطيع بناء ألف رجل بعده . . لكن

أخي . . يقود أحدث سيارة بويك هذه السنة . . نعم فهو في كل عام يحضر واحدة جديدة . . وربما اثنتين في السنة الواحدة على قدر معدل حوادثه أو إهمال أحد أصدقائه . . وبالطبع حساب أبي متاح له أيًّا كان ما يشتهي سيكون بالغد ملكًا له . . تبكين غياب أم وأب . . وأنا أبكي وجودهما . . عندي أخ رغم حبي له وشبهه لي في الشكل مما جعلني أحبه أكثر فربما كان هذا هو الدليل الوحيد أني أتبع هذه العائلة . . الا أنهم قادوني لأن أحسده على كل شيء يملكه، وأحسده على حبهم له، وأكره وجوده، وأكره انتمائي لبيتهم كله . .

امتلأت عيناه بالدموع . . وتنهد طويلاً رافعًا رأسه محاولاً منع سقوطها . . مددت كفي محيطة كفه مواسية له . .

رغم كل شيء عاهدت نفسي الا أعاملهم بسوء أبدًا، وساعيش كأن كل ما حدث هو من محض خيالي . . وسأدعي اكتمال قلبي الذي تهشم لألف قطعة على مرِّ السنين . . وسأكون ما أريد يومًا ما . . رغم كل الصعاب . .

وَيْلي يا شاكر . . ما أثقل حملك . . وما أثقل ما حملتني . . أنا أفقد القدرة على الحديث في أتفه المواقف . . كيف لي أن أرتب الان كلمات تداويك . . انعقد لساني . . وسالت دموعي مجاوبة عني، شددت على يده . . تمنيت أن أحتضنه أن يبكي أن يشهق . . أن يخرج كل زفراته وعبراته التي أخفاها في تنهيدته الطويلة تلك . . ما أضعفني . . حتى الاحتواء أعجز عنه . .

أخذ الكيس من جانبه محاولاً تغيير مسار اليوم برسم ابتسامة لم تمحِ الدمع من عينيه . .

- أغمضي عينيك وافتحي يديك . .

فعلت . . فألقى بشَيء صلب بينَ يدي . .

أزلت الكيس البلاستيكي على عجل . .

لعبة تمثل شخصية كوازيمودو (بطل الفيلم . . الاحدب)

صغير بحجم كفي أحببته كثيراً وابتسمت رغم وجع قلبي من حديثه . .

سحبه من يدي وقبله ثم أعاده :

هو قوي . . استطاع التغلب على كره الناس له ، وأحب الفتاة رغم كل شيء وآمن بنفسه . . وأنا قوي . . وأنت قوية . . وسيكون هو رمز قوتنا من الان فصاعداً . . أما عن القبلة . . فهي بئر قبلات . . كلما اشتقت التأمل إلى شفاهي . . ضعي شفاهك موضعها . . واقتلي الشوق . .

- أليس فاقد الشيء لا يعطيه يا شاكر؟ . . كيف حرمت من الحنان والعطاء عمرك كله . . . وها أنت تنفجر حبًّا وعاطفة؟

- فاقد الشيء في بعض الاحيان يكون هو أفضل مصدر للعطاء من ما فقد . . لأنه يعوض نفسه أولاً . . قبل أن يعوض غيره . . ثم سعادة الغير واكتماله ترزق النفس السوية الراحة والسعادة وإن ألم بها أعظم الرزايا . .

عيناك حائرة . . ما بك؟

- فضولي يقتلني لأسألك . .

- أعرف ما تريدين . .

ـ حقًّا . . وما هو أيها المتذاكي . .

- كدت أمسحها بكفي . . لكن رغبة عارمة قادتني لتذوقها . . لتذوق

طعمك . . إن كان عبقك كرائحة الزهور وتسكن سيارتي حتى بعد أن تغادريها . . فكيف سيكون طعمك . .

- من أي كتب الاشعار خرجت؟
- حقًّا لا أعلم . . أنت من يجعلني هكذا . .
- شاكر . . الساعة قاربت الحادية عشرة . . عليّ المغادرة . . سيقلق عليّ أخي . .
- نادية! أخبرتك سابقًا أن اليوم كله ملكي . . أولم تخبريهم بأنك ستبيتين في منزل صديقتك؟
- بلى، لكن يجب أن أعود لمنزلها مبكراً هي الاخرى . . ماذا سيكون رد فعلها إن تأخرت . .
- ومن قال بأنك ستعودين لمنزلها؟
- لم أفهم؟
- ستبيتين معي . . هنا في الشارع . . في سيارتي . . حتى تشرق الشمس . . ستبقين معي حتى الصباح أوصلك حيث تريدين . .
- وكيف ذلك . . لا لا أستطيع . . هذا ضرب من الجنون . . أين سننام .
- لن ننام . . إن كنت تحفظين رقم بيت ليلى . . هاتفيها وأخبريها أنك لا تستطيعين الحضور . . وإخوتك يظنون أنك عندها، وقتها هي لن تهتم بمهاتفة المنزل إن علمت أنك لن تاتي . . هل يملك أحد رقم ليلى؟
- كلا . . هو في كتيبي والغرفة موصدة . . لم يحتج أحد يومًا أن يهاتفها . .

- أرأيت الوضع جد سهل . .

طاوعته . . واعتذرت من ليلى . . لم تناقشني كثيراً . . يبدو أنها كانت تملك مشاريع أخرى سابقًا . . أو ربما سعدت لأنها ستأوي لفراشها مبكراً . . من ناحيتي اقتضبت الحديث كثيراً خوفًا من أي أسئلة لا أقدر على الاعتراف بها . . ثم هاتفت المنزل لأطمئن أختي بوصولي لبيت ليلى . . وأننا سنخلد للنوم حالاً . . خوفًا من أن ترغب في مناولة الهاتف لليلى

كانت أكبر كذبه على أهلي، لم أكن ممن يفعل هذا أبدًا . . غيرني شاكر، كان يعينني على حماقات لم أحلم حتى يومًا بفعلها . . لكن لِمَ لا . . فهو يخرج أجمل ما بداخلي أيضًا . . لابد أن تتساوى كفتي الميزان . .

***

أخيراً عاد أبي وعاد طيبه يملأ أركان المنزل، كادت أن تزهق روحي في غيابه ومع تغير شهاب المفاجيء . . الذي خوى بروحي بأكملها . . رافقته من المطار وحتى سريره كطفلة صغيرة، أتعلق بكفه أحدثه عن تفاهات مبعثرة، وأستمع لهاتفاه عمله بلهفة، واستمتاع فقط لسماع صوته . .لم أستطع حتى أن أبيت بعيداً عن أحضانه . .ظللت أتأمل وجهه أثناء نومه . . الذي كدت أنسى تفاصيله، لم أرث منه سوى قسوة ملامحه، يتأمل والدي وجهي كثيراً لكنه كان يملك رأيًا آخر في تقاسيم وجهي . . ودائمًا ما كان يخبرني بأني توأم والدتي والنسخة الصغرى وبعض الاوقات الاجمل منها كان دائمًا ما يحضر خلافاتنا لكنه يظل جالسًا على كرسيه ويبتسم ابتسامة خبيثة وربما قام وأحضر كاميرته ليسجل هذا الحدث المهم حيث التوأمان يتضاربان . . .

تغيرت الحياة كثيراً بعد وفاة أمي . . أصبحت أخاف فَقْدَ أبي وأتمنى أن أعيش كل ثانية بجانبه، أتمنى لو تعود أمي لأقضي مزيداً من الوقت معها لأشاركها ذلك الافطار الذي كانت تعده كل نهار، وأمر جانبه دون أن ألقي بالاً لها ولم صنعت وأكتفي بوداعها للذهاب مع أصدقائي ومرافقتهم في أحداثنا الروتينية والإفطار في مقهى الجامعة . .

أذكر أني تخلفت عن حفلة عيد مولدها في السنة الماضية التي أعدها والدي رغبة في إبهاجها، فقد كان بريقها منطفئًا لفترة ليست بالقليلة، وحضر كل أصدقائها وكل من أحبت سواي، نسيت تمامًا تلك الحفلة بسبب شهاب الذي شغلني عنها بحجة أنه يفقدني، ولم نمض كثيراً من الوقت مؤخراً . . عدت ليلتها متأخرة للمنزل لأجدها تجلس على كرسي والدي المفضل أمام التلفاز، وبجانبها طبق يحوي قطعة من الكعكة وتنتظرني، كانت عيناها مليئة بالخيبة توجهت نحوي وهي تحمل الصحن قائلة وكل صوتها جهد لمادراة حزنها . .

خبأنا لك هذه القطعة بعد جهد . . أتمنى أن تعجبك

كانت ابتسامتها صفراء . . ليتها وبختني أوخاصمتني لسنين عدة حتى تغفر لي . . ليتها لم تعاملني بلين . . لينها ذلك قسى قلبي ولم ألق بالاً، لِمَ حدث ليلتها، كان كل همي سعادتي أنا وأن شهاب راضٍ عني . . لم تربني هي يومًا على كل هذه الانانية . . لا أعلم من أين اكتسبتها، وكيف خلقت بداخلي . .

لا يمكن أن يكون من تكتب عنها أمي هي نفسها . . لابد أنها رواية من نسج خيالها كتبتها لتملأ وقتها أو في إحدى أيام عملها المملة .

لاتعرف أمي كيف تتهور أو تتسرع، كل خطواتها محسوبة، وأفكارها

مرتبه كأنها تكتب عني، عن تسرعي وتهوري واختياراتي الخاطئة التي دائمًا ما تكون عواقبها وخيمة. . عانت معي أمي كثيرًا في تقويمي وتقويم تصرفاتي على مدار السنين، فقد كنت كربونة تنسخ كل من حولها لم أكن أتخير ما أقلده. . ولا أعلم حتى اليوم لم؟ ربما هو ضعف في الثقة بالنفس. . جعلني أرى كل من حولي أقدر وأصح مني في اختياراته. . وربما لذلك تمردت على الجميع بعد أن أحببت شهابًا. . فهو الوحيد الذي كان لا يعلق على قراراتي أو تصرفاتي بالسلب أو يحاول أن يصنع مني نسخة مثالية خرجت من كتاب. . توافق كل شروط ومعايير أناس لم يصلوا إليها يومًا. . لم أفق من ذكرياتي سوى بغياب نفسي وسط شهقات متتالية ودموع سالت ألمًا ونحيب يصدع الجدران. . قبلت رأس أبي، وحمدت الله أنه لا يصحو الا بهزة أرضية. عاهدت نفسي أن لا يغادرني أبي كما فعلت أمي. . لن يغادرني وأنا أحمل الكثيرمن الندم على غيابي عنه. . يكفيني عقوقًا واحدًا. . لن أحتاج إلى مجلد لا ينتهي آخر لأعرف كيف كان أبي. . سأرافقه في كل مكان. . حتى إن تزوجت أنا وشهاب. . سأراعيه في كبره ووحدته. . لن أدع الشرخ الذي خلفته أمي فيه يكبر بغيابي عنه. . سأعيش في بيتنا مع أبي. لن أغادرة مرة أخرى. .

جالسته صباح اليوم التالي، وأنهلت عليه بكل الاسئلة التي طالما تمنيت أن أعرف إجابتها لم يتجهالني أو ينهرني، ولم أشعر بأنه يومًا كان سيفعل. . ربما علم ما في قلبي من رغبة فالقرب أو ربما كان يود هو الآخر حل ذلك الجمود الذي ترعرع بيننا. .

- ما فعلتي في أمر عريسك المنتظر؟

- هم بانتظار قولك في أي يوم يأتون. .

- غداً سيكون مناسبًا . . .
- لِمَ العجلة؟ ألا تود أن ترتاح لبضع ليالٍ . . ؟
- سَأرتاح إن أتوا غداً . .

لم أجد أي عقبات في إخبار شهاب، ولا هو في إخبار أهله بذلك الموعد الذي متنا شوقًا لانتظاره، فهو الموعد المنتظر المترقب منذ زمن أحصيناه كسجين يحصي أيامه الباقية لحريته . .

***

نحتاج نحن معشر النساء إلى الجمال لكي يحبنا الرجال ونحتاج إلى الغباء لكي نحبهم . .
كوكو شانيل

خدرت أجفاننا ولو استسلمنا لثوان لغط كل منّا في غيبوبة لا نعلم لها نهاية . . لكن كيف لنا أن ننهي لحظة ملائكية مثل هذه بشيء بشري ناقص كالنوم . .

لم أستشعر يومًا الحياة كما كانت تدب في عروقي في تلك الليلة . . كنت أحلق في السماء ووجهي يشع سعادة ونورًا . .

- يالك من كاذبة . . !
- ما يدعوك لمثل هذا القول؟
- لأنك زعمت بأنك تملكين من الجمال أقله . . فمنذ أن رأيتك لا أرى عينين بشريين كالتي تملكينها . . أنت تملكين نجمتين خلقًا فقط ليتوسطا ذلك البدر المنير المشرب بحمرة كأنه خجل من شدة حسنه . . ثم تلك الشفاه الحمراء كقلب ينبض كلما تحركت لتخرج عذب الحروف وتظهر لألىء غفل عنها أمهر الصيادين في العالم . . يا لندرة جمالك وياالروعته . . وما أغباكِ وأغبى من لم يرَ كل هذا الحسن الذي تمتازين به عن كل العالم . . تلك الشعيرات الهاربة خارج حجابك . . بلونها الكستنائي لتطير مع النسمات تتراقص ويتراقص معها قلبي . . تلك القبلة التي قبلتها لك . . لم تكن قبلة آدمية صدقيني . . لقد قبلت ملاكًا بعث النور لروح سادها السواد عمرًا . . حتى تهدج أنفاسكِ في تلك القبلة . . لم أر يومًا في براءتك . . أو حسنكِ . .

- أنت أول من يراني . . أنت حقًّا أول من يشعر بوجودي في هذا العالم بتلك الطريقة . . إن كنت حقًّا ما تصف . . فكيف تكون هذه حياتي يا شاكر . . بالله عليك تعقل . . ؟!
- أريدك كل يوم معي . . لم أعد أقدر على فراقك أبدًا . .
- يبدو أنك تريد لياسر أن يواريني تحت الثرى . .
- أرجوك تعذري بأي شيء، غدًا هو آخر يوم لي قبل السفر . . لا تقلقي ستتجنبين كل هذه المداراة لفترة طويلة من بعدي . .
- سفر؟! أي سفر هذا؟؟
- أعمل في أمستردام يا نادية تعرفين ذلك . . تنتهي إجازتي بعد غد وسنرحل . .
- أتمزح؟! ستفارقني؟
- لن أفارقك للحظة . . سنتفق غدًا على ذلك . . دعي كل شيء للغد أرجوك . .

خُطفت مني سعادتي وتلبسني الحزن رغم محاولتي في مداراته وترك الغد للغد . . خفت ما سيحل بي بعده . . خفت فقدان الحياة بعد أن وجدتها . . خفت غياب السعادة والحرمان منها بعد أن أغرقت وتشبعت بها . . لا أعلم كيف أكون بعده

لا يمكن أن تقص جناح طير وتعيده للمشي بعد أن ذاق الطيران . .

لا يمكن أن تعيد روحه إلى قفص بعد أن هامت في الدنيا . .

لم تعش روحي إلا بوجوده كيف ستكون بعده .

حاولت أن أغير مسار ذهني فيما تلبسه ونطقت دون تفكير . .

- إذن . . غدًا تقابل ليلى . .

- ما تريدين هو ما سيكون . .

ندمت على ما قلت لحظة خروجها من فمي . . لو تفكرت لنصف الثانية لما قلت ما قلت . . كيف لي أن أعيد الخطأ للمرة الألف . . كيف لي أن أريه ليلى الجميلة الضاحكة المتوهجة . . ماذا لو سلبت لبه؟ ماذا لو سحره جمالها ماذا لو رأي فيها القوة والاستقلالية التي لم يرها يومًا في . . انبثاق روحي من مخدعها لا يعني عدم قدرتها على تملكه . .

أفسدت على نفسي توهجي وسعادتي بقولي هذا . . وبت أرقب ذلك الغد الأسود الذي سينهي كل ما بنيته . .

خرجت أشعة الشمس من بين السحب في استحياء منكسرة خافتة الشعاع تشبه نفسي التي أعتمت . . ثم أشرقت كاملة بقوة وحرارة . . معلنة انتهاء موعدي معه . . كرهت استحياءها وكرهت اكتمالها الذي أعلن فراقنا . . ولعنت هذا الصباح من قبل أن يبدأ . .

جررنا أجسادنا ثقيلة إلى السيارة، وظللنا نجوب في أنحاء القاهرة هربًا من موعد الفراق . . وبقي ذلك الشريط يدور ويدور معيدًا نفس الكلمات تاركًا إياها تسبح في أذهاننا تدعونا للصمت وتخيفنا أكثر من فراقنا المحتم . .

ليلة من عمري . . ليلة بكل الزمان
ليلة من عمري باللي جاي واللي كان،
أنا كنت بحلم بيها أول ما شفت عينيها . . حسيت بحاجة غريبة . .
حسيت ويّا الحبيبة بالراحة والأمان . .
شفتك ملاك وسط الزحام دخلتي قلبي والسلام . .
هما يادوبك نظرتين . . حبيت وتاه مني الكلام . .

اكتفينا بتبادل نظرات متألمة مودعة منكسرة في زحام وضجيج صوت الأغنية . . كنا كبداية إشراق شمس هذا اليوم . .

تعامدت شمس الضحى وظل بيتي يحجب عني سعادتي . . أجر نفسي جرًّا لمغادرة السيارة دون أي حديث . . أخبرته عيناي كل ما أريد . . أعلم بأنه يفهمها جيداً . .

***

لأول يوم منذ وفاة أمي تمتد يدي مرتجفة تبحث عنها في خزانتها . . . وددت فعلاً أن أتلبس ملامحها وثيابها ورائحتها . . أكون توأمتها كما كان يخيل إلى والدي من قبل . .

بقيت بعض تفاصيل غرفتها بعدها على حالها، لم يتجرأ أحدنا على تغييرها ولم يكن ليستطيع فما أن تدلف غرفتها حتى تجد آخر قميص استبدلته لا زال معلقًا على حاملة ثيابها بجانب ذلك المصباح الذي ينير لوحة مفاتيح جهازها المحمول الذي لا زال في مكانه كما تركته يشتاق أن يتلمس أناملها الرقيقة أن تتراقص عليه لتكتب أجمل القصائد، وتظل ترقب شاشته التي كساها التراب الأسود حزنا على فراق مقلتيها . . لا يزال عبقها على الكرسي وعلى المفرش المتدلي من الطاولة . . كأنها غادرت البارحة . . أو كأنها ما غادرتنا يومًا .

توجهت إلى خزانتها يقودني الحنين إليها وإلى جمالها وأناقتها . . تمنيت لو أني أتوجه لخزانتها لأتخير لها ما سترتدي هي في حضرة خطيبي . . لا لأحاول تلبسها . . كي أشعر بوجودها معي . .

خزانتها مقسمة إلى ثلاثة أقسام . . قسم تحبه وترتديه بكثرة، وقسم لا تهواه كثيراً لكنها ترتديه لأنه يليق بتفاصيل جسدها، وقسم آخر تعشقه كثيراً، ولكثرة حبها له تكاد لا تمسه أو ترتدي أي شيء فيه . . رائحتها لا زالت تملأ هذا الخشب الخالي من الروح يحفظ ذكراها هو الآخر بطريقته

الخاصة . . امتدت يدي للقسم المحرم لمسه أعلم أنها كانت لتختار منه، فهذه مناسبة خاصة جدًّا . . أغمضت عيني وتلمست القماشات وقررت أن أختار على أساسها . . تنقلت أصابعي بين عدة أقمشة واستقرت عليه . . فتحت عينيّ متأملة جمال ما تلمست . . مخملي كحلي كليل تلمع قماشته كنجوم في كنف السماء تضيء عتمة الليل . . ينساب على الجسد ليظهر أجمل تفاصيله دون ابتذال أو تكلف . . أسقطته على جسدي . . فأظهر انحناءاته التي اختبات أعوامًا في بنطالي الجينز وقمصاني الواسعة . . كأنه خلق لي . .

أحطت عنقي بعقدها الماسي الذي أهداه أبي لها في عيد زواجهم العام الماضي، تعطرت بعطرها الفرنسي المفضل . .

الذي كان يكسبها رائحة الورد كأنها طاقة متفتحه من الزهور تتحرك في الأرجاء . . سكنتني روحها ما أن لامس العطر أنفاسي . .

أسدلت شعري في صمت يغطي ظهري الذي تعرى بغيابها . . ابتسمت في مرآتها وهمست لروحها . . اشتقت لك أمي .

خرجت حالمًا سمعت صوت الجرس . . وأبي يناديني . .

حملت سترته وتبعته على الدرج كي ألبسه إياه . . ما إن امتدت يدي إلى كتفه التفت بعينين زائغتين لم تلبث أن لمعت بدمعاته وضمني بشدة إلى صدره وهو يكرر نادية كأني أرى نادية مرة أخرى . .

جففت دموعه بكفي . . وقبلت رأسه وأنا أهمس . . (هي هنا . . هي ترانا) .

أسنبقى لاستقبال شهاب وعائلته . . كنت أختبئ خلف قضبان السلم . . أنتظر دخول قمري أتأمله وهو متأنق لأجلي . .

- دخلوا يسبقهم خال شهاب تليه والدته ثم أطل هو في حلته السوداء يحمل باقة ورد أبيض بلون قميصه، رفع بصره ناحية الدرج حيث كنت أختبئ. . وغمزني بعينه. . يعلم أني سأختبئ لأجله. . يعرفني جيدًا ذلك الجميل.

غبت عنهم لوقت ليس بالقصير. . أبي رجل عاقل أعلم بأن كل شيء سيسير على ما يرام، تشاغلت في تحضير العصير، وتقسيم الكعك في الصحون. . حتى تهادى إلى صوت والدي ينادي.

أحضرت العصير ودخلت إلى الغرفة. .لم أصطنع الخجل. . كان وجهي يتورد حمرة وحده، لم أحلم يومًا بمثل هذا ولم أصدق حدوثه، وقف شهاب يتناول مني الصينية، دارت عيني حولي، وجوههم تطمئن بالخير، تنفست الصعداء والتصقت بجانب والدي. .

أمسك والدي بيدي وقال:

لم أملك يومًا شيئًا قيمًا في حياتي، ولم أحلم يومًا بامتلاك شيء أخاف فقده حتى اليوم الذي قابلت فيه نادية. . علمت أنها لابد أن تكون لي. . جسدت هي كل أحلامي، ولأجل ذلك عاهدت نفسي أن أكون جنتها في هذه الدنيا. . تلك الابتسامة التي كانت تضيء وجهها، والله أني كنت على استعداد لجلب الدنيا لها لأرى تلك الابتسامة تزينها فيطمئن قلبي، ولم أظن أني يومًا قد أحب شيئًا في هذا العالم أكثر. . حتى رأيت هذه الجميلة. . نسخت الجمال من والدتها لتجبرني على حبها. . حتى ذبت بينهما لم أعلم ما فعلت يومًا لأملك كليهما. . ثم أراد الله أن يرد نادية إليه. . إنا له وإليه راجعون. . الحمد له لعل كليهما كان كثيرًا عليّ. . لكني أكتمل والله بوجود جميلتي هذه. . وأحقق اليوم وصية أمها لي بأن

أسعدها وأهون الطريق لقلبها وقلب من تحب . . من اليوم يا شهاب انقل أمانتها إلى رقبتك . . سلمتها لك وردة مكتملة النمو والنضوج . . وأقسم برب العزة إن ذبلت وردتي فلا تلم إلا نفسك . .

تغير وجه خال شهاب . . فأحكمت قبضتي على يد والدي فتبسم ليكسر لحظة الجمود . .

ابتسم خاله على مضض وقال : الفاتحة؟

هز رأسه إيجابًا مداريًا دموعًا تساقطت على غفلة منه . .

قام الكل يسلم على بعضه ، وتلاقت الأكفف تبارك وتهنئ . . حتى تلاقى كفي بشفتيه . . اقترب مني وقال مبروك علينا . .

سحبتُ يدي على عجل وابتسمت . .

قبضت على والدي في حين سهوة بعد أن ودعناهم يقف أمام مرآة غرفته ويتمتم . . فعلت ما وصيتني يا نادية . . أرأيتي جمالها وبريق عينيها . . ليتك كنت هنا . . ليتك كفرتي عما فعلتي ، وكنت أنت من أهداها له كما تمنيتي دومًا أن تزفيها وتزينيها بنفسك . .

تسللت لغرفتي حتى لا يشعر بوجودي . .

لا أدري يا أمي لِمَ جعلتنا ننتظر لسنوات من أجل لحظة ما أبسطها . . أخبرتك كثيرًا أنه أمر سهل ، وأن أهله طيبون ، وأنه لم يرد بي إلا خيرًا . . لكنك كنت متلبسة بالسيئ من الظن دائمًا في كل ما يخصه . . ليتك كنت حاضرة معي يشرق وجهك بابتسامة أو حتى بدمعه ، لأن ابنتك كبرت وستغادرك . . ليتك أنت من اختار لي ما أرتدي ، ومن عطرني بعناق منك فأتعطر برائحة جسدك . . رحمك الله كل الأفراح منقوصة بدونك . . رغم قسوتك . .

بدلت ثيابي وانتظرت هاتف شهاب يخبرني تفاصيل الحديث الـذي لم أحضره، ونتحدث حتى تكل أعيننا من حمل أجفاننا . . يتغزل بي وبجمـالي وبجمال ما كان . . لم أطق انتظاراً حتى يحادثني فاستبقت المهاتفة . .

فقدت زوجي . .

- مرحبًا
- أين موقعك؟
- في المنزل يا سيدتي
- كل شيء على ما يرام؟
- نعم كنت أبدل ثيابي استعدادًا للنوم فقط
- غدًا جمعه . .
- أعلم وماذا في ذلك؟
- يعني أنه بإمكانك السهر قليلاً معي، الليلة أود حقًّا أن نكمل الليلـة سويًّا . .
- نسهر في الغد يا ريـم حتـى وإن كـان جمعـه سأسـتيقظ مبكـرًا لأداء الصلاة . . لا فرق بين السهر اليوم وأي يوم آخـر . . تصـبحين علـى خير يا عروس . .
- أي عروس تلك!
- يبدو أنك تبحثين عن أي جدال . . لست بمزاج لهذا حقًّا . . وداعًا .

***

مازال ثوب المنى بالضوء يخدعني قد يصبح الكهل طفلاً في أمانيه . .

فاروق جويدة

لم تغفل جفوني حتى هاتفني وطمأنني بأنه في منزله يكاد يموت ضحكًا :

- لقد غفوت ما يقرب من ثلاث مرات وأنا في الطريق للمنزل، لا أعلم كيف وصلت سالمًا . . لكن أقسم لك أني اشتقت لك جدًّا وإن لم أصل سالما، وغفوت حتى وإن تناثرت أشلائي على الطريق سيكون فدى لعينيك الجميلتين التي أسكرتني تلك . .
- أعوذ بالله من قولك . . حفظك الله من كل شر . . نم بسرعة . . بضع ساعات وعليك العودة لي مرة أخرى . . لن أقبل أي تأخير
- أعد الثوان عدًّا . .

احتضنت سعادتي خوفًا من أن تفلت مني، وغرقت في أحلام لا تنتهي . . .

باتت أحلامي واقعًا وأخيرًا أستطيع أن أقول أني سعيدة بحق، وأخيرًا تغير حظي، وامتلكت شيئًا يستحق البقاء . . لم أغب في نومي . . كان لابد أن أستيقظ قبيل الظهر لأساعد أختي في تحضير الغداء، ولأمهد لها أني الليلة أيضًا سأكون برفقة ليلى . . لم أكن أحتاج لأنام، واقع كهذا لابد أن أعيش كل ثانية فيه . . خاصة وأنه يشارف على الانتهاء . . .

- قضيتي وقتًا جيدًا ليلة البارحة؟
- نعم واليوم أيضًا سنخرج سويًّا . . شارفت أمها على المجيء ونود الاستمتاع بكل دقيقة قبل مجيئها، وحبس ليلى في البيت . .

- حسنًا . . كم أود لو تبقوا في المنزل . . أكره فكرة خروجكم وحدكم كثيرًا . .
- لا بأس سأخبرها . .

كنت أتمايل وأرقص وأغني وأنا أرتب الصحون، أتامل ملامحي من وقت لآخر . . شعري يداعب وجهي ويتمايل معي . . لأول مرة في حياتي أشعر أني أنثى . . جميلة مبدعة كنت أشعر بالحياة تدب في عروقي، وتتجدد في كل ثانية . . أذكر حديثه فترتسم الابتسامة على ثغري . . أذكر لمساته فاهيم . . أذكر عطره فأجد قدماي تخونني وتتمايل، ولو تركت العنان لها لتراقصت من فرط الهيام . .

أثناء هيامي كانت وفاء زوجة ياسر تهمس لأختي على مسمع مني دون درايتهم :

- هل أدمنت أختكم؟
- دعيها . . لم أرها يومًا تشع حياة كما اليوم . .
- لا يعجبني حالها . . لقد تسمرت، يكاد ينشق ثغرها من ابتسامته أمام المرآة فوق الألف مرة .
- حقًّا لا أعلم ما أصابها، لكن يعجبني على كل حال . . فلم تعد بائسة تحملني هم وحدتها .
- لِمَ؟ مَنْ غَيّر مِنْ وحدتها؟
- لَا أحد، هي مَا زالت تتسكع مع ليلى . .
- لا أطيقها ليلى تلك . . لا أعلم كيف تدعونها تقضي كل هذا الوقت معها .
- إن امتلكت يومًا صديقة غيرها أعدك أن أمنعها منها . . لكن حتى

اليوم لم يكن لها يومًا صديقة سواها . . ومللت وحدتها وحزنها وبقائها في غرفتها طوال اليوم ثم لومنا على ذلك . . مللت حمل همها .

هاتفت ليلى :

- يجب أن نراك اليوم .
- ماذا تفعل نونَ الجمع في حديثك؟ من انضم إليك؟
- ستعرفين عندما نقابلك . .
- انحرفتي؟
- نعم ههه .
- وستجمعيني مع الانحراف الخاص بك؟
- نعم .
- لا بأس . . لكن سأغادرك ليلاً لبعض الوقت لأقابل سامي . .
- يا حبذا لو تغادرينا بعد أول خمس دقائق .
- هه ، ولمَ أحضر من الأصل؟
- أود حقًّا أن تقابليه . .
- الأمر لك . . إنه عيد يوم أن أراك تنحرفين . .

***

لا أعلم حقًّا ما بدر مني كي تقابلني بهذا الجفاء في ليلة خطبتنا . . أم أنك لم تجف وأنا من يضخم كل الأمور . . بت الليلة باكية . . . وأذكر أمي . . لا أعلم لمَ أذكرها . كلما تألمت ربما حقًّا يذكر الإنسان دائمًا مصيبته الأولى عند كل فاجعه تلم به . . لعلها كانت محقة وأنت لاتصلح لي . . لكن كيف بهذه السرعة كيف تبدأ الليلة بسعادة غامرة ثم تُدفن كل ملامح السعادة وسط كل هذا الغضب والحزن .

هاتفتني ابنة خالتي صباحًا، وطلبت مني ملاقاتها، وافقت على عجل، اشتقت وجودها هي وإخوتها حولي، لطالما كنَ صديقاتي المقربات. . وطالت وحدتي وغياب الكل عني مؤخراً. .

رافقتني طيلة النهار تمشينا في الشوارع وعلى النيل تحدثنا كثيراً أخبرتني بأننا سنذهب للغداء في فندق في قلب القاهرة. . FOUR SEASONS

وأن إخوتها ينتظرننا هناك. . لم أمانعها في شيء. . كنت أحتاج تلك الرفقة. . وأحب ذلك الفندق كثيراً، وأحب أن أتمشى إليه تلك الأشجار الجميلة الكبيرة العتيقة التي تقابله تبعث الراحة في نفسي كثيراً. . رافقت شهاب كثيراً من الأيام في ذلك الطريق. .

تمشينا حتى قرب غروب الشمس، واقتربنا من الفندق كثيراً، تفاوتت احاديثنا بين اخبار عملها وإخوتها، وحادثتها عن ما ارتديت ليلة البارحة وعن دقات قلبي التي كادت تخنقني. . كانت صديقة جميلة وهادئة لمعت عيناها كثيراً حين حدثتها عن ليلة البارحة.

قطع حديثنا صوت رنين هاتفي أجبت مدارية غضبي وحنقي منه. .

- حبيبي.
- أين أنت؟
- مع بناتَ خالتي.
- وهل أخبرتني برغبتك في الخروج؟
- ماذا؟
- ألغيتي وجودي من حياتك؟ عليك بإخباري برغبتك قبل الخروج يا جميلة من الآن فصاعداً. . ثم لسبب بسيط. . أنا أقف أمام بيتك الآن. . كيف لي أن أعرف أنك لست فيه. . ثم إن أصابك مكروه ألايحق لي أن أعرف مكانكِ. . ؟ أحوالك لا تعجبني.

- . . . .
- هل أحدث نفسي؟
- من أنت؟ متى أصبحت هذا الشخص؟
- حقًا هذا هو ردك . . عودي لرفيقاتك اكملي يومك بدوني يبدو أن حياتك كلها صارت تمارس بعيدًا عني . . لا أفهم ما بك .
- بعد إذنك . . يكفي .
- سلام .

علت الخيبة وجهي . . أمسكت رؤى بيدي :

- لا تحزني هو فقط يشعر بأنك ملكه ويود السيطرة عليك . كلهم كذلك يتحولون ما أن تصبحين ملكًا لهم . أعتذر على التدخل لكن صوته كان مرتفعًا جدًا . . سيحادثك ويراضيكِ . . أرجوك لا تحزني . .

لا أجد ردًا يقال . . اخترته لأنه لا يشبههم يا رؤى ، لأنه كان يعلم كيف يدللني ، كيف يجعل قلبي ينبض سعادة ، كيف أصبح هو نفسه سبب وجع قلبي ، وبعد أن كان مهربي من كل الدنيا صرت أهرب منه إلى الدنيا . . آثرت الصمت وابتسمت محاولة أخيرة ليمضي اليوم كما كنت آمل . .

توجهنا لإحدى القاعات في الفندق ، قدماي لا تحملني ، ولا أعي أين تقودني رؤى . . ظننتها تود السؤال عن شيء قبل أن نتوجه لقاعة الطعام . .

ما إن دخلنا القاعة حتى توجه ضوء نحوي ، وعلت أنغام موسيقى كلاسيكية ، تلفت حولي فوجدت رؤى اختفت ، المكان مظلم تمامًا سوى الضوء الموجه علي . . ثم ظهر ضوء آخر مسلط على شهاب راكعًا على ركبته رافعًا يده تجاهي ويحمل خاتمًا ويقول . . أشهد العالم كله أني أحبك . . اتقبلين بي زوجًا . .

ارتعد جسدي وانحنيت تجاهه أرفعه وأنا أردد نعم من ألف سنة ولألف سنة نعم . .

سحبني تجاهه . . وضمني إلى صدره . . وهمس في أذني :

مبروك يا مهجتي استقرارك بين ضلوعي . .

جمعت قواي واستيعابي ، ونظرت إلى وجهه . . سالت دموعي .

- أقسم أنه كان باستطاعتك أن تفاجئني دون كل تلك الدراما . .

- صدقيني هي هكذا أوقع . . أعتذر منك يا جميلتي كثيراً . . لم أرد سوى حبك الدور كي لا تشكي في شيء أبداً . .

توسطنا القاعة وعزفوا لنا وبدأنا الرقص والزغاريد تحفنا . . كنت أول عروس ترتدي الجينز في يوم خطبتها ، لكنها كانت أجمل ليلة في حياتي . . كان الكل سعيداً ، وجوههم متهللة حتى والدي كان يرقص ويضحك . . بعد غياب طويل للفرح عن ملامحه . . أهداني شهاب ليلتها دبلة من الألماس تلمع كبريق عينيه وهو يجثو على ركبته . . وانعكست ببريق دموع الفرح في عيني .

أحببت كل تفاصيل ذلك اليوم . . كان كيوم في الجنة . .

***

الحياة أمل فمن فقد الأمل فقد الحياة

أفلاطون

أنهينا غداءنا وتجهزت للقاء شاكر وشفتاي تلهثان بكلمات لا تنقطع. (يارب أطفيء سحر ليلى عن شاكر) مرات ومرات حتى هُيء لي أني نسيت كل الكلام إلا هذه الجملة،

كنت أود لو أنهي هذا الموعد الشائك وأتهرب من ليلى بأي عذر.. لم تكن لترفض أو تهتم.. لكن لا بأس سيظل اختباراً جيداً له.. وربما من الأفضل أن يكون في بدايتنا، سيكون الجرح أقل أن تخلى عني الآن دخلت عليّ غرفتي أختي قائلة وابتسامة ماكرة تعلو وجهها..

توترك يشغلني.. أين ستذهبون اليوم..؟

- لا شيء مميز سنقابل بعض أصدقاء ليلى.. لكنها المرة الأولى التي أراهم فيها..
- حسنًا.. أين ستتقابلون..؟
- لا أعلم بعد أي مكان قريب من منزل ليلى كي لا نتأخر.. لكني أظننا سنختار مكانًا فخمًا هذه المرة.. على الاقل هذا ما فهمته..
- حسنًا على كلٍّ يبدو الأمر جللاً بالنسبة إليك.. ارتدي هذا ستكونين مميزة أيًّا كانت وجهتكم..

ارتديت ما أحضرت.. بنطالاً أبيض يصف خطوط جسدي في عذرية وقميصًا حريريًّا لونه كحلوى قطنية ينتهي بحزام احتضن خصري.. لم أر جسدي جميلاً يومًا كما ارتديت ما أحضرته لي راوية.. فوقهم ناولتني معطفًا صيفيًّا كما العباءة ستر مني وأبدى في نفس الوقت.. سحرت

الثياب جسدي . . تلبس جسدي نعومة ما لبست وأناقته وترتيبه فتحولت لأنثى ناعمة أنيقة هادئة، بقي لها أن تخط أهدابها بكحل سقي من سواد عينيها لتكتمل أركان السحر . .

تهادت خطواتي فلم أعد عجولة صاخبة طفولية . . رافقته في سيارته لنقابل ليلى في أقرب مركز تجاري لمنزلها . . لم أكذب على أختي في كل شيء . . . مازال في كلامي بعض المصداقية وبعض الجهل يكون مريحًا لي ولهم . . كنت أعزي نفسي بذلك لاسكت ضميري . . وأشغله عن لحظة لقاء شاكر بليلى . .

كان يسترق النظر إليّ بين الفينة والأخرى طوال الطريق، ثم يتشاغل ببحثه عن المكان المنشود . . لم يعلق أو يبدي أي رأي في مظهري رغم اختلافه . .

كانت كعادتها تتوهج جمالاً وسعادة، تستطيع سماع رنين ضحكتها على بعد خمسة أمتار . . أحبها وأكرهها في آن واحد، وضعت يدي على قلبي وأحكمت القبضة . . صوتها حولنا يتردد صداه في كل أرجاء المركز، وهي تصرخ معلنة سعادتها بلقائي بعد غياب . .

اعتصرتني في أحضانها، ثم اعتدلت ورفعت خصلات شعرها من على وجهها . . مدت كفها في دلال تجاه شاكر . . وقالت بنبرة دلال تعرت من كل الصخب الذي سكنها قبل قليل . .

- ليلى . . المحامية رقم واحد في العالم . . وأخت نادية التي لم تلدها أمها . .
- شاكر . . ممنون بلقائك . .

قال جملته وهو يمد كفه ليحتضن كفي . .

اطمأن قلبي للحظة . . أحسست بأنه أعلن أنه ملك لي .

جلسنا في مطعم اختاره شاكربعناية . .

بعد مبادلاتي معها ليومياتنا وأهم الأحداث التي مضت ، فالفترة التي لم نلتق بها . . حولت ليلى مجرى حديثها وتجاهه إلى شاكر . . متسائلة :

- صف لي كيف ترى فتاة احلامك؟

صعقت لسؤالها . . ذات السؤال الذي وجهته له في أول حديث حقيقي لنا سويًّا . . اعتدلت في جلستي وزاد توتري ، ابتلعت نصف كوب الماء المقابل لي في غصة . . . علّه الآن يفكر بأني نسخة مقلدة عنها . . تساءلت هل أنا حقًّا نسخة لها؟ هل هذا السؤال نابع من فكرها الخاص أم من كثرة ما نقضي من الوقت سويًّا تشابهت أفكارنا؟ . . أسكت أشباحي وهواجسي . . على أن أبقى متيقظة في العالم الحقيقي على أن أحمي شاكرًا من سحرها . .

ابتسم ابتسامته الآسرة . . رغم الفلجات التي تفرق بين أسنانه . . لكن صفًّا من اللآليء رص تحت شفاه ممتلئة وردية كأن وجهه لم ير شمسًا ولا كدرًا قط . .

- فتاة أحلامي يا ليلى هي أمام ناظريك . . من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها مرورًا بحاجبيها اللتين قد خُطا كسور يحمي كل هذا الجمال ويزيدان جمالها فتنه . . ثم تأملي شفاهها ، وذلك اللسان الذي لم أر يومًا أطول منه ، ولذلك أظنها تخرجه طوال الوقت بدَلاً من الإجابة ربما لأن فمها لا يساعه حقيقة . . هي معجزة يجب أن نبلغ عنها مسؤولي موسوعة غينيس . . لو أكملنا ما انتهينا بعد ألف عام . . تأمليها يا ليلى ليتك تتامليها بعيني . . هي فعلاً كل ما كنت

أحلم وأتمنى أن يجمع في أنثى . . تنتصب كحرف ألف شامخ يحمل همزة أعلاه أمامك . . تأملي أولها وأخرها خارجها وفي أعمق أعمق أركانها . . يسكن الجمال كل جوانبها . .

كادت ليلى أن تساله سؤالاً آخر حتى أشار بيده لها أن تتوقف، وقال : دعينا نلعب لعبة جميلة . . كل منا يسأل سؤالاً . . والآن هو دور نادية . .

أي لعبة وأي سؤال تريد مني أن أقول يا شاكر . . شللت أطرافي وجف لساني ما عاد قادراً على رص الأحرف وامتلاكها . . أعلمت بتوتري أم أن هذا ما يسكن قلبك حقا!

لم تبال ليلى بأنه سحب دفة الحديث منها، وقامت لتقف بجانبه حاملة ملعقته راغبة في تذوق طبق الحساء الخاص به . . واقتربت من وجهه كثيراً وهي تتناقش معه عن مدى لذة حسائه ومحاولة تخمين مكوناته . . وهو قد استسلم لحديثها تمامًا متناسيًا وجودي للحظات ربما . .

ازدريت ريقي واصطنعت اللا مبالاة وقلت بصوت عالٍ أعاد ليلى إلى كرسيها وحول انتباهه لوجودي مرة أخرى :

لطالما كان هناك شيء أتساءل عنه منذ أن عرفت اسمك . . ما هو تدليل اسمك؟

- حقًّا هو سؤال لا إجابة له . .

سأعطيك الخيارات التي أعرفها واختاري منها ما يناسبك . .

على مدار عقودي الثلاث دللت وآكد بأنه كان المقصود الدلال بالأسماء الآتية . .

تعودت من أصدقائي على مناداتي ب (شيكو) رغم أنه ملاصق لاسم شريف لكني تصالحت ذاتيًا معه . .

والدتي اعتادت منذ صغر سني بمناداتي (شرشر) حتى وصلت إلى المرحلة الثانوية، وقامت بيننا حروب انتهت باتفاقيةغير محدودة المدى على أن تبدلها بشوشو.. رغم محاولاتها باقناعي أنه اسم القط في كرتون أليس في بلاد العجائب، وهو كان شخصيتي المفضلة في الفيلم!

أما إخوتي.. فيبدو أنهم كانوا يظنون أني من أهل قريش وانضممت للإسلام مؤخراً.. فأنا عندهم شيبوب..

وأخيراً أكثر لقب اعتدت سماعه وما زال حتى الآن لم يتغير هو صادر عن والدي قدوتي.. وهو يا حيوان.. ما إن يتردد صدى هذه الأحرف في منزلنا حتى أعلم أني المقصود..

لك حرية الاختيار يا جميلتي.. لكن أرجوك حاولي الابتعاد عن الاقتداء بوالدي..

تعالت ضحكاتنا جميعًا في المكان..

دون أن يحاول حتى.. جعلني شاكر أتعلم أن أكون موجودة.. وإن كنت لا أرغب فهو كان يسلط الضوء عليّ.. ينبه كل العالم حولنا لوجودي ولأهميتي.

في اختيار الطعام كان يشاركني ويتفنن في وصف الأطباق لي بكل تفاصيلها ويتساءل عما أحب وأكره.. ما أجمله شخص يشعر كل من حوله أنه يحبه ويهتم به.. لم يقلل من ليلى ولم يعظمها.. ليتني أستطيع تعلم أن أكون مثله.. هو نجم متوهج ويعكس ضوءه على ما حوله..

***

عالم آخر تهيم فيه روحك حين يمتلكها نصفك الآخر.. تمشون بين البشر منفصلين لكن أرواحكم متصلة يشهد عليها ذلك المعدن النفيس الذي

يزين بنصريكما . . هو درع يدل أن تلك الروح وهذا الجسد هو نصف لشخص آخر في هذا العالم . . اكتمل باكتمالهما معًا . .

انتظرنا كثيرًا هذه اللحظة . . لم أخطئ اختيار طريق لأول مرة في حياتي . . علمت أنه هو من سيحفظني من سيصونني لآخر عمري . . لا أعلم حتى الآن إن كان ما أقرؤه في مجلد أمي الغامض هذا حقيقة عاشتها وعاصرتها . . أم هو من محض خيالها وكتاباتها . . كانت أمي كثيرة الكتابة واسعة الخيال . . تحتفظ بالعديد من الملفات التي تكتبها والقصص القصيرة التي تؤلفها . . لطالما حلمت بأن تنشرها وتصبح كاتبة معروفة . . لكنه يستحيل أن تكون أمي هي هذه الإنسانة . . فأمي أعقل كثيرًا من كل هذا . . لربما كل هذه الاحداث هي أشياء تمنت حدوثها أو تمنت أن تعيشها أكاد كل نهار أن أسال والدي عن حقيقة ما سطر في هذه الصفحات . . لكن أتراجع وأفضل أن أصبر لمرة واحدة في حياتي أحقق ما أرادته مني أمي كما تمنت . . لعل هذه طريقة أبرها بها بعد قصر الطرق إليها . .

. . آن الأوان أن أتصالح مع أمي . . مع الجبل الصامد الذي لا زلت لا أعلم ما خاضته ليلقبها الجميع بالجبل لتكون رمزًا للصمود عند كل من عرفها . كلمة خالتي تلك لن ولم تفارقني . . ووجدت لها أغنية ترافقني طوال رحلة تكوين جبل الصمود الخاص بي .

قد يكون المرء غبيًّا في طبعه، لكن الغباء غباء القلب.

طه حسين

ما أن اقتربنا من منزل ليلى حتى قالت بحماس:

- سأذهب لإنجاز بعض الامور كما اخبرتك يا عزيزتي.. هاك مفتاح المنزل إن أردت الصعود..
- أين ستذهبين.. كان بإمكاننا مواصلة التنقل في أرجاء البلد ما دام باستطاعتك أنت ونادية.. أخذتكم للمنزل ظنًّا بأني أرهقكم..
- كلا أشكرك كثيراً لقد أمضيت وقتًا ممتعًا جدًّا، وأنا حقًّا سعيدة بمعرفتك عليّ فقط إنجاز الامور من أجل العمل قبل انقضاء الليلة، وأخبرت نادية بذلك سابقًا. لنا لقاء آخر إن شاء الله أعدك لا زال لدينا الكثير لنقوله...
- طابت ليلتك يا ليلى..

قالت وهي تناولني مفتاح المنزل:

- إياكَ أن تطيب ليلتك وتغفين وأظل في الشارع لا أجد من يفتح لي بابَ منزلي. وداعًا..

غادرت السيارة وساد الصمت لدقائق..

الساعة الثانية عشرة ليلاً.. الشارع يسوده الصمت وعدد المارة أقل من عواميد الإنارة.

قطع صمتنا صوت شاكر:

ممتلئ أنا بك.. تعلمين جيداً كيف تسرين في دمي،

اقتربت أقبل أنامله التي تحيي قلبي في كل لمسة منها،

قاطعني هو :

أحتاج إلى دخول الحمام ،

- ولِمَ لمَ تذهب إلى الحمام قبل أن نغادر؟

- لِمَ أحتجه وقتها . . غريب أمرك . .

- حسنًا . . انقضت الليلة على أي حال . طابت ليلتك . .

هممت بتوديعه فقاطعني . . دخول الحمام حين تعود لمنزلك والحمام حين تعود لمنزلك . . باب منزلي؟ . في تذوق طبق الحساء الخاص به . . واقتربت من وجهه كثيرًا وهي ،

- عم تتحدثين أتعلمين كم يبعد بيت صديقتك عن منزلي . . لن أستطيع أبدًا الانتظار كل هذا الوقت سأصاب بحصوة في الكُلى لأجل هذا .

- ما بيدي حيلة . . هذا مفتاح منزلها خذه اذهب إلى الحمام وعد . .

- كيف لي أن أصعد بيتها وأنا لا أعرفها أتمزحين؟

- إذن ماذا تريد . . حيرتني ،

- عليك الصعود معي بالتأكيد . .

- لا أظنها فكرة سديدة أبدًا . .

قفي عند الباب على الاقل . . لا أستطيع دخول منزل لا أعرف أهله وهم غير موجودين

يا إلهي ما أكثر تزمتك . . سأهاتفها لأستأذن دخولك إن كان هذا ما يرضيك . .

- أجننتي؟

- ستهاتفين صديقتك لتخبريها بأني أريد دخول حمام بيتها . . كفاكي

تزمتًا أنت واصعدي معي قفي عند الباب هـي دقيقـة وسـنكون هنـا مرة أخرى . .

- تجاهلت قوله وهاتفـت ليلـى . .في محـل صـديقها ذاك الـذي أرادت مقابلته . وأخبرتها بمـا يريـد . . فوافقـت وأكـدت علـى أن أنتظـره خارج المنزل وألا نطيل البقاء هناك خوفًا من نزول أحد فيراني أقف أمام باب المنزل . . لا نحتـاج إلى شـبهات . . أنهيـت حـديثي معهـا وأخبرته بإمكانية صعودنا . .

- دمااااااااااله بس ميطولش ند البـاب هـي دقيقـة وسـنكون هنـا مـرة أخرى .

صعدنا سويًّا . . فتحت باب الشقة وأرشدته للحمام . . وظللت واقفة عند باب الشقة في انتظاره . .

جاءني صوته من الداخل مناديًا يبحث عن شيء ما لم أفهمه . . ظننت أنه ربما يحتاج إلى منشفة فأخذت واحدة وتوجهت ناحية الحمام وجدته يقف أمام مرآة الحمام والباب مفتوح ،

جذبني من يدي أحاط خصري وأسند ظهري على الجدار . .

اقترب مـني كـثيراً . . اتحـدنا كجسـد واحـد . . كفيـه تحيطـان رأسـي ويتنفس أنفاسي . . جف ريقي ، وسرت رعشة في جسدي ، جذبت رأسـه عليّ ، وقبلت شفاهه حتى ارتويت . .

أبعدت رأسه عني ونظرت طويلاً في عينيه أسر القول بشفاهه لشـفاهي بصوت بالكاد ميزته :

أحبك قلبي . .

***

وقت العمل هو الآن، فالوقت لم يفت أبدًا لأن تفعل شيئًا

أنطوان دو سانت

تكملة لما عزمت أن أكون بدأت بمتابعة سير العمل في مكتب والدتي الهندسي . . لا أفقه كثيراً في الهندسة بعد، لكن ما المانع في المحاولة . .

قابلت كل عاملي المكان . . مكتب صغير مكون من دورين في احدى العمارات القريبة منّا . . لم أشعر بغياب أمي عنهم . . كلهم يعملون باجتهاد وانتظام كأنها لا تزال جالسة في مكتبها تشرب قهوتها، وتنتظر تسليم الاعمال الموكلة لكل منهم . .

اتجهت إلى مكتبها، غاب عني أنه بغيابها سيكون هناك غيرها من يتربع ذلك العرش . .

فتحت الباب دون طرق لأجد شابًّا في مقتبل العمر يدخن سيجاراً ويقرأ جريدة الأهرام وهو يثرثر في الهاتف . .

تسمرت عند الباب مشدوهة من جرأته، كيف له أن يقتحم مكتب والدتي . .

اعتدل في جلسته واعتذر ممن كان يحدثه، وقام في كل أناقة متوجهًا نحوي:

- ما أشبهك بها . .
- من هذه؟
- مدام نادية رحمها الله .
- من أنت؟
- ألا تعرفينني؟

- لم أتشرف بعد . .
- تعرفينني جيداً أثق تمام الثقة أن ذاكرتك تحتاج لإنعاش بسيط فقط . . على كلٍّ أنا مهندس هشام . . كنت متدرباً مع والدتك لفترة طويلة ثم عينتني نائباً لها في الفترة الاخيرة . . وبعد مفارقتها لنا أصبحت أدير هذا المكان الصغير بناء على رغبة من والدك . . أتحبين أن أساعدك بشيء؟
- لم أسمع بك سابقًا . . سررت بمعرفتك . . حقيقة كنت أود لو أحضر هنا لبعض الوقت أحتاج لفترة خبرة وتدريب على تقديمها للجامعه، كما أظن بأن هذا سيفيدني لإنهاء مشروع تخرجي بتمكن أكثر . .
- عظيم هي شركتك أولاً وآخراً . . ما تخصص دراستك . . ؟
- هندسة ديكور .
- جميل . . لكن عليّ تحذيرك بأن ساعات العمل هنا كثيرة وغير محدودة . . وإن أردت حقًّا صقل مواهبك فعلي أن أحذرك بأني لن أتساهل معك أبداً . . سأعلمك كل ما علمتني إياه والدتك . . لكن كوني متيقظة . . وأظن أنك لا تحتاجين لهذا التنويه . . ابن البط عوام . . لابد أنك ورثتي منها شيئًا غير جمالها . .

دق هاتفي (جنتي)

أستاذنت على عجل وغادرت المكتب على استحياء من تأملاته لي . .

- مرحبًا .
- اشتقتك . . كيف أصبحتِ جميلتي؟
- حِزر أين أنا؟

- ليس عليّ أن أحـزر . . فجمـيلتي في فراشـها الـوثير تسـتمتع بظـل الاشجار المنعكس على بساط غرفتها . .
- ههه ولى هذا العهد . . أنا في شركة والدتي ،
- ماذا تفعلين؟
- سأبدأ فترة تدريبية معهم أحتاج لساعات خبرة للجامعة . .
- تعلمين جيدًا أني أستطيع إحضار شهادة بسنوات خبرة لـك دون أن تحرك إصبعًا . .
- أعلم ذلك . . لكني أردت أن أعمل حقًّا بجـد . . وأخلـف والـدتي فيما صنعت . .
- ومن سيكون المسؤول عنك؟ من المسؤول هناك أصلاً؟
- شاب يدعى هشام . . أخبرني أن والدي هو مـن ولاه إدارة الشـركة بعد وفاة والدتي . .
- أتعرفينه سابقًا؟
- كلاّ . . هذه أول مرة أراه رغم أنه يبدو مألوف الملامح . .
- حسـنًا . . اسـتمتعي بمغامرتـك فكلـها شـهور معـدودة وتكـونين ملكتي . . وملكتي لن تعمل . . سأحادثك في أقرب وقت . . سعيد لسعادتك يا جميلتي . .

***

عدلت هندامي على عجل كان باب الشـقة لا زال مفتوحًـا . . رافقتـه إلى السيارة لآخذ شنطتي وأغـراض كنـا قـد اشـتريناها . . دون قصـد وأنـا أسترد المفتاح قمت بفتح غطاء السيارة الخلفـي . . توجهـت لإغلاقـه علـى حين كان شاكر يتحدث في الهاتف بعيدًا عني . .

وجدت كرسي طفل وألعاب وأسورة ذهبية تشابكت مع صوف غطـاء ملقى على الكرسي ،

لم أحرك ساكنًا . . قدم شاكر، وهو يقول:

بم تعبثين؟ سأحمل أنا كل أغراضك . . .

تناقلت نظراته بين ما تسمرت عليه عيناي . . وبين جسدي الذي تخشب من صدمة أن يكون ما أظنه صحيحًا . . .

- أقسم بأني كنت سأخبرك ما أن أغادر . .
- تخبرني بماذا؟
- أني متزوج . . ولكننا على كون ما أظنه صحيحًا . . أصبعًا وشك الانفصال، الحياة بيننا باتت مستحيلة، لم أرد أن أخفي هذا عنك يومًا، ولكني ما ظننت أبدًا أنك ستمتلكين كل هذا الكم من قلبي لك وحدك، وكلما هممت أن أخبرك خفت أن أحزنك فأغادرك وآخر ما رأيته هو حزنك . .

تركت أشيائي وغادرته لم أعلم كيف يجب أن يكون رد فعلي في مثل هذا الموقف، ماذا يصح أن يقال وما لا يصح . . وقد كان هو علمني أنه إذا لم أعرف ما يجب أن أقول فعلي أن ألزم الصمت لا داعي لقول حديث ربما اندم عليه لاحقًا . .

صعدت وأوصدت الباب خلفي خوفًا من أن يتبعني رغم يقيني بأنه لن يفعل . .

ضاقت عليّ الارض بما رحبت، واسودت الدنيا في عيني، وأسود وجهي . . سود الله وجهي على فعلتي . . متزوج!! ألم يكفني انحلال أخلاقي وتجاوزي كل حدود الدين والأدب معاه . . هذا جزائي . . كنت أستحق هذه النهاية، أنا الآن مدمرة علاقات، فالرجل الذي أمضي معه كل أوقاته هو على حساب بيته وزوجته وطفل لا ذنب له في هذا العالم سوى أني قررت أن أتحرر . .

قررت أن أتحرر من قيود منعتني من أن أكون شخصية ناجحة! . . لا بل أن أتحرر من أخلاقي . .

دارت بي الأرض، وكاد رأسي ينفجر خوفًا وترددًا وهيبة من كل ما وضعت نفسي به تستملكين كل هذا أخفي هذا قطعت عني عذابي ليلى . . دلفت إلى المنزل بعطر يسبقها كعادتها وضحكة يخترق دويها جدران جيرانهم، تحمل أغراضي التي تركتها في يدها وتقول بصخب: لِمَ تركت أغراضك أمام المنزل؟! . .

تسمرت مكانها حين رأت وجهي مسودًا يملؤه العار والخزي . .

ماذا حدث هنا . .

- شاكريا ليلى
- مابه؟! ماذا فعل بك أقسم لأقتلنه أن آذاك . .
- شددت على يدها وقلبي يعتصر وانهمرت دموعًا ما أحرها على وجهي تحرقه كأنها كفارة له على ذنبه . .
- شاكرمتزوج يا ليلى . . هو زوج وأب . . هو ملك لغيري، هو رجل على حين أراه مارًّا أمامي في الطريق أن أحني رأسي وأبعد نظري عنه فهو لا يحق لي حلمًا ولا حقيقة . . وأنا ما كنت أعلم، وأخذته منهم دون علمي وعلمهم .
- قالت بلا مبالاة وهي ترفع شعرها عن وجهها: ولِمَ كل هذه الدراما؟ ظننتك تعرفين سابقًا . .
- وما أدراك أنت؟
- ألم تري علامة خاتم الزواج في يده اليسرى! يبدو أنه قد خلعه من وقت قريب فإصبعه لازال عليه أثر الخاتم ظننتك تعرفين سابقًا . فهو لا يحق لي حلمًا ولا حقيقة حتى إن جلده متغير اللون . .

- زادت دهشتي وثغر فاهي
- هههه يالك من طفلة . . وثم ماذا يضرك إن كان متزوجًا أم لا؟
- ما هذا الهراء . . ؟ كيف لا يضرني؟ لقد قبلته وحادثته ليلاً لشهور أمضى ليله كله معي، كيف لا يضرني كل هذا؟
- ألست تحبينه؟
- ماذا . . لا أعلم . .
- هل أخبرك أنه يحبك؟
- نعم . . الليلة فعل . .
- إذن دعي الامور على حالها . . لقد شرع له الدين أربع
- وماذنب زوجته . ؟! كيف لك أن تقولي هذا؟ كيف لي أن أشارك إحداهن في زوجها . . كل أفعالنا محرمة يا ليلى . . لا تصغري من حجم الذنب فنهوى به .
- هههه يا للملائكية التي تدعينها . . لست أفهم ما يزعجك . . هو يحبك وهو متزوج، وهو يحق له أن يتزوج أربع في الدين الذي تدعين أن التزامك فيه يهمك لهذه الدرجة . . ثم ما ذنبها . . فليكن ذنبها أنها أهملته حتى وجد غيرها . . ما أدراك كيف هي التي أهملته حتى وجد غيرها . بع في الدين الذي تدعين أن التزامك فيه يهمك لهذه الدرجة يدها وقلبي يعتصر وانهمرت دموعًا ما أحرها على وجهي تحرقه كأنها كفارة له على ذنبه . . جته . . أسرك حديثًا تأكدت أن زوجته شعثاء غبراء حين وصف كل تفاصيلك بدقة واهتمام وجمال كأنه لم ير امرأة قط . . في حين أن شعرك كان اشعثَ متطايراً من خلف حجابك وفمك يلوك الطعام كطفل لم تظهر اسنانه بعد .

- أسررت اهانتها في نفسي . . واستطردت . . في هون . . هو أخبرني بأنه على وشك الانفصال عنها . .
- يا سلاااام . . شيء مثالي . . خذي فرصتك يا جميلة واستوطني قلبه وداوي كسره، وسيكون هو لك ملكك زوجك وكل شيء تتمنيه . . ياليت الأمر لي . . لكان الآن راكعًا عندي . .
- قلبي يؤلمني يا ليلى . .
- هذا ليس قلبك، هذا غباؤك . . دعي عنك شعارات الضمير والأخلاق التي تصدعين رأسي بها، وتلذذي بمغامرة سيقت إليك . .

تزاحم الَكلام في صدري فلم أجد بدًّا سوى الصمت . .

ليلى تكاد تكون محقة أنا شعثاء غبراء غبية وجدت رجلاً ليس مختلاً ولا قاتلاً ويحبني وسأتركه بكامل قواي العقلية . . ! !

وسأعود لوحدتي إن أنا تركته . . هو كان أفضل شيء مر على في حياتي، لا أستطيع أن أعود حيث كنت سابقًا . . لن أعود . . هي أعلم مني بالرجال وكيفية تطويعهم . . نحن لسنا خلف الشاشة الآن . . على حقًّا أن لا أتجاهل قولها أبدًا . .

ارتميت مثقلة الروح والجسد . تفقدت بريدي قبل أن أنام . . فوجدته أرسل بريدًا قبل بضع دقائق . .

***

قبل بضعة أشهر . . كنت الاشقبل وفا . . كثيرًا مما كتبت ومما خطت . . أقوى من أن أنخرط في اللامبالة . . صدقائي هر بين أصدقائي . . كنت أول من يدعوهم ويجمعهم . . كنت محور المجموعة وروحها . . كان صخبي يسعدهم ويخرج أجن ما فيهم . . وكم كنت سعيدة بأني قادرة على

إسعاد من حولي وأن الجميع يجتمع لأجلي . . لكن مؤخراً وبعد فقدي والدتي . . ماعاد صخبي كما كان، ولا عادت روحي تتوهج من أجل الآخرين . . أصبحت منطفئة منغلقة على ما تبقى من روحي . .

وبعد أيام العزاء . . حاولو كثيراً إبهاجي . . غير أن محاولاتهم كانت باردة خالية من العاطفة . . كانو يبحثون عني بحثًا عن صخبي ورغبة في قضاء ليلة كما سلف عهدنا . .

لم يبحثوا عني لأني صديقتهم التي تحتاج لعناية وصبر، وربما بعض الاحتواء كي تعود لسابق عهدها . . لم يكونوا صادقين في صداقتهم . .

آلمني هذا الأمر كثيراً . . وأوجعتني وحدتي . . بعد غياب أمي وأبي وانشغال شهاب عني بعمله والتحضيرات التي لا تنتهي للمنزل والزفاف . .

لو أن الحياة تكون أبسط لو أنا نفعل ما نشعر فقط لكان أهون ولكان شهاب الآن بجانبي في منزل يؤوينا لا آبه حتى وإن كان منزلي أو منزله ونعيش مع أبي هو غائب كل الوقت على كل . . أليس المهم أن نكون سويًّا؟

لا أرى لكل هذه التكاليف والرسميات إلا أنها تباعد الاشخاص عن بعضهم . .

لكن كلما خدلت عزيمتي رفعت نظري لحائط مكتبي وتذكرت كلام خالتي الذي نقشته على الحائط كيلا أنساه يومًا . .

وإن بت وحيدة وإن بت حزينة وإن بت ضعيفة سأبني نفسي من العدم . . سأصلح الحطام . . وألحم الشروخ وأجملها، وكان شيئًا لم يكن . . سأصير ما أريد . . فأنا أستطيع . .

دخلت إلى مكتب والدتي بعد انقطاع يومين منذ آخر زيارة له . . حملت

كتبي وأوراقي وعزيمتي . . وتناولت يد هشام الـذي كـان منهمكًـا في رسـم تصميم هندسي على حاسوبه . .

- صباح الخير . .
- ظننتك لن تعودي أبدًا . .
- ها أنذا . . أليس هذا هو المهم؟
- لا زلتي مدللـة . . ههـه حسـنًا . . سـأنهي مـا أفعـل ثـم سـأعرفك بالمشاريع الـتي نحـن بصـدد تسـليمها الآن وأريـك بعـض النمـاذج لأعمالنا . . لتكوني على درايـة بكيفيـة سـير العمـَل . . وإن كنـت منتبهة ووجدت أن باستطاعتك فعل أي شيء . . سأوكل لك بعض صغير الأعمال لتنفذيها على برنامج الأوتوكاد .
- لم قلت . . لا زلت؟
- هههه بعد كل هذا الحديث وهذا فقط ما أهمك . . لأنـك تعـرفينني جيدًا وأعرفك تمام المعرفة وآخر ما قلته لك هو أنـك فتـاة مدللـة لا تصلحين لشيء . .
- ماذا . . . هشام . . . أنت . .
- نعم بعينه . . أنا هشام ابن دكتورة زينب . . وآخر مرة حادثتك فيهـا مضى عليها قرابة عشر السنوات . . خمس منها أمضيتها مع والدتك هنا .
- يا إلهي كم كرهتك يومها . . كنت شابًّا وقحًا . . ههه أعتذر فأنـت أصبحت رجلاً الآن . .
- وكنت فتاة مدللة . . وأظنك لا زلت كذلك . . على كل دع الماضي للماضي . . وركزي فيم أتيت لتحقيقـه . . لوالـدتك فضـل عظـيم على بعد الله عز وجل، وكم أنا سعيد أن بإمكاني الآن رده . .

- هههه أشعر بأنك تعرف أمي أكثر مني . . لم أعلم يومًا بتميز أمي في عملها . . يبدو أني كنت لا أعرف الكثير عن كل شيء .

أمضينا اليوم في المكتب، أطلعني على أهم الأعمال، وحدثني عن أكثر المواقف حرجًا مع العملاء، وأختبر قدراتي في رسم بعض التصميمات . . . حتى آمن بأني أستطيع إنجاز جزء من تصميم أحد المطابخ في شقة عميلة جديدة . .

عرفت هشام في صغري وحتى بداية مراهقتي . . كان صديقي الصدوق، والدته كانت طبيبة أسنان، والدتي وهو كان يرافقها لعملها كثيرًا وأنا أرافق والدتي لعلاجها . . جمعتنا صداقة تحولت إلى مشاعر غير مقيدة ومنقادة لمجرد اكتشافنا بأننا كبرنا والحب جرى مجرى الدم منا . . لكن اختلافاتنا زادت بعد دخوله المرحلة الثانوية . . كنت لا أزال في المرحلة الاعدادية . . وهو بدأ يصير رجلاً ويريد مني أن أطيعه في كل ما يقول، وأن انتبه لحديثي مع كل من أقابل . . وأعد خطواتي عدا . . وأطيل ثيابي عنفته كثيرًا عن محاولاته لكبتي، وأن أفعاله هذه هي أفعال حقد وليست أفعال حب أبدًا . .

فدعاني بالمدللة وأخبرني بأني لن أصير يومًا أي شيء سوى فتاة جميلة تافهة بلا هدف كمزهرية جميلة خاوية لا تحوي إلا بقايا زهور ذبلت قبل عمر من الزمن . .

كرهته وكرهت وقاحته . . وأخفيته من حياتي وذاكرتي . . سبحان الذي أعادني تحت رحمته مرة أخرى . .

لا أعلم كيف قضى كل هذا الوقت مع أمي دون أن تخبرني بأنه يعمل معها أبدًا . . علها ظنت أني نسيته . . وأنا فعلاً تناسيته . . لكنه على حق فقد أصبحت ما تنبأ هو لي . . فتاة مدللة صاخبة لاتفقه في الحياة شيئا . . لكن ذلك على وشك أن يتغير . .

***

لا تذهب إلى حيث يأخذك الطريق . . بل اذهب إلى حيث لا يوجد طريق، وأترك أثراً . .

رالف والدو

(أعلم أنك تلومين نفسك الآن، وتحملين نفسك ذنبًا لم تفعليه ولم ترتكبيه . . أنا من خبأ الأمر عنك، وأنا من أتحمل مسؤولية ما حدث بيننا . . زواجي وحياتي لا علاقة لهم بك، وخلافنا لم يكن بسببك أو لأجل أي شيء كان بيننا . . نحن أخطأنا الاختيار، وعلينا أن ننضج كفاية، ونتراجع عنه قبل أن ندمر بعضنا . . أنت مهربي الوحيد، وركني الوحيد الذي أتكئ عليه أحتاجك أضعاف ما تحتاجينني رجوتك سابقًا أن تؤنسي وحدتي بحديثك فقط، واليوم أرجوك أن لا تتركيني وأن لا تلومي نفسك وتعذبيها لأجلي . . لو كنت كاذبًا أو أدعي وجود المشاكل بيننا كيف لي أن أتمكن من قضاء كل هذا الوقت برفقتك، وأنا لي زوجة محبة معطاءة تنتظرني كي تحنو علي؟! سننفصل بمجرد وصولنا وسأكون قلبًا وقالبًا لك وحدك دون أي أسرار أو خداع أو خفايا . . أعدك من خبأ الأمر عنك وأنا من أتحمل مسؤولية ما حدث بيننا . م ترتكبيه . كسره وسيكون هو لك ملكك زوجك وكل شيء تتمنيه .

لقد أيقظت بداخلي أشياء لم أعلم يومًا بوجودها يا نادية . . كنت أظن أني سعيد وأني هانئ وأني قد خرقت سقف أحلامي ولامست السماء لم أحققه فقط حتى عرفتك . . عرفت أن في الدنيا حورًا لم ترهم عيني قط ولم يتنعم قلبي بسكناهم داخله وأني كنت شقيًّا أفني عمري في أشياء لا أذكر وجودها وأنا بحضرتك . . حتى اختيار الاستسلام لبلاء زواجي كنت

على وشك اتخاذه وها هو عمر يمضي وينقضي . . لكن كيف لي اليوم أن أكمل حياتي بهذا النهج . . لو عرفتك قبل أربع سنوات لو كان بيدي أن أعود بالزمن . . لكن لا بأس سأصنع الزمن بنفسي . . وستكونين ملكي وسأكون أسعد إنسان على وجه البسيطة . .)

- أغلقت البريد دون أن أجيبه . .
- استسلمت لهلاك روحي ، وماكادت تغادر الدنيا إلى دنيا النيام . . عادت ليلى لنفس الحديث . .
- نادية لا تكوني غبية . . عشت عمري كاملاً أبحث عمن ينظر لي كما يفعل شاكرلك . . تحدي الصعاب صدقيني لن تخسري شيئا . . عليك فقط أن تتحلي بالصبر حتى ينهي علاقته تلك . . أرجوك لا تحزني أكره رؤيتك متألمة . .

. . لم أجبها هي الاخرى . . نفذ مخزون الحديث عندي . .

***

لم أتعب كثيرًا في التقاط أهم نقاط العمل . . كنت لأول مرة في حياتي جادة بأمر ما متمكنة وعندي كل الإصرار والإرادة لأحقق هدفًا . . لأول مرة يكون لي هدف . .

لم يتوان هشام عن مساعدتي أو إعانتي ، وكم من أغلاط قام بتصحيحها لي دون امتعاض . . كان يؤمن بي وبقدراتي . . رغم قسوة بدايته معي . .

الكل كان يعاملني كأني أمتلك هذه الشركة كأني منبع نجاحها . .

كم كنت فخورة بنفسي وسط انشغال أبي وشهاب عني كان شهاب يتابعني عن بعد . . لم يسأل أبدًا عن التفاصيل .

كان كل ما يهمه في هذه الفترة هو لون الحوائط وأي ماركة ثلاجة نريد، وموعد الكهربائي، ومهندس الديكور. . . حتى إنه رفض أن أصمم ديكور منزلنا بنفسي وتعاقد مع أكبر شركة هندسة في القاهرة من ذوي الاسعار الخيالية. . متناسيًا تمامًا أن هذا مجالي وبيتي!!

انعكس نجاحي في حياتي فزادت سعادتي وتفوقت في دراستي بعد فترة طويلة من الخمول. . كان إنجازي في شركة والدتي حافزًا يدفعني لأؤمن بكل ما أريد وبكل ما يمكنني تحقيقه. .

سلمنا اليوم أكبر عمل وكل إلينا. . يعمل المكتب عليه منذ قرابة السنة تجهيز ديكورات لشركة استشارات لرجل من أكبر رجال الأعمال في البلدة. .

كدنا كثيرًا من أجلها وسهرنا. . كان كيوم عيد في المكتب. .

أردت أن أحتفل مع شهاب بإنجازنا لكنه اعتذر بانشغاله مع والدته وأقاربه لتجهيز حفلة مولد ابنة ابن خالته!

مع انتهاء النهار. . أتاني هشام بوجه مرتاح وباسم:

- مالذي يبقيك غادر الجميع كأنه جرس انصراف مدرسة قد دق!؟
- لا مخططات عندي أعجل من أجلها الليلة.
- أين والدك؟
- أبي. . هه في قارة أخرى له قرابة الشهرين. . رغم أنه وعد أنه لن يطيل هذه السفرة. . لكني كنت أعلم أن هذا ما سيحدث. .
- نعم. . أفهمك. . التمسي له العذر. . هو يعلم بأنك قادرة على تولي مسؤولية نفسك وإلا لما غادر من الاساس.
- ربما. .

- ما بالك يتلبسك كل هذا الحزن . . لقد سلمتي أول مشروع حقيقي لك الليلة . . قومي واحتفلي ودعي التشاؤم ليوم آخر . .
- أعلم أنه لم يمضِ على جودي الكثير بينكم لكني حقًّا استمتعت بالعمل هنا . . وسعدت مثل سعادتكم بتسليم العمل كأني أنا من انكب عليه سنة كاملة لإنجازه . . مبارك عليكم . . أنا حقًّا سعيدة رغم صغر دوري .
- حسنًا يا مدللة يبدو أنك تبحثين عن بعض الدلال الليلة . . رغم وجودك من فترة قصيرة ورغم أني كنت أظن أنك ستكونين أكبر كارثة ستلم بنا في العمل لدلالك وحبك للراحة كما كنت أعهد منك . . إلا أني رأيت منك جانبًا جادًا وناجحًا جعلني أؤمن بأنك قادرة على إنجاز أي شيء سيوكل لك . . وتملكين من القول جماله ولينه وسلاسته ما يقنع إنسانًا بأن يقتل نفسه وهو سعيد وراض . . ملأتي هذه المنشأة الصغيرة حماسًا وتفاؤلاً بوجودك . . لا تنطفئ . . أنت شعلة متوهجة ، وأعلم أنك يومًا ستكونين وتحققين أضعاف ما تحلمين وأضعاف ما تظنين أنه باستطاعتك . . وأعدك أني لا أقول هذا مجاملة لوجهك الجميل الذي كلما حزن احمر فزاده براءة وجمالاً .
- هذا من أجلي أنا؟
- وبإمكاني تدليلك أكثر . . ما رأيك بأن يحتفل المدير مع متدربته الصغيرة في عشاء بسيط لأني حقًّا أتضور جوعًا وأكره تناول الطعام وحدي . .
- حسنًا . . أنا أيضًا جائعة . .

هاتفت شهاب كثيراً لأخبره بأني سأتأخر عن العودة للمنزل لكن دون جدوى . . لم يتسنَّ لي حتى أن أخبره بما حققنا الليلة . .

لم أفكر كثيراً . . على أن أكافئ نفسي . . فهكذا تطور بعد خمول حقًّا يحتاج مكافأة . .

***

الأنانية تجر الإنسان دائمًا إلى الفساد، فتمام الفساد الذي يحصل في العالم سببه الأنانية

روح الله الموسوي

رحل دون أي حديث يذكر بيننا.. هاتفني في المطار ودعته بعبارات رسمية واعتذر أنه لا يستطيع أن يطيل الحديث.. لعلها كانت بجانبه.. كنت أحرق روحي وأنا حية غيرة وحنقًا من وجوده مع أخرى وأنا أفقده..

بعد أسبوعين من سفره صنع بريدًا إلكترونيًا خاصًّا بي لا يعرفه سواي..

أخبرني بأوقات معينة للحديث لا يكون موجودًا فيها في المنزل لحين أن يتم الانفصال.. أظن أنه بحدوث هذا كان ذلك يعني موافقتي على وضعه الغريب..

في كل خميس كانت زوجته تجتمع مع جاراتها، فكان هذا موعد محادثة الفيديو الخاصة بنا وكثيرًا ما كان يتخللها محادثات مع ابنه الذي لم يتجاوز الاربع سنوات.. ولا يمكن تصديقه في اخبار ما رأى فكان مخبأ لسرنا.. كنت أحب ابنه كثيرًا.. وكنت أحضر له رسمات وقصص أقصها عليه.. كانت كزيارة أسبوعية أتجهز لها طوال الاسبوع.. كان بريئًا كروحي قبل أن تلوث..

أحببته وأحببت ابنه ومنزله وصوته وبعده وقربه كل ما فيه.. شجعتني ليلى على قربي منه كثيرًا وشجعني هو على أن تكون لي شخصية مستقلة بعيدًا عن ليلى!..

أشربني جرعات ثقة بالنفس.. أحبني حتى أحببت نفسي.. أراني

نفسي الحقيقية الناجحة الواثقة، علمني كيف أنقل أفكاري إلى مسمع الناس كنت أولد من جديد معه..

رشح لي الكثير من الكتب، علمني أهمية الاطلاع والقراءة.. كان جزءاً أكبر من لقائنا الاسبوعي يكون في مناقشة الفصل الذي كان واجباً عليّ قراءته.. ومناقشة الأفكار، كنت في البداية أنسخ أفكاره وأحفظها.. رويداً رويداً. علمني أن أعترض.. كيف يكون لي رأيي الخاص، وأن أقوله.. فزادت حدة نقاشاتنا.. فهو يطرح وجهة نظره.. وأطرح وجهة نظري ثم نسندها لأعراف ديننا ومجتمعنا ونبحث عن مدى صحة راي كل منا..

تحسنت علاقاتي بالناس من حولي، وفي دراستي، وفي الجامعه أصبحت مرئية.. الكل يراني ويحدثني..

لكن غيابه سيدوم عامًا كاملاً.. حتى يستطيع أن يعود لمصر مرة أخرى..

عام كامل قطعت له وعود أن أكون أفضل وأجمل وألطف.. كل ما فيّ أفضل حتى يراني.. تغيير شامل في ١٢ شهراً.. أعيش يومي بكل ما فيه وفي آخر اليوم أكتب ملخصاً لأهم ما حدث وأكثر ما ترددت فيه، وهو ينصحني أو يشير على بما يجب فعله.. قبل أن يخلد لنومه..

بعد مضي أربعة أشهر على هذا الحال.. ورغم سعادتي وبداية تفتحي وحبي لذاتي إلا أنه كلَّ صبري.. ومللت وجود زوجته والمواعيد التي على الاتزام بها.. كنت أطمع بأكثر وأرغب فيه أكثر كل يوم عن سابقه، كنت لا أقرب ذكرها ولا أحسب وجودها أبداً، ولم تكن هي محوراً لحديث بيننا أبداً.. حتى استجمعت قواي ذات ليلة وقررت أنه آن الأوان لنتحدث عنها وعن سبب تأخيره لتنفيذ وعده.. فما عاد في قلبي أي صبر..

- حدثني عن أسباب اختلافك مع عبير . .
- قررت أن تفسدي على الليلة؟
- وعدتني سابقًا أن تخبرني ماذا يدور في منزلك . . وتركتك طوال هذا الوقت لتختار اللحظة المناسبة لك . . لكن أصدقك قولاً . . فضولي يأكلني . . ثم ما أدراك . . لعلي أجد لك مخرجًا . . أو أهون عليك وجعًا . . !
- حسنًا سأحدثك رغم كرهي للحديث في هذا الموضوع . . هي لا تهتم بجمالها أو نظافتها على الدوام . . فهي دائمًا شعثاء الشعر ، تتبادل ثياب المنزل بتكرار تكرهه عيناي ، حاولت كثيرًا غض بصري عن مظهرها لكني حقًّا صرت أكره النظر إليها . .
- أتمزح؟
- مابك؟
- أتخبرني بأنكم ستنفصلون بسبب أنها لا تهتم بمظهرها!
- نعم أوتظنينه أمرًا هينًا؟ . . أن تعيشي في بلد أجنبي يحيط بك كل ألوان وأنواع وأشكال النساء يسترن من أجسادهن ما يقبح كشفه ، ويجمل ستره فقط ، وعليك كبح رغباتك كلها طوال النهار . . لتعود ليلاً فتجد حلالك برائحة الثوم تملأ ثيابها وشعرها يكاد يستغيث هربًا بحثًا عن فرشاة . . وهي لا تبالي . . تتكئ أمام التلفاز من مسلسل لآخر . . لا تبالي بنفسها ولا بيتها ولا بذاك الذي يعود مشتاقًا لأنثاه . . ألم أتزوجها لتعفني عن نساء الكون أجمع؟ ! ثم إن الوضع لا يقتصر بالتأكيد على نظافتها الشخصية بقدر ما انعكس على إهمال ابننا والبيت . .

- حسنٌ، وكيف وصل الوضع للانفصال..
- هي لا ينقصها جمال وجه أو جسد يا نادية.. وإلا ما اخترتها منذ البداية، ولم تكن كذلك أيضًا في بداية حياتنا لا أعلم ما أصابها. ظننت أنها مرحلة أثناء الحمل وبداية صغر طفلنا، أنها لا تجد وقتًا لتهتم بنفسها.. لكن تلك الحالة طالت كثيرًا.. دون أي مبالاة منها.. رغم عدم رضاها عني وطلبها لي مرارًا بالتجديد في شكلي.. فتارة تجبرني على إطالة شعري، وتارة قصه، وتارة تريدني سمينًا وتارة رياضيًّا كعارضي الأزياء.. وأنا أنصاع لها وأفعل لها ما تريد.. كي أظل جذابًا لها وتظل هي ممتلئة بي.. ذا فعلت لأجل هذا انعكس على نظافة ابننا وعلى نظافة البيت.. رغباتك كلها طوال النهار.
- هل حاولت إخبارها بما تخبرني به الآن؟
- تظنينها مزحة؟ كيف لي أن أقول لفتاة أن تهتم بنظافتها؟ أليس المفترض أن هذا من سمات الأنوثة؟!!؟ إزاي يعني استحمي؟ إزاي يعني؟ لا.. رياضيًا كعارضي الأزياء.
- مازلت لم تجب سؤالي كيف وصل الوضع للاتفاق على الانفصال
- تشاجرنا ذات ليلة وأخبرتها بأني مللتها ومللت عدم تغييرها لأي شيء.. فبادلتني الصريخ، وكان جُل ما فهمت من صريخها أنها لا تعي شيئًا مما أقول، وأني ربما مللتها لأني وجدت غيرها، وظلت تلعن معيشتها معي، وتحسد صديقاتها الاتي لا يضاهينها جمالاً لكن أزواجهن يتقبلنهن كما هن وتذكرني بأنها أجمل فتاة كان يمكنها أن تقبل بي.. وأنا الآن لا أفقه نعمة ما أملك.. الأني وجدت غيرها وأنها إن فعلت هذا.. شيئًا مما أقول.

- أحضر لها ثوبًا جميلاً في ليلة وعطرًا وأتركه لها في خزانتها كمفاجأة ببطاقة تحتوي بعض العبارات الرقيقة مثلاً!
- أنت حقًّا لا تصدقين أني فعلت كل ما بوسعي! أحضرت لها ذات ليلة هدية من أجمل وأشهر المحلات النسائية هنا، علبة مليئة بكل ما تتمنى الفتاة امتلاكه.. وأرسلته بطرد على المنزل قبل موعد وصولي من العمل على أمل أن أعود لأجدها تحضر لي مفاجأة.. لكني عدت لأجدها كما هي مستلقية أمام التلفاز تتابع مسلسلاً جديدًا.. ودخلت الغرفة لأجد العلبة في دولابها!
- هل لي بأن أطلب منك طلبًا وتنفذه بحذافيره كما أثق فيما تطلبه مني؟
- تفضلي.
- هلا جلست بجوارها وأمسكت بيدها وبدأت حديثًا مسالمًا عن مدى شوقك لأول أيام زواجكما، عن كيف اشتقت لسماع ضحكاتها ورائحة عطرها.. دون لوم أو عتب ستتحدث فقط عن أيامكم الأولى لا تذكر شيئًا من الوضع الحالي أو عن تغيرها أو تغيرك.. حتى وإن فعلت هذا سابقًا افعله هذه المرة لأجلي.. وإن باءت بالفشل.. أعدك أني سأكون أول من يشجعك على إنهاء إجراءات الطلاق..
- أقسم أني لا أطيق نظرًا إليها..
- تخيل أني أنا الملامة.. كأنك تعاتبني أنا وتعنفني أنا.. كما تسترسل معي في توجيهك لي.. جربه لمرة واحدة معها..
- إن كنت مكانها.. لا أظن أنك يومًا ستريني ما أكره..

- سأودعك على هذا القدر الليلة . . وأعلمني بمستجداتك غدًا . .
- حسنًا . .

***

- أين كنت طيلة هذا الوقت . ؟
- هنا وهناك . .
- لمَ لمْ تحاولي يومًا مرافقة والدتك في عملها إن كنت تدرسين نفس المَجال؟ كيف لي أن أرافق والدتك كل هذه السَنوات ولا أراك أبدًا . .
- ألم تتحدث عني والدتي أبدًا؟
- لم تخلط والدتك يومًا حياتها الشخصية بعملها . . كانت تتحدث عنك في مقابلاتها مع والدتي فقط . .
- هي لم تأت على ذكرك أبدًا أيضًا . .
- على كلٍّ أظَن أنه ربما كان الخيار الأفضل ألا تجتمعي أنت ومدام نادية في مكان واحد . .
- كيف هذا؟ ! لقد كنا على وفاق والأمر ليس كما تظن لمجرد أنها لم تذكرني كثيرًا . .
- هههه أعلم ذلك . . لكني لا أظن أن هناك أرضًا تحتمل جمالكما معًا مجتمعًا . . ما كان بإمكان أحد أن ينجز أي عمل . . ستكون شركة لسلب ألباب البشر فقط . .
- أشكرك تقريبًا!
- والآن عليك أن تعترفي . . مالذي يفسد مزاجك هذه الأيام . .
- لا شيء يفسَده . .

- أظن أن هذا الخاتم الذي في بنصرك هو من يفعل . .
- احمرت وجنتاي اعتراضًا وغضبًا من تطفله . .
- كلا بل هو من يريحني . .
- حسنًا . . سأدعي الغباء إن كان هذا ما يرضيكِ . .
- ومن أين لك أن تحكم عليّ؟
- تناسيتي أني كنت أعرفك جيدًا من قبل . . ثم تناسيتي عدد السنين التي عملت بها مع والدتك . . ثم استهنتي بشيبتي المبكرة . . تحتاجين رجلاً يحتويك لا شابًا لا يعرف كيف يسكن فراغات قلبك . .
- لا أظن أنه يجدر بك الحديث معي هكذا . . وأرجو أن تحترم حدود علاقة العمل التي تربطنا . . وتلك العلاقة القديمة . . فقد اندثرت باندثار أحاسيس الوهم التي عايشتها خلالها . .
- أعتذر على ازعاجك . . أردت إخراجك من حالة الحزن التي تلبستك في يوم عليك أن تفخري فيه بنفسك . . على كلٍّ أخرج للصيد كل خميس إن أردت مرافقتي لتنعشي نفسك قليلاً . . هاتفيني أو إن احتجتي صديقًا تروين له سبب كآبتك . . فسأظل دائمًا سندًا لك . . وإن أردت أن يرافقك بنصرك معنا . . فبالتأكيد لن أمانع . .
- ومن قال لك بأني أريد مرافقتك في أي مكان أو أني أعتبرك صديقًا على أي وجه من الوجوه؟!
- أشكرك يا عنيدة يا مدللة . . على كلٍّ لا ترفضي العرض ودعيه في ركن مسوداتك . . ربما احتجتيه يومًا . .

رغم أنه مدرب عظيم وآمن بي كما لم يؤمن بي أحد . . وقادني لخبايا مواهب أملكها لم أعلم عنها يومًا شيئًا في نفسي . . إلا أنه رجل مغفل . . يظن كل الفتيات قلوبهن بين أصابعه يلهو بها كما يشاء . . يرى في يدي خاتمي ووعدي ووثاقي لرجل آخر . . ومع ذلك ما زال يتلو على سطوره وجمله المشهورة للقاء فتيات لا يوصفن إلا بالغباء ينسقن خلف كلام معسول وثقة زائدة أظنها تعكس شخصية مدمرة وفارغة من الداخل . . يصف شهاب بالطفل . . هه سيصدم حين يراه ويتراجع عن حماقاته . .

ظللت أحدث نفسي حتى غالبني النُعاس ـ لا بد أن يرافقني شهاب للمكتب قريبًا . .

***

قد تغفر لك المرأة القسوة والظلم . . لكنها لا تغفر لك عدم الاهتمام بها . .
جان جاك روسو

غاب مرسال شاكر أسبوعين كاملين . . لا أعلم عنه شيئًا، لا أعلم حتى إن كان حيًّا أو ميتًا . .

لم أتوقف عن إرسال أخر أخباري له ويومياتي واشتياقي ونبضات قلبي المتألمة لغيابه . .

(الغايب حجته معاه) أكيدة أنا أن له عذرًا قويًا أن ينعزل بعيدًا عني كل هذا الوقت دون أي أسباب أو مقدمات . .

كنت أغفو وعيناي متسمرتان على شاشة جهازي في انتظار أسمه أن يضاء . . وأدعو الله في نومي وصحوي وتقلبي . . أن يسلم أمره ويسعده ويرده لي سالمًا غانمًا سعيدًا هانئًا . .

حتى أضاء أسمه . .

وأرسل كأنه لم يغب يومًا واحدًا :

- نادية . أشتقتك .

لم أقوَ على عتابه أو خصامه أو حتى سؤاله عن أسبابه . . سعادتي بوجوده أكبر . . كما المدمن الذي كان يعاني أعراض أنسحاب جرعته . . فما أن تكون بين يديه لن يتأملها لثانية . . بل سيستمتع بها تجري في عروقه ترد روحه . . تعيد شبابه وسكره . .

- أشتقتك أكثر . . أنت بخير؟

- نعم أعتذر يا صغيرتي عن غيابي عنك . . أغلقوا الإنترنت عن جميع أجهزة الشركة خلال الأسبوعين الماضيين . . وتعلمين كيف الوضع

في المنزل . . كنت كالمسجون . . وهربت اليوم لجهاز مديري . . لم أطق انتظاراً أطول .

- لا بأس . . المهم أنك هنا الآن . .
- أنا جد سعيد أني وجدتك خفت كثيراً أن لا تكوني هنا . . ويضيع كل هذا التسلل . . أكملت سعادتي .
- وماذا بداها؟
- اليوم أول يوم في المدرسة لابني . . لكِ أن تتخيلي كم نحن فخورون به . .
- يا إلهي . . كم أود رؤية ذلك الشقي في صفوف وانضباط الدراسة . .
- إنها حضانة أكثر منها مدرسة يا عزيزتي . . لكن مجرد خروجه من المنزل قاتل . .
- أعطاك الله العمر الهني لتراه يخرج للجامعة . .
- أشكرك صغيرتي . . لا أعرف كيف سيكون شعوري اليوم ومن أجل حضانة أطفال كنا نبكي ونحن نودعه . .
- أنتم؟
- نعم أنا ووالدته . .
- أصبحتم نحن الآن؟!
- أوه . . أنا متأسف جداً . . ظننت أني أخبرتك . . عملت بنصيحتك يا أميرتي . . وجالستها ليلة وأخبرتها ما قلتي واصطحبت معي بعض الأزهار وذكرتها بسالف أيامنا . . فبكت كثيراً وأخبرتني بأنها تحن لتلك الأيام أيضًا ، وأنها تغيرت لأني صرت أهتم بعملي أكثر مما كنت أدللها قديمًا ، وأصبحت أتاخر في

العودة للمنزل كثيراً . . وكنت قد وعدتها بإحضار سيارة لها ، ونسيت الأمر تمامًا لكن يبدو أن النساء لا ينسين . . فضممتها رحمة لدموعها وشهيقها . . فارتمت داخلي كأول ليلة لنا سويًّا . . لم أعلم أن الأمر بهذه البساطة . . لم أستطع يومًا أن أكتشف حلاً لخلافنا ، لقد أنقذت ابني من أن يربى وحيداً يا فتاة . . لو تعلمين كم أحبك . .

- جميل جداً . . سعيدة لسعادتك . . عليّ الذهاب الآن سأحادثك لاحقًا . .
- كلا لا تذهبي . . أرجوكِ لقد فعلت المستحيل لأجل هذه الدقائق . .

نادية ،

يا نادية ،

أظلم اسمي وأغلقت الجهاز . .

لا أعلم ما دهاني يومها حين أخبرته كيف يصلح ما بينه وبين زوجته . . هل أحببت رؤيته سعيداً . . أم هو السبب الذي استفزني أنه لا يجوز هدم بيت لمثل هذا السبب التافه . . أم هو رغبتي في أن أساعده كما ساعدني . . هاأنذا أرتد على فعلي . . قد عاد لزوجته . . يعني هذا أنه لن يطلقها . . يعني هذا أنه لم يحبني كفاية ليفارقها . . يعني أني ساعود وحيدة . . يعني أني لن أتزوجه أبداً . .

أشكرك يا نفسي الغبية . . التي ما إن انصلح أمرها حتى أضاعت فرصتها الوحيدة للعيش . .

***

تحولت أيامي إلى روتين رتيب ممل . . فالصباح أنا في الجامعة أصارع

لأحسن من مستواي الدراسي . . ثم فترة الغداء هي مع شهاب . . نختار ألوان جدران المنزل وأنواع الاجهزة، ووجهة شهر العسل . . حتى أمل أو نختلف . . فيغلق الموضوع لحين آخر . . خوفًا من حدوث أي خلاف بيننا . . وفترة ما بعد الظهر كاملة في مكتب والدتي أعود للمنزل في الليل . . لألمح أبي تارة بين سفراته . . أو أجد خالتي تغط في نومها على الكرسي تنتظرني . . وكثيرًا ما عدت وحيدة . . لغرفتي ومرآتي التي تهالكت مع تهالك وجهي الجميل من الارهاق . .

تباعدت أرواحنا كثيرًا أنا وشهاب منذ بدأ بالتحضير للزفاف . . فلم أعد أولى اهتماماته . . لا يشغله عمله . . لا يحتاج أن يشغله عمل . . ما تركه له والده يكفيه عمرًا فوق العمر، وشركة والده لا تزال قائمة، وهي من أقوى الشركات الاستثمارية في القاهرة . . رغم بعد مجاله عن ما فيها . . إلا أنه يديرها بشكل مستمر وممتاز . . علمه جده كل شيء يخص عمله . . وحيث إن والدته تشاركه الادارة فهو لا يحتاج أن يوجد عدد ساعات معين . .

يستطيع فعل كل هذا وإرضائي وتدليلي، لكن في حين ترتيب شقة هو مهموم مشغول لا يجد وقتًا لي!

فقدت الجميع . . لا صديق ولا أنيس ولا جليس لي . . تكتظ جوانب رأسي بأفكار وطموحات وأحلام وآلام لا أجد لها مخرجًا . . أحيانًا نحتاج فقط إلى جليس يستمع إلى هذياننا . . لا لنصيحة ولا لحلول . . فقط نحتاج لنتخلص من كاهل الافكار التي تكاد تفجر رؤوسنا من ازدحامها . .

قدت كثيرًا وأنا استمع للسيمفونية التاسعة لبيتهوفن . . بحثًا عن أي سلام يمكن له أن يسكن روحي . . لا يعمل هشام إلا وبيتهوفن هو خلفية

الاصوات كلها . . يدعي أنها تجلب لروحه السكون والهدوء . . حاولت لكني لم أنل منها إلاصخبًا وتوترًا أصابني بالصداع . .

قدت حتى انتهيت تحت مقر مكتب والدتي . . شركة archmallow . . لا تحمل اللوحة أي وصف آخر للشركة . . لوحة سوداء وحروف بيضاء منيرة . . لطالما أحببت إطلاق أمي عليها هذا الاسم . . همهمت في تململ، ربما مزيد من العمل سينسيني وحدتي .

صعدت إلى المكتب . . اليوم إجازة للجميع . . أراد هشام مكافأتهم على مجهوداتهم فأعطاهم يومًا إجازة . . بحثًا عن كفاءة أفضل . . يؤمن هو بأن الموظف السعيد أكفأ وأخلص من الموظف المقهور . . حتى وان كان أعلى في المستوى المهني . . فالسعيد سيقدم عمله بحب وإخلاص على حين الآخر سيفعل فقط ما يتطلبه العمل دون إبداع . .

ونحن مجال يستند على الإبداع . . فلا بأس من التضحية لأجل إنتاج أفضل . . . . لفت نظري لوحة معلقة فوق مكتب الاستقبال . . هي أهداف شركتنا . . تشبه لوحة معلقة في بيتنا . . أهداف منزلنا . .

هي لوحة متجددة كل عام يشارك كل أعضاء البيت أو الشركة في وضع نقاطها . . عبارة عن أهداف المكان رؤيته . . وبعض القوانين التي على الجميع اتباعها ورسالة المكان المراد توجيهها وتحقيقها . . هي من صنع أمي التي لم تخطُ خطوة في حياتها الا اعدت لها العدة والإبعاد والمميزات والعيوب . . لكنها الآن متجددة بفعل هشام . . يعجبني كيف ينهج نهجها كأنها لم تغب عن المكان يومًا . . ربما عليّ أنا الأخرى أن أنهج نهجها وأجدد لوحة بيتنا . . لكن بأي اطراف؟ ! أنا الطرف الوحيد في المنزل . . ضحكت ضحكة ساخرة من حالي وأنا أفتح باب مكتب الادارة . . لأصعق

به يتربع عرشه ويختبيء خلف جهازه . . وتلك السيمفونية المزعجة تدوي من حوله . .

قام مرتعداً . . : ماذا تفعلين هنا؟

- أنت ماذا تفعل هنا؟

- هناك بعض التصميمات كان عليّ مراجعتها . . ووجدت أني أملك الوقت . . فأردت الانتهاء منها في هدوء . . وأنت ماذا أتى بك؟

- أردت مراجعة بعض التصميمات في هدوء . .

- ههه حقًّا؟! حسنًا . . لا أمانع أن تقدمي لي بعض العون . .

- ألم تقل سابقًا أنك كل خميس تخرج للصيد مع اصدقائك . . ما بالك تاركهم؟

- احتجت لبعض العزلة . . كثر الصخب من حولي . .

- ههه يالسخرية أنت تحتاج العزلة وأنا أحتاج الصخب . .

لم يلقِ بالاً لما قلت، وسلمني بعض الملفات لأراجعها . . وقام بطلب القهوة وبعضِ الحلوى من مطعم قريب . .

تنهدت فارتياح وأنا أبدأ العمل . . على الأقل هناك أحد بجانبي . . وإن كان أكثر إنسان يزعجني ويخترق خصوصيتي فوجوده يقطع وحدتي . .

***

رفعت كثيراً من الشعارات عن أني لا أبالي وإن كان قلبه ملك امراة أخرى . . لكن الكلام سهل . . وسهله أكثر خلافاته مع عبير . . لكن هيهات، ماكنت أبني سوى دائرة كبيرة من الوهم حبست نفسي داخلها . . كيف لأنثى أن لا تغار؟! . .

كيف تشغل منزله امراة أخرى، وأظل أنا حيث أنا أحبه واحتويه وأكون سنده.. ألست بأحق أن أكون من تسكن المنزل إن كنت أسكن قلب صاحبه؟!! ثقل في صدري كان يزيد من همي كلما حاولت أن أكلمه.. حاربتني الدنيا.. كلما شاهدت مسلسلاً كان للرجل عشيقة.. بيوت دمرت.. زواجات تهدم.. عشيقات خلف الشاشات وخلف الغرف في الخفاء في الظلام.. وجرح كبير لسيدة المنزل.. تشتت أراه في كل صوب.. ثم بعد كل هذا الاشتعال يشكرني كما الغرباء أني أنقذت منزله.. ألا يبالي بقلبي الذي سكنه ثم هجره... هو دوائي.. كيف أمسى اليوم دائي كيف طاوعت ليلى يومًا.. من يده في الماء ليس كمن في النار.. لكن قلبي وجسدي وروحي ألقيت بهم في قعر النار.. حرارتها تحرقني.. يحرقني ذنبي ويحرقني غيابه، وتحرقني سعادته مع غيري.. حاولت أن أكرهه لأخفف من ألمي.. حاولت اقناع نفسي بأنه هو الخائن أني الملاك البريء لا ذنب لي.. لكن لم أستطع.. وجهت كل قوتي في أن أصل لمرحلة وسطية لا أكرهه ولا أحبه لا أحتاجه ولا أبتعد عنه.. لكن على الذنب أن يتوقف عند هذا الحد.. سأنتزعه من قلبي انتزاعًا.. وإن تمزق الحشا، وأن فقدت مهجتي معه.. وإن ثارت كل أعضائي عليّ وهجرتني.. ستبقى يا شاكرمثالي الأعلى وأول من رآني.. لكني لن أهدم بيتًا بني على رضا الله ورسوله.. لأجل شيء خلق في الظلام.. مهما كانت روعته.. سأتركه كي يبقى سعيدًا في زواجه.. يكفيني أنهما عادا بعد نصحي له.. أني لم أكن سببًا في الهدم.. لقد كنت السبب في عودة الأركان إلى مكانها الصحيح.. حتى وإن كان ذلك يؤذي قلبي.. فلا باس لقلب واحد أن يتألم بدلاً عن أن يتدمر ثلاثة.. خاصمته وخاصمت كل ما

يوصلني به . . عدت كما كنت أنا وليلى دراسة ملل لا جديد حتى تلك الحياة الخفية والمحادثات العابرة التي كانت تحيي قلبي أبقيتها مغلقة كما عاهدته . . تركت كل شيء خلفي . . أيام تمضي فقط . .

لم يستمر حالي هكذا كثيراً . . كاد الفراغ يأكلني . . لم أطق أن تغيب الأنظار عني بعد أن سطعت في السماء . . لم أستطع أن أعود لقوقعتي بعد أن خرجت منها . . التوت نفسي . . وقررت أن أنتقم من ذاتي . . كدت أموت غيرة وحنقًا . . غيرة عليه وغيرة من ليلى، وحقدًا على كل من حولي . . شعرت أن الجميع سعيد عداي . . الكل يهنأ بخله . . إلا أنا وحيدة لا أستمع إلا ليوميات إخوتي، ومشاكل أعمالهم وأزواجهم . . اتفقت مع ليلى على أن تعلمني كيف أكون مثلها مذهلة جاذبة للرجال، فأنا يحق لي أن أكون نجمة مثلها تسطع في كل مكان . . وافقت وكلها سعادة . . وكان من رأيها أنه آن الأوان التخلص من شبح شاكر . . وبداية الطريق مع شخص آخر . . وأن وهج الحب وسعادته سيردان لي ما فقدت . . عليّ فقط البحث عن رجل لي . . لم أحتج لكثير من الدروس، كان يكفيني ما شاهدته منها عبر السنوات . . يبدو أنني كنت طالبة مجتهدة دون دراية مني . . خططت طريقي وحدي . . علاقات عابرة أحدث من أرغب، تغير مظهري وباطني وصوتي حتى همساتي ولمساتي . . فقدت البراءة التي كانت تسكن ملامحي . . اكتسبت كثيراً من علاقاتي بالكثير . . بت أفهم شخصيات الناس أكثر، ويسهل عليّ الحكم عليهم، حصلت على كل ما أردت من وهج كنت أتمناه، لكنه كان وهجًا خارجيًّا كشعاع شمس تحترق من داخلها لتنير الطريق للناس . . أناس يكرهونها يلعنون حرارتها لكنها ما إن غابت حتى بحثوا عن نورها، وما إن تاهت قلوبهم

بحثوا عن دفئها . . ظل داخلي قسم أبيض يأبى أن يتلوث . . القسم الذي بناه شاكر . . لما ساعدني وأضاءني . . خلق فيَّ حب مساعدة غيري . . أبى هذا الركن أن يظلم . . وفاءً له ربما . . لأنه يخلق رضًا في نفسي . . لأنه يرزقك حب الناس وكثرتهم حولك . . لا أدري لكنه كان أفضل ما بي . .

قسمت روحي فلم تجد راحتها يومًا في كل هذا التلوث كما أبت أن تعيش في وسط النقاء الذي تربت عليه . . لكن رغم عظم الخطأ . . ظل ذلك الجزء النقي ينقذني . . كان يحول جزءًا منه إلى صواب . . فقد كان يصلح بين عشاقي وزوجاتهم . . كان يدلني على أن أحسن من شخصياتهم . . كان يبحث عن الخير حتى في أشر النفوس ، ويجعلني أمد يد العون لهم . . رغم ما ألاقيه من أذاهم . . فكانت الحصيلة أنه رغم تشوه نفسي ورغم فقدها إلا أنها داوت كل ما لمسته من ألم ووجع ووهن . . . لم أسكن قلبًا وحيدًا إلا وآنسته . . لم أر بيتًا يهدم إلا وأسهمت في بناء أركانه . . تلمست أوجاع من حولي بقلبي . . كما قال شاكر يومًا فاقد الشيء هو أفضل من يعطيه . . لأنه يعطي نفسه قبل أن يصل العطاء لغيره . .

***

لكل خطأ ثلاثة مراحل: الأولى أن يحدث، والثانية أن لا يتم الاعتراف به، والثالثة أن يتم الادعاء أنه على أي حال لم يكن له تأثير..

فرانز غريلبارتسر

أرهقت كثيراً في تصميم احدى الغرف التي أوكلها لي.. تصميمها يقودني للجنون.. رغم كثرة التصميمات التي نفذتها إلا أني اليوم لا أستطيع تنفيذ تصميم يطابق مساحة الغرفة الحقيقية.. كلما أنهيت شيئًا راجعه هشام وأخرج خطأ قاتلاً به..

جُن جنوني وظللت أعمل بعصبيه وتوتر.. أحرك رجلي في توتر.. أتأفف كل عشر دقائق..

باغتني هشام من خلفي ورفع الجهاز من تحت يدي، وقال:

قومي.. اتركي كل شيء وتعالي..

توجه تجاه النافذة.. وأخرج سيجارا.. رفع السيجار تجاهي.. أرجعت ظهري للوراء في اعتراض.. لا أدخن..

أجاب بمكر:

ولا أنا.. هذا دخان أستاذ كريم لكن أريد تعليمك شيئًا..

أشعل السيجار وسلمه ليمناي..

خذي نفسًا عميقًا وانثريه في الهواء..

أخذت أطول نفس استطعت وأخرجته بتملل سريعًا في الهواء..

صفع يدي وسحب مني السيجارة..

- سأتغاضى عن ادعائك أنك لا تدخنين فعلتك هذه كانت كفيلة بقطع أنفاسك إن كنت لا تدخنين حقًّا..

لكن ما أريد منك يامدللة هو أن تهدئي . . استنشقي دخان هـذا السـم بهدوء وأخرجيه أبطا مما تنفسته .

فعلت ما أمر . . سحب السيجار مني في هدوء وأطفأه أشار بـأن أتبعـه وأتجه إلى البلكون . .

كان الهواء عليلاً، وصوت العصافير التي تسكن الأشجار حولنـا يمـلأ المكان . .

اقترب مني وقال بصوت هامس . .

- أتعلمين لِمَ أحب الصيد؟

لأنه يعلـم الَصـبر والهـدوء . . يعلمـك أن لاتفقـدي أعصـابك، ولا تركيزك لبعد هدفك عنك . . يعلمك أن لا تعجلي على رزقـك . . هـو آت لا محالة . . فقط قليل من الصبر والجهد . . لا تستطيعين أبدًا ممارسـة الصـيد وأنت في حالـة مـن الاسـتثارة العصـبية . . عليـك أن تكـوني في حالـة مـن الفرااغ لا تحملين هم شيء، لا تسمعين من ضـجيج العـالم سـوى صـوت الماء من حولك، وصوت الطيور المحيطة بك . . أمسـكَ كفـاي ووضـعهما في وضع كأني أحمل صنارة بيدي . . وقـال كـل مـا عليـك هـو أن تثبتيهمـا وتنتظري . .

لم يعلم أن لم يبق مني شيء ثابت مكانه . .

ابتعـدت عـن جسـده علـى عجـل . . رجـف قلـبي بعـد ثبوتـه . . سابقني قائلاً:

- لا تخافي . . رغم جنونك وصـغر تجاربـك إلا أنـي أعلـم جيـدًا فـيم تفكرين وماذا يخيفك . . ولا تخافي . . لـن أحـاول اخـتراق الحصـن الذي بنيتيه حولك . . أنـت امـرأة منظمـة في تفكـيرك، لا تسـبقين

الأحداث، ولا تغامرين، تختارين السبل الامنة والطرق المعبدة للوصول لأهدافك.. تفضح هذا جبهتك المستقيمة.. ورغم اختلافك في هذا عن والدتك صاحبة القرارات المتسرعة والمغامرات اللا نهائية.. فأنت تتفقين معها في العين المغمورة داخل محجرها، عينان تشعان حنانًا وعاطفة لا يقدر حاملها على الأذى.. قاطع حديثه بتنهيدة عميقة اقترب من شفاهي وتلمسها ثم أردف.. ثم تأتي شفاهك.. سبحان الذي رسمها.. لكنها لا توحي بشيء، تعالت ضحكة ماكرة منه..

رجع مكانه ورفع بصره للسماء في تيه.. ارتجف قلبي.. لكنها كانت رجفة الهاتف (جنتي) يتصل بك.. تركته يرجف.. فالرجفة الأخرى باتت أقوى..

غادرنا المكتب وعيناانا لا تكاد تتلاقى.. حاجز أزيل اليوم من بيننا رغم حفاظي على بعضه.. لا أعلم أن كنت وحدي من يشعر هذا وهو لا يبالي.. عدت إلى مخدعي. أطفات الهاتف.. غرقت في ذكرى اليوم أراقصها في خيالي.. لم أعهد نفسي يومًا بهذه الخفة.. ولم أر نفسي يومًا من بين عيني شخص آخر.. كيف له أن يى كل هذه التفاصيل في.. مؤكد أنه فكر آلاف المرات قبل أن يلقي عليّ حديثه.. لكن لِمَ ارتجفت من لمسته؟ لِمَ خدرت شفاهي حين تلمسها؟ لِمَ بردت أطرافي حين رن هاتفي؟.. كَيف لي أن أبغضه كل هذا البغضَ ثم يقلبني حديثه اليوم رأسًا على عقب.. لا بأس غدًا أؤنبها.. اليوم تهيم في بحر ذنوبها...

***

لم يبق حالي يحسن إلى غيري كثيراً . . "ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه" وجب عليّ أن أسلك إحدى الطريقين .

وجدت ليلى اخيراً توأمها الروحي . . جمال الذي لم يعلق به من اسمه أي شيء لكن في نظرها فقد، وجدت ما تبحث عنه عن ندها، عن مكملها، عن كل ما تمنت وجوده . . . لكن . . كان هو له رأي آخر بها، رأي ظاهر وأنها أمله وآماله كلها . . ورأي كنت أراه يتمثل في تصرفاته معها . . فقد بدلها وغيرها وراقبها حتى هلكت نفسها وضعف جسدها . . تغيرت كثيراً فقدت وهجها، لم تعد خفيفة مرحة . . حتى إن مجالستها بدأت تصبح ثقيلة على نفسي . . فهي دائمًا إما تثريه وتغرقه بكلمات العشق والحنان أو تبحث عن مبررات واعذار كي ترضيه . . فهو يعترض على طريقة لباسها وحديثها وحتى الأصناف التي تختارها لطعامها . . له رأي قاطع في اختيار لون مكياجها أيضًا . . أصبح يشاركنا جميع جلساتنا إن خرجنا، ويسمعها عبر الهاتف إن بقينا في المنزل فلا يجوز أن تكون لها حياة بعيداً عنه أو أي أسرار تتخطاه . .

لا أعلم أي أنواع الحب هذا . . لم أره سابقًا ولا أظن أن باستطاعتي أن أعايشه يومًا . . لكن لا بأس أن كانت هنا تكمن سعادتها . . كنت الوسيط في كثير من خلافاتهم التي لا تنتهي . . . حاربت كثيراً لأجل أن يستمروا سويًّا رغم عدم اقتناعي بماهية ما يعايشونه . . حتى ذلك الخلاف التافه . . حيث ارتدت هي أحد البناطيل التي أمرها ألا ترتديه مرة أخرى . . فثار وغضب كيف لها أن لا تطيعه، وأمطرها بوابل من الإهانات، وأنه فقد ثقته بها، فكيف تصلح زوجة له إن كان لا يستطيع الأعتماد على أبسط اتفاقاتهما سويًّا . . خاصمها قرابة الأسبوعين . . كادت أن تموت فيهما . .

كادت أن تبيض عيناها من بكائها . . لم تبقِ جهدًا في محاولة الوصول إليه وهو لم يكلف نفسه حتى بإجابتها مرة . . لمَ تطلب مني التدخل لأول مرة في حياتها . . ولم أرد أن أكون طرفًا بينهما . . كنتُ أسعد ما يكون بابتعاد هذا المريض عن حياتنا . .

لكني لم أطق رؤية حالتها تلك . . هاتفتها وطلبت أذنها في محادثته وأطلب مقابلته عليّ أفهم ما ألم به . . لا أصدق أن يتركها من أجل بنطال!

وافقتني . . وبالفعل حادثته . .

هاتفت ذلك العاشق الملتوي ألححت كثيراً عليه كي أقابله . . تعذر بعمله، ثم بانشغاله بأهله، ثم بعدم إرادته في الحديث عن أي شيء يخص ليلى . .

لم أكل أو أمل من محاولة إقناعه بمقابلتي، لابد أن أصلح الشرخ الذي أصاب صديقتي ومعلمتي . . كيف لي أن أستوي إن كان مثلي الأعلى قد تهشم . .

تم اللقاء بعد أن أنهى عمله في سيارته المظللة بشارع مظلم في وقت متأخر . . .

لم يبدُ عليه أثار التعب أو الفراق، ولم يتعنّ أن يظهر بعضه عليه أيضًا . . غريب أمرهم الرجال يتماسكون في الليالي الأولى من الفراق يتناسوننا ويقنعون أنفسهم بأنهم بأفضل حال، وأن الفراق لا يمس قلوبهم بشعره . . ثم تأتي الليالي الحالكة وأنفسهم المتهالكة تبدأ بالظهور بعد أن ننتشلهم من قلوبنا، وننتشل أرواحنا معهم، وننتزع أي ذرة رحمة أو رضا قد تبذر عليهم . . . ظل صامتًا يتأمل أطراف أصابعه دون أن يرفع رأسه تجاهي حتى ظننت أني سأقضي الليل كله على هذا الحال . . فبادرته :

- ومن ثم؟
- ارتسمت نظرة بلهاء على وجهه ثم تبللت عيناه وقال يدافع عبراته :
- انتهى الأمر . .

وترني ضعفه، وضعت يدي على كتفه محاولة طمأنته فأكمل : أعلم أنك حادثتني اليوم لأجلها لأنك تريدينني أن أعود إليها . . لكني مللتها ومللت تصرفاتها وطيشها . . حاولت تقويمها وجعلها إنسانة أفضل لكنها تأبى إلا أن تكون كما هي . . توترني وتغضبني بأصغر أفعالها قبل أكبرها . . هي أرخص من أن تملكني . . تحيط نفسها بكل ألوان الرجال . . لتستمد ثقتها في نفسها وتقتنع بجمالها . . ثم أني أخبرتها صراحة بأني ما عدت أريد وجودها في حياتي، وهي لاتتوقف عن محاولة الوصول إليّ . . تتبعني في كل مكان وترسل لي عشرات الرسائل في اليوم الواحد . . أين كرامتها وكبرياؤها . . ما أرخصها من أنثى . . تخبرني أنها تكاد تموت بدوني . . ياريتها تموت وتريحني . . لو اطبقت السماء على الأرض فلن أعود يومًا لهذه المجنونة . .

لا أعلم كيف اخترتها صديقة لك . . أنت تختلفين تمام الاختلاف عنها . . يحيط بك القليل من الناس تتحدثين بهدوء . . قراراتك متزنة وواضحة . . لا تحملين أحدًا فوق طاقته في تعامله معك . . ولا تحدثين ضجيجًا حولك لتظهري وجودك . . حتى وإن لم يلحظك أحد فهذا لا يعنيك وليس هدفك الوجود . . حتى الآن رغم كل ما أقوله . . أنت صامتة مصغية إن كانت هي من أحادث . . لكان صريخها ونعيقها يكاد يصمني . . منذ أن عرفتك . . وأنا علمت يقينًا بأن ليلى لم تكن سوى اختيار بائس لقشرة خارجية كنت أظنها تتوهج داخلاً كما تلمع من الخارج

لكنها كبيت خرب أعاد صاحبه تجديد ديكوره الخارجي ليلفت الأنظار لكنه مهجور مليء بالغبار والقذارة من داخله . . اقترب مني كثيراً وهو يردد . . أنت من أختار لأترك لها اسمي وتحضر لي نسخًا منها أفخر بهم . .

أنهى جملته الأخيرة وقد اقترب محاولاً تقبيل شفاهي . . لم أحرك مني سوى يدي التي طالت وجهه ليكون أول رجل أصفعه . .

خرجت من سيارته وأكملت طريقي إلى المنزل في حلكة وسواد من الأرض ومن السماء، أسود العالم كله من فعلته وأنار طريقي وجهي يشتاط حمرة وغضبًا . .

***

النشرة الجوية لهذه الليلة : ستكون السماء مظلمة، وستستمر الظلمة طوال الليل، مع انتشار الضوء في الصباح

جورج كارلين

شُل هاتفي من كثرة رنينه . . فمنذ أن غادرت سيارة شبيه الرجال هـذا واتصالاتها لا تنقطع أعلم يقينا أنها المتصلة . .

تجاهلت اتصالاتها مثقلـة الجسـد والـروح دلفـت إلى غرفـة أختـي . . أقعدتها من نومها قصصت عليها ما حدث وسط وابـل مـن مكالمـات ليلـى التي لا تنقطع . . تزيد من استشاطتي وتوتري .

أخبرتني راوية أنه لا يجب أن أخبرها بـأي شـيء ممـا حـدث، يكفيهـا جرحه لها يكفيها كسره واحدة (تعذري بأي عـذر أنـك لم تقابليـه إيـاكِ أن تكسري قلبها مرتين) . . أنهت راوية حديثها . .

هاتفت ليلى كان صوتها مختلفًا لم تبد حزينـة كمـا كانـت قبـل بضـع ساعات، يبدو أنها تمالكت نفسها سألتني ما إن أجابت . .

كيف كان اللقاء؟

- لم يتم أي لقـاء . . تعـذر بأنـه لـن يسـتطيع الحضـور . . لانشـغاله ببعض الأشغال مع والدته . .
- حقًّا؟
- أجل . . ما بك؟
- لا شيء كنت أهم بالخلود للنوم .
- حسنًا . . لا تحزني . . غدًا يبدلك ربي بالأفضل . . تصـبحين علـى قلب أقوى .

أغلقت الهاتف دون أن ترد . . لا بأس هي تعاني، لا بد أن أصبر على بعض التصرفات الصبيانية . . لم أكن لأقدر على حديث أطول من هذا وما كنت لأقدر على إخفاء ما حدث عنها أكثر من هذه الثوان . .

لم يغمض لي جفن ليلتها . . لا أشعر بالراحة أني كذبت عليها، ولا أوافق راوية رأيها . . في كل الأحوال هي تعاني فلتعاني مرة واحدة ربما إن علمت بما قال أو ما فعل للملمت كرامتها أو حتى ما تبقى منها وتركته . . لا أرضى لها أبدًا أن تذل نفسها لمثل هذا الشيء أبدًا . . لكن هذا رأيي أنا . . هذه أنا القاسية الأنانية كما يدعي كل من حولي . . أنا كالحجر لا أئن ولا أحن . . أفقد أعز ما أملك، وفي النهار التالي أرتب هندامي وألملم شعث قلبي وأحادث وأعاشر أناسًا جددًا كان شيئًا لم يكن . . يختلف الآخرون عني . . فهم ذوو قلوب رقيقة تحتاج أن نحافظ عليها ونستر عنهم ما يؤلمهم . . وأن نساندهم ونسمع لشكواهم مرارًا وتكرارًا حتى تشفى أرواحهم . . . ولكن من يسكت عني ضميري لأنام . . من يزيل ثقل همي وحملي عني . . إن كانت النتيجة هي وجعها فليكن . . لأني حقًا لا أطيق هذا الحمل وحدي . .

حسمت أمري بجفون مثقلة وليلة سوداء . . غدًا باكرًا سأخبرها بما حدث . . وليكن ما يكون .

***

كيف لقلب ذاب عشقًا . . أن يبرد فجاة . . كيف لنفس توهجت عشقًا أن تنطفئ بين ليلة وضحاها . . لم يعد شهاب يتلمس روحي في أي شيء . . حتى أوقات لقاءنا بت أقضيها تارة أتأمل ملامحه، لا أعلم كيف لي أن أقضي عمري فقط أمام وجهه . . وتارة ألوم نفسي أنها ملت شهابًا بسبب اكتشافها طريقًا آخر . . تحفه المغامرة التي ما عشتها طوال عمري . .

إن كان كذلك فلابد أني لم أحب شهابًا يومًا . . ولكني أحببت شوقنا ولهفتنا وسرقتنا لحياتنا رغمًا عن أمي ورغمًا عن العالم كله . . وعافت نفسي عن وجوده بعد أن فقدنا اللهفة ! ! أيعقل ! ؟

أمضيت النهار كله سارحة لا أعلم من أنا أو أين أود أن أكون ماذا أفعل وعمّا أبحث . . أيعقل بعد كل هذا العمر أن أكون لم أحبه يومًا . . أيعقل أن أكون أحببت المغامرة معه هو الآخر . . ولم يسكني كما كنت أظن . .

عنفت نفسي على انجذابها لهشام . . فهو متعجرف يظن أنه يستطيع امتلاك أي قلب يمر من طريقه . . يجذب روحي إليه ويفضلها عن الجميع ويزيل حدودًا وحواجز في حديثه معي وفي لمساته لي أثناء تناوله أي شيء مني أو مروره بجانبي . . فيربت على كتفي مرة، ويشد يدي نحوه مرة أخرى بحجة تنبيهي . . ثم يأتي نهار آخر . . يتعامل فيه بكل جفاء . . ويعيد كل الحواجز مكانها . .

وأنا ما بين هذا وذاك لا حيلة لي ولا قرار . . فحين يجذبني آتيه بكل روحي وجسدي وحين يبعدني . . يعز عليّ بعثرة كبريائي وأقطع على نفسي الوعود أني لن أتأثر أن قربني مرة أخرى . . ثم يهاتفني ليلة . . فأنسى كل وعودي التي قطعتها . . وأعيده حيث يحتل تفكيري ويباعد بيني وبين شهاب بل يباعد حتى بيني وبين نفسي . .

مرت الشهور ونحن على نفس المنوال . . لا أعلم في أي الأراضي أنا، ولا يتجدد سوى أن علاقتي بهشام في كل قرب يتلو البعد تعلو درجة فبعد المكتب والهاتف صارت اللقاءات ثم السهرات . . ثم ما أدري إلى أين . . وكل ذلك تحت مسمى الأصدقاء . . لا أقدر على عتابه، ولا يقدر على لومي حين أهاتف شهابًا في وجوده . . لكنها ما كانت تشبه الصداقة في فعلها ولا إحساسها أبدًا . .

قاطع صوت تخبط روحي بداخلها صوت رخيم يدق بابي . .

- انتفضت من مكاني أتأمل الجسد الهزيل والوجه المكفهر الذي أخرج هذا الصوت . .

- شهاب

- كيف أمسيت؟

- بخير . . ماذا بك؟

- يؤلمني قلبي يا ريم

لا أعلم في أي الطرق فقدتك . . لكني أعلم أني أفقدك . . ويكاد ظلك يختفي بعيدًا عن عيني . . ماذا حل بك أو بنا . . من المخطئ . . أم أني جننت وأتوهم بعدك عني . . ؟

رأف قلبي لحاله . . أخذته من يده ضممته إلى صدري اشتممت رائحة جسده التي كادت كل حواسي أن تنساها . .

همست في أذنه . .

هاأنذا يا شهاب . . لا يزال خاتمك يحيط أصبعي . . لم أغادرك . .

ثقلت رأسه على كتفي، وسالت دموع حرقت من لهيبها ظهري . . لعنت هشام ولعنت روحي ولعنت اندفاعي . . ولعنت الذي جاء لينغص عليّ جنتي . .

يبكي هو خوفًا من فقدي وأنا أقارنه ليل نهار بدنجوان آخر . . ولكن ذاك الدنجوان يعلم كيف يعاملني كأنثى ويهتم بأدق تفاصيلي . .

تجمد قلبي من حال شهاب بعد أن كاد ينفطروابتعدت عنه . .

- شهاب . . ما يبكيك؟ مالذي يضعفك هكذا . . ؟ لم أبتعد عنك يومًا . . أنت من انشغل عني . . ورغم ذلك لم أتذمر من بعدك

وجفاك . . وانشغلت بدراستي والعمل في مكتب والدتي . . ولم أسبب لك صداعًا بأحداثي ويومياتي كي تتفرغ لما تفعله . .

- تتعجبين من بكائي . . ألا يبكي الطفل حين يحرم من أمه من أمانه من ملاذه . . أنت تحرمينني منك بتصوير بطيء . . تظنين أني لا ألاحظ انسحابك . . لكنك تسكنيني كالمخدر تجرين في دمي يا ريم . . فاقل الجرعات منك قد يميتني غيابها . .

أكملت حديثي وأنا أرتب هندامي أمام المرآة دون أي مبالاة لما يقول . .

لا تقلق . . لم أنتوِ مفارقتك . . ولا تنس . . حتى المدمن يستطيع أن يشفى من إدمانه . .

تدارك وضعه . . لملم رجولته التي تناثرت على عتبة منزلي ووقف على رجليه ماحيًا دموعه . .

ربما أنت على حق

آسف إن أزعجتك . .

غادر يسابقه ظله قبل أن يرتد إليّ طرفي وأرى انكساره . .

شعرت بالرضا رغم انكساره . . آن الأوان له أن يكون رجلاً . . كم أكره ضعفه في وجودي . . مللت دور الأم . . مللته مللت حاجته لي حتى والله أني لمللت حبه، أريد رجلاً يحويني لا طفلاً أحتويه . . كما يحتاج هو إلى إلايواء . . فأنا أيضًا أحتاج من يلملمني بعد كل ما ألم بي، وكل ما مررت به . . وهو ما عاد يمارس هذا الدور أبدًا . .

***

كل شيء أصبح مرًا في فمي بعدما أصبحت بالدنيا عليمًا

ابراهيم ناجي

صباح جميل هاديء شقت الشمس أشعتها إلى قلبي رغم سواده . .

أسدلت شعري لا بأس ببعض المكياج نهاراً . . لا بأس ببعض من غبار السعادة انشره على خدي المتوردين لأزيدهم فتنه . . لا بـأس برائحـة عطـر تمتد مئة متر خلفي تحكي أن امرأة لم يخلـق في أنوثتهـا أي امـرأة مـرت مـن هنا . .

لطالما كنت أشعر بأني طفلة، وكل من حولي عاملني من هـذا المنطلـق ابتداء بوالدتي، رحمها الله، وانتهاء بخطيبي . . حتى أتاني هـو . . اكتشـفت أنوثتي . . واكتشفت طغيانها وقدرتها . . فعيناه تزوغان في حضوري تربـك طفولتي وتطردها وتزلزل جبال أنوثتي الراكدة تحركها . .

دلفت إلى المكتب أنشر الابتسامات في كل صوب متجهة إلى مكـتبي إلى ذلك الأمير صانع المعجزات الذي جعل مـني امـرأة ناجحـة جميلـة . . تخطـو وهي تعلم أن الكل يذوب خلفها من جمالها .

وقفت أمام باب المكتـب الزجـاجي العظـيم . . خلفـه يقبـع سـاحري ألقيت نظرة خاطفة على هندامي . . نعم سينهار حين يراني . .

فتحت الباب على عجل لأجد أميري قابعًـا وسـط كومـة مـن الأوراق يرتدي نظارته واضعًا يده على رأسه . . وبصوت خشن محشرج قـال مشـيراً بيده . .

- أغلقي الباب خلفك . . لدينا الكثير من العمل هذا الصباح . .

رفعت يده عن رأسه في محاولة أخيره لجذب انتباهه لي . .

- صباح الخير هشام

رفع رأسه عاقداً حاجبيه تأملني من رأسي حتى أخمص قدمي سرت النشوة في جسدي . .

- شركة السنهوري أرسلوا مندوباً إلينا صباح اليوم يحمل رزمة من الشكاوي ملقاة أمامك على المكتب لك أن تتصفحيها على مهل . . ملخصها لأوفر عليك بعض الجهد أن الأعمال تصل متأخرة وبجودة رديئة . . وحين تقدموا بالشكوى إلى المصنع رفض القيام بالتعديلات رغم أننا ندعي بأننا نوفر مدة سنة كاملة ضمانًا على أي تلف منا . . وأخلى المصنع مسؤوليته عن هذه العيوب وأن هذا ناتج عن سوء استخدام ورفضو ارسال أحد ليعاين الوضع . . ثم أن هناك مطبخا حدد تاريخ استلامه إلى شهر مضى . . وهو حتى اليوم لا يزال في مصانعنا ولم ترسل لنا هنا على المكتب أوراق تسليمه الأولية . . ونهاية لكل هذه القصائد . . فهو يخبرني بأن هذه ليست المرة الأولى التي ترسل الشكاوى إلى المكتب . . يفترض أنها أرسلت على البريد الإلكتروني الخاص بنا الذي من واجباتك تفقده . . لكن يبدو أنك لا تهتمي هذه الأيام سوى بتفقد مظهرك وتلوين وجهك . . خاطبت مدير السنهوري محاولاً تهدئته ووعده بإنجاز الأعمال وأني سأنهيها بنفسي . . فأعطاني بعد محاولات كثيرة في استرضائه مهلة شهر ونصف فقط . . وإن لم تحل كل هذه المشاكل . . ستوقف شركة السنهوري كل تعاقداتها معنا . . ولن تتسلم الأعمال القائم تنفيذها حاليًا أيضًا . . أتفهمين معنى أن تسحب السنهوري أعمالها؟ يعني أن ثلاث أرباع الأعمال التي تخرج من شركتنا ستتوقف . . وسنكون كأي مكتب ولد البارحة . .

أتمنى أن تكوني تعي ما يعني كل ما قلت وحجم الخسارة التي ستلم بنا . .

فتشي لي على الخير في الصباح الذي ابتدأته بصباح الخير حتى أنهي اجتماعي مع مدير المصنع وعماله الذي سيعقبه اجتماع مع كل موظفين المكتب . . وأتمنى أن تستطيعي بلوغه قبل انتهائه بعد أن تتمايلي بهذا الكعب . .

خرج من المكتب وأغلق الباب خلفه في غضب . .

رفعت شعري . . خلعت حذائي العالي . . نسيت كل ما أردت في بداية هذا النهار . . أغلقت هاتفي، جمعت كل الأوراق ودققت في كل التوراريخ وكل الشكاوي، وتابعت من أين بدأ الخطأ وكيف يمكن حقًا تداركه . . المهله وقت وهمي . . لا يمكن أبدًا ما تأخر تسليمه كل هذه المدة أن يتدارك في شهر ونصف . . نحتاج لمعجزة . . شركة السنهوري . . لن نخسرالسنهوري . . ليس اليوم على الأقل . .

حضرت معه اجتماع العاملين في المكتب . . كان يبدو عليه الإرهاق بعد اجتماعه مع مسؤولي المصنع . . تناولت الدفة والقيادة منه دون أن يطلب . .

أعدت ترتيب وتوكيل الأعمال مع تهديد بخصومات مهولة في المرتبات وزياد في ساعات العمل . . أوكلت نفسي الجزء الأكبر من العمل . . كل التصاميم المتأخرة هي مسؤوليتي . . عنفت نفسي . . ترضية له . . شهر ويكون تم التسليم . . دوى صوتي في كل أنحاء الشركة . . لم أخبرهم أن المهلة أكبر من هذا . . ربما يكونوا هم المعجزة التي نحتاج . .

أنهيت الاجتماع . . وأدرت رأسي تجاهه منتظرة منه تأييدًا أو رفضًا . . لكنه رفع جهازه المحمول وقال بصوت عالٍ . .

شهر وسأجمعكم إما لاكافئكم أو استبدلكم جميعًا . . والخيار لكم . .
علمت أنه يوافق على خطتي . . فارتاح قلبي ورضي كبريائي . .
وعدت للمكتب مسرعة . . لأنجز أكبر قدر يمكنني . . سأنول أنا الجزء الأكبر من المكافآة سأنول إعجابه ورضاه . .

***

كم يزعجني صوت رنين الهاتف رنات مملة متقطعة دون أي استجابة . . ينقطع الاتصال واعيده حتى قطع مللي صوتها أخيرًا بالكاد أسمعه :

- ألو ،
- صباح الخير يا جميلة ،
- من؟
- ألا زلت نائمة . . انتصف النهار يا جميلة . . قومي أود محادثتك في أمر مهمَ . .
- ماذا حدث؟
- قومي . . عليّ أن أقابلك . . هو ليس خبرًا ينقل في الهاتف . .
- لدي الكثير من الأعمال اَليوم . . لا أظن أني سأستطيع مقابلتك
- حسنًا . . سآتي ليلاً ونبيت سويًّا . . لن أحتمل التأخير . .
- سأبيت في منزل صديقتي الليلة . . سأحادثك حين أملك الوقت لنتقابل . .
- ليلى . . !
- ماذا هناك؟ !
- نحن إخوة أليس كذلك؟

- سأهاتفك يا نادية لاحقًا . . وداعًا . .

لم تهاتفني لشهرين متتاليين . . ولم تجبني أيضًا . . تجاهلتني عمدًا . . في كل مكان أذكر يومًا أني وقفت تحت منزلها وظللت أدق الجرس ساعتين متواصلة ولم أقطع الاتصال بهاتف منزلها ورسائلي تملأ عتبة بابها . . ومجيبها الآلي وبريدها الإلكتروني . .

يئست كل محاولاتي في الوصول لها . . نعم أتفهم جرحها لكن لم انعزلت عني؟ لا أجد لها مبرراً حقًّا كدت أجن وأختي تهدئ من روعي . . (دعيها ربما تحتاج بعضًا من الوقت وحدها . . ربما تخشى رؤيتك لها منكسرة وتود أن تتداوى بعيداً عن البشر . .)

تركت لها مساحتها رغم عدم اقتناعي بأي من هذه الترهات . . ليلى تخفي شيئًا . . . هي تتعمد غيابها عني . . ولم يحدث ذلك قبلاً أبداً

لا أصدق أن كل هذا محاولة في مداواتها لجرحها . . لابد أن هناك شيئًا آخر . . حدسي يكذب دفاعهم عنها . .

***

غادر الجميع إلى منازلهم على حين آثرت ليلتها البقاء . . لن يشعر بغيابي عن المنزل أحد . . شهاب قرر أن يتجنبني بعد آخر زيارة له . . توقف إلحاحه وسؤاله انقطع عني تمامًا . .

ووالدي يتنقل في أنحاء العالم من صفقة لأخرى من شركة لثانية . . ألم يعد لدينا ما يكفينا بعد؟! أما أن الوقت أن يعود لبيته ويستقر أم أنه يجب أن أفقده على غفلة كما فقدت أمي . . ؟

أغلقت الملفات وسرحت بعيني بعيداً بحثًا عن راحة مؤقتة أستطيع أن أكمل بها أكوام العمل المتكدسة . .

رفعت نظري في سقف المكتب . . السقف كله عبارة عن مرايا . .

رأيت أجمل فتاة في أبهى حلة مستلقية على أريكة بائسة في ظلام الليل الحالك . . فعلت كل هذا من أجل نظرة منه . . ثم هو تجاهلها كما لو أنها ارتدت خيشًا وربطت شعرها بخرقة مهترئة .

أغفلت عيناي لوقت لا أعلمه . . وفتحتها على لمسة منه . .

- مالذي يبقيك هنا؟

قمت فزعة أزيل آثار النوم عن وجهي والملم الورق المبعثر حولي . . رغم تجاهله لي إلا أني أكره أن يراني في هذه الحالة الشعثاء

- أنهي بعض الأعمال . .
- أنهيها في الصباح . . قومي سأوصلك إلى المنزل . .
- لا داعي . . سأنهي ما أردت لهذه الليلة . . وأغادر . . لِمَ لَمْ تغادر أنت؟
- غادرت بعد أن أنهينا الاجتماع . .
- ومالذي أتى بك؟
- نسيت هاتفي في درج المكتب . .

***

- مرحبًا .
- مرحبًا . .
- ـ كيف حالك يا نادية . . معك محمد الطوخي . . زميل ليلى في الجامعة . . حضَرتي أحد معارض الأشغال اليدوية معنا سابقًا أتذكرين . . أعطيتني حسابك الإلكتروني في حال أنشأنا معرضًا آخر . .
- نعم أهلا بك .

- أردت سؤالك عن ليلى . . كيف هي . . أهي بخير؟ هل أخبرتك بأنها انزعجت من أي منا مؤخراً؟
- لا أظن . . لم تأت على ذكركم . . لم مالذي يدفعك لقول هذا . .
- حاولنا مراسلتها كثيراً على بريدها وبرامج المحادثة وكل الطرق التي نعرفها لها . . حتى هاتف منزلها . . وما من جدوى . . ظننا أنها مريضة أو ربما تبحث عن العزلة . . لكن اليوم قابلت صديقتها المقربة (نورة) وأخبرتني بأنها قد استبدلت كل الحسابات التي تستخدمها بأخرى جديدة . .
- هههه ماهذا الهراء . . أنا صديقتها المقربة . . عن من تتحدث أنت؟ وأي حساب هذا الذي غيرته . . مؤكد أني كنت سأعرف إن فعلت ما تدعي . . أهذا ضرب من المزاح؟
- أقسم أني لا أمزح؟

لم أعي ما يقول يستحيل أن تفعل ليلى شيئًا مماثلاً . . حاولت تدارك الموقف . .

- حسنًا . . سأسألها وسآتيك بجواب منها . . لكني متأكدة أنها لا تضمر أي كراهية لكم . . لا تقلق . . سأحادثك لاحقًا . .

كنت أعرف عنوان بريد إلكتروني . . لو أغلقت ليلى كل وجودها من على هذه الشبكة اللعينة لن تغلقه . . فهو حلقة الوصل بينها وبين أهلها لا يعرفه سواهم . . أعطتني إياه مرة لأحادث والدتها نيابة عنها . . حتى تعود إلى المنزل . . علمت أنها ستقرأ ما سيصل عليه عاجلاً أم آجلاً . . فأرسلت لها أملاً في رد منها . .

***

رافقني إلى سيارتي . . ولم يبد بمن يهم بالرحيل . . فسألته أن نذهب لتناول الطعام في أي مكان قريب . . وافقني على الفور . .

أنهيت صحني على عجل . . وهو يتأملني ويقلب الطعام في صحنه بتملل . .

- لمَ لَمْ تمس طعامك؟
- تَكفي شهيتك تغني عن تناولي الطعام
- عذراً . . لم أتناول شيئًا من الصباح . .
- مابك يا ريم؟
- مابي؟
- لا تبدين متزنة كما كنت في أوائل أيام حضورك للعمل . . أهناك شيء تودين الحديث عنه؟
- لا شيء يذكر . . توكلت الي أعمال كثيرة هنا ويرافقه قرب انتهاء العام فالجامعة وتخرجي . . هو مجرد حمل من الأعمال . .
- ربما
- ربما ماذا؟
- ربما فقدت كل خبرتي في الحياة ويجب عليّ أن أكون ساذجًا وأصدق ما تدعين . . تصرين على معاملتي كأني لا أفهمك أو كأني ساذج . .
- لم أقصد ذلك . . لكن لا أفهم سبب سؤالك . .
- حسنًا . . هيا ننطلق سأحاول إفهامك في الطريق . . سأقود بك إلى منزلك . .

في الطريق إلى المنزل . . قررت خرق الحواجز التي تزال ببطء يشل قلبي . . فلا أعرف هل يراني كما أظنه يراني . . أم هو الوهم تلبسني . .

كيف تعرف ما بي؟

لو عرفت ما بك ما سألتك ما بك؟

ليس هذا ما قصدت . . كيف تشعر أن بي خطبًا ما . . يستدعي سؤالك . .

أنت امرأة ذات كبرياء . . حين تتالمين تلمعين وتتوهجين ترتقين لأعلى مستويات الجمال . . لا تقبلين بأن يتبعثر مظهرك حين يكون جوهرك مبعثراً . .

فكلما أتيت متعطرة . . متجملة . . تتدللين علي . . أعلم أن شيئًا ما شرخ داخلك . . وأنت الآن في أقصى مراحل قوتك المصطنعة . . ثم إن لي قلبًا يشعر بك ومؤشراً يتحسس أحوالك كلها . .

- هذا ليس صحيحًا . . ربما كنت في مزاج جيد يسمح لي بالتجمل . .
- حسنًا . . ربما . . والآن . . ما بك حقًا؟
- ملأت صدري بالهواء وأخرجته في بطء . .
- أخرجت رأسي من نافذة السيارة . . ونطقت بكل هدوء . .
- أفتقد أمي . . وصريخها . . أفتقد أبي أثمنى لو يترك عمله . . أكره وحدتي لطالما كنت محاطة بالكثير من الأصدقاء والصخب من حولي لكني اليوم لا أسمع سوى زقزقة العصافير صباحًا وصرصور الحقل ليلاً . .
- وأين هم أصدقاؤك الآن . ؟
- تخليت عن الجميع حين لم يكونوا سنداً لي بعد وفاة والدتي . . حين فقدت وهجي وصخبي . . نسيت من كنت أحب ومن كنت أسعد بجواره . .

- أنت من تضعين نفسك في هذا القفص . . عليك أن تحرري نفسك من كل هذه الأفكار السوداء . . ولا يمكنك أيضًا ربط سعادتك بالأشخاص . . ومن تخلى عنك مرة سيكررها ألف مرة فلا تندمي على أبعادهم عنك، ثم أنك من أخطأ بإبعادهم عنك . . علمت أنهم لا يصلحون أصدقاء لك . . كان عليك أن تعيدي ترتيب أماكنهم في قلبك لا في حياتك حتى لا تخلو بك الدنيا كما هي الآن بلا جليس أو ونيس . . غيري مقعدهم في قلبك وابق علاقات رسمية تشغلك عن فراغ ينهشك . .
- ربما . . ثم هناك تلك الزيجة التي ما عدت أرجو شيئًا منها . . فقدت حماسي، وفقدت كل شيء حاربت لأجله . . تساوى الآن إحساسي به كما لو أنه رجل لا أعرفه وأتزوجه إرضاء لأهلي . . نسيت كيف كنت أحبه ونسيني هو . .
- وما السبب في ذلك؟
- أظنني نضجت، فما عادت علاقة المراهقة تلك تعني لي شيئًا . . وربما هي الرتابة وربما هو وجد بديلاً . . لا أعلم ماذا ينقصنا . . لكن شيئًا عظيمًا قد فقد . . ولا أظنني قادرة على استرداده إلا بمعجزة . .
- إذن أتركيه . . ما دام أنك تعرفين السبب وتعانين من النتيجة ما يدعوك لأن تكملي؟
- ومن قال لك أني أكمل . . سأفعل . . سأغادره هذا مؤكد . .
- توقفنا تحت منزلي . . تناول يدي اليمنى . . وسحب منها الخاتم . . ووضعه في راحة يدي . . قلب يدي وقبَّلها . .

- تصبحين على خير . . أحببت كيف تجملت اليوم . . وسلمني مفاتيح السيارة وغادر . .
- وجوده وحده يكمل أنوثتي . . يجعل روحي تتلبس جسد فتاة ثلاثينية كل ما فيها يزهر بعد اكتمال . .

***

(لمدة قد تمثل عمر أحدهم . . اعتبرتك أختي من لحمي ودمي يؤذيني ما يؤذيك ويسعدني ما يسعدك . . لم أظن يومًا بأن تبتعد خطانا ولم أعلم يومًا بأنكَ قد تهينيني إلى هذا الَحد . . ما لقيتي مني كي يكون هذا فعلك . . شهران متتاليان أهاتفك يوميًا دون أي استجابة منك . . ثم أهم طرق اتصالنا أنا محظورة عنها . . اذهبي حيث تريد لم أعد أبالي . . لكن اعتباراً لأيام مضت . . أخبريني ما دعاك لهذا . . وأعدك أني سأدعك بسلام . .)

أسبوعان آخران مضيا دون أي رد فعل من تجاهها . . ثم جاء اليوم المنشود . .

ظهر اسمها من حيث كان يفترض أنها حظرتني . .

كيف حالك؟ أنا أحادثك فقط إجابة على اتصالاتك . . وللعلم لم أتعمد تجاهلك . . لكني كنت منشغلة بالكثير من الأمور . .

- لا أنتظر تبريراً لفترة شهرين . . ليسا ليلتين يا ليلى . . تفضلي،
- أظن أنك من يحتاج أن يتفضل . . ماذا تريدين؟
- لم أفهم .
- ألا تشعرين بأنه يجب عليك قول شيء؟
- بعد كل هذا الوقت . . كلا لا أظن . . بل أظن أنك أنت من يجب أن يقول مالذي يدفعك لمثل ما تفعلين .
- تلك الليلة حين قررتي أن تحادثي جمالاً . . حادثته أليس كذلك؟

- نعم. . . ثم؟
- ثم. . حين قابلته. . لمَ أخفيت الأمر؟
- لم أخف شيئًا. . مر شَهران أحاول أن أخبرك بما حدث ليلتها وأنت تتجاهلينَني. . منذ صباح تلك الليلة الملعونة. . أنت من يتهرب لكن في ذات الليلة لم أقو أخبارك كان بك ما يكفيك.
- وماذا كنت ستخبرينني؟
- كنت سأخبرك بأني قابلته. . وقال كلامًا لاذعًا حقيرًا لم أقوى بداية على إخبارك به خوفًا عليك. .
- وماذا بعد؟
- لا أفهم طريقتك. . عم تبحثين هذا كل شيء؟ تفاصيل الحديث كنت سأخبرك بها حين أقابلك. . ملخصها كان أنه لا يريد العودة. . مازلت لا أفهم ماذا دعاك للبعد عني. . رغم أني تحملت كل هذا لأجلك وأجل سعادتك. . ورغم كرهي له ومعرفتك بهذا خرجت معه لأجلك.
- ولأجلي أيضًا قبلته؟
- ماذا؟؟!!!
- كفاك تمثيلاً. . ألا تظنين؟

لم أجبها. . وأغلقت الجهاز كله. .

لن جيب أيًّا من هذه الترهات. .

ما أحقره!. . يلقي بنفسه علي. . ثم يدعي البراءة ويصب الوحل فوق رأسي. . وما أحقرها تصدقه وتشير أصابع الاتهام كلها نحوي دون أي دليل أو محاولة الاستماع لي. .

***

في وقت الخداع العالمي يصبح قول الحقيقة عملاً ثوريًّا

جورج اورويل

أردت مقابلتها لم يطعني قلبي في ترك الأمر عند هذا الحد . . تظنني خائنة لابد وأنها تتألم . . لا أعلم ما وصلها منه . . لكنها تظن بأني من طعن السهم في ظهرها . .

تتبعت أخبارها من بعض من عرفتهم عن طريقها على مدار سنوات مضت حتى توصلت لمقهى تقضي فيه بضع ساعات من وقتها يوميًّا بعد أن تنهي دوامها الجامعي . . لم أعتد على التنقل وحدي يومًا منذ أن اخترت سيارتي . . رغم كثرة تنقلاتي . . سائقي يأتي بي في أي وقت وأي مكان . . لكن السائق اليوم مع ياسر . . ينهون بعض الأعمال . . تبًّا لك يا ياسر . . ليتك تخطيت ذلك العائق النفسي الذي خلفه موت أبي وأمي في الحادث واستطعت القيادة مرة أخرى . .

لكنه ليس وقت التأسف على شيء . . لا بد أن أراها . .

غادرت المنزل على عجل، ركبت إحدى سيارات الأجرة . . قرأت القرآن كله وجميع الأدعية التي سكنت قلبي يومًا . . لم تجف يداي من التعرق ولم يخف على السائق وكل سيارة مرت بجانبنا . . كم هو عصيب عليّ هذا الوقت . . لا أميز أي من الطرق . . ولا أميز حتى مشاعري، ولا أعرف كيف أرتب كلماتي . . لا أعلم أي مصير سيكون لي الليلة . .

وصلنا . . دون أن أختطف أو تباع أعضائي . .

حملت نفسي على راحتي . . ودخلت وأنا أعتصر قلبي . .

كانت تجلس في آخر المحل . . في طاولة جانبيه . . كانت متوهجة جميلة . . ألوانها براقة كعادتها . . لم يتغير بها شيء . .

حمدت الله أنها بخير . . تقدمت نحوها . . ليلى . .

رفعت رأسها وما أن رأتني حتى قفزت منتصبة بعيداً عن صديقاتها جرتني من يدي . . قالت بتوتر :

- كيف حالك؟
- بخير . . أحتاج أن أتحدث معك .
- مالذي أتى بك هنا؟ ألم ننه الحديث ذاك اليوم . . ماذا تريدين الآن
- دعك من كل هذا . . هلاّ تكلمنا أرجوك؟

قلبت جهازها المحمول . . على عجل حركة متوترة لا أظن أنها كانت تنوي محادثة أحد . . أظنها كانت تدعي الانشغال فقط . . لمحت في سجل محادثاتها اسم جمال يملؤه . .

- حسنًا . . على شرط . . أن تجلس نورة صديقتي معنا . .
- هل أخبرتها بما حدث؟
- نعم وهذا هو الشرط الوحيد الذي سيجعلني أجلس برفقتك . .
- كما تشائين .

جلسنا ثلاثتنا في ركن بعيد عن كل صديقاتها . .

ابتدأت الآنسة نورة الحديث . .

نادية . . أقدر جرأتك وحضورك اليوم إلى هنا . . وأعلم كم هو من الصعب على كلاكما خسارة بعضكما البعض . . وأعرف ما كنت تمثلين لليلى في حياتها لكن بالله عليك . . كيف استطعت أن تمسي شيئًا لا يخصك . . لم يكن ولن يكون يومًا ملكًا لك . . قانون أزلي لن يتغير إن ما

لصديقتك لا يحق لك أن تشتهيه . . فكيف لك بأن تحاولي امتلاكه وطعنها في أكثر أوقاتها ضعفًا . . كنت تدعين دومًا أن ليلى هي أخت لك . . أنى لها أن تكون أختك وتفعلي بها ما فعلته . .

- هل انتهيت؟
- نعم
- لم آتِ اليوم مبررة لأي شيء . . ورغم أنها هي من أقحمك بيننا . . إلا أنه مع كل احترامي لك . . هو أمر لا يخصك ولا يحق لك أن تحدثينني بهذه اللهجة أو غيرها . . . ورغم غياب الواقع عن كل ما ادعيتي إلا أنه إن نظرنا للأمر من منظورك . . فهو لم يكن ملكها وكانوا منفصلين من أكثر من أسبوعين أي أنه بمنطقك الضيق . . عاد لصف الغرباء . . هذا بفرض أن ما قاله ذلك الحيوان عني صحيح . .
- انتفضت ليلى .
- (إن كنت ستأتي بذكره فاحترميني واحترميه بعد إذنك . .)
- هههه، حسنًا . . قررت الدفاع عن قضيتك دون محاميتك . . حسنًا يا ليلى . . مما أرى من منظوري أنك استمعت لطرف واحد هو الطرف الذي ارتضاه هواك وصدقتي ما قاله . . ولم تفكري لِمَ قد يقول شيئًا كهذا حتى وإن حصل حقيقة وهو يعلم بأن مثل هَذا قد يفرقك عن رفيقة عمرك . . لم يخطر ببالك أن تسمعي القصة من ناحيتي . . علها تختلف أو تتفق؟!
- مثل هذه القصة كيف أن يكون لها أكثر من وجه . .
- ههه، صدقيني لها أن تحتمل مئة وجه . .

- إذن الحل هو المواجهة . . نجتمع سويًّا وكل منكم يحكي قصته مقابلاً للآخر . .
- يبدو أنك جننتي . . هههه أضحكتني . . صعلوك يقول بأني ألقيت بنفسي عليه . . وأنا بكامل قواي العقلية أذهب لأواجه عقله ونفسه المرضى بما قال . . ويبقى قولي مقابل قوله وأنت الحكم . .

أكملت حديثي واقفة أهم بالمغادرة . .

ربما كنت لأقبل بهذا حلاً . . في بداية الأمر . . إن كنت سمعتي منه ولازلت ترقبين قولي . . كنت لأعدك حكمًا عادلاً ولأملت بأن تصدقيني وتختاريني بدلاً عنه . .

- لم أختر أيًّا منكم . .
- أرجوك . . لم أنه حديثي بعد . . حكمك العادل يا سيدتي كان بأنك استمعتي لهَ بقلبك قبل عقلك . . ووافقته . . وابتعدتي عني وتجاهلتني واستبدلتني بمحاميتك المتفانية هذه . . ثم عدت له كأنه غنيمة . . صدقتي ذاك الذي تعرفينه منذ شهرين مضيا . . ولي فوق الخمسة عشر سنة أبيت في بيتك وتأكلين طعامنا وتحفظين أسرار بيتي . . لكن حين قال بأني ألقيت بنفسي عليه . . وجدت أنه هو الصادق وقوله الأوقع والأصح . . ولم يكفك كل هذا إهانة لي . . تريدينني اليوم أن أواجهه . . ما أقبحك من صديقة . . تظنينني مغفلة لم ألمح رسائله على جهازك . . أتيت اليوم خوفًا عليك من الظن بأن تظني بأني قد أؤذيك يومًا . . وأخرج اليوم من هنا وأنا كلي قناعة بأنك أنت من آذاني ورغم أني عاهدت نفسي ألف مرة بأن لا أخبرك ما حدث لسبق حكمك عليّ . . إلا أنك تستحقين نبذة مبسطة عن ما حدث . .

- تناولت مصحفًا موضوعًا بجانب أحد أصدقائهم الجالسين، وعدت تجاهها وضعته أمامها ووضعت يدي عليه.. ليشهد الله على ما أقول..
- بطلك العظيم هو من حاول من يقبلني ولم يأخذ مني سوى صفعة حارة على وجهه المشوه كأخلاقه.
- وغادرت المكان قبل أن تعي هي ما حدث..

***

غاب عني شهاب.. يبدو أنه قد استسلم.. لن يحارب أكثر.. لا أشعر بغيابه.. بل على العكس.. هشام محق.. عليّ أن لا أكمل هذه الزيجة.. طالما لم أعد أبادله شغفه بي، ولم أعد أشعر بشغفه تجاهي.

أبدرت في حضوري إلى المكتب.. تعمدت التقليل من مساحيق تجميلي اليوم علّه يدع عنه أحكامه السابقة عليّ من مظهري!

دلف هشام إلى المكتب يحمل كوبين من القهوة في يده.. وكتاب جديد يقرؤه..

مثقف هو فيداه دائمًا مشغولتان بالكتب.. أو يتأبط مقالاً عن اكتشاف جديد يحتضنه بين ذراعيه.. ممم ذراعيه.. ليس مفتول العضلات هو.. لكنه يملك الجسد الامثل.. فلا عضلاته بارزة ولا مضمورة.. يمارس الجري أو السباحة كل صباح قبل العمل.. فيأتي بروح متجددة كل نهار..

وهاهو ذا قد بدأ يطلق لحيته.. ليزيد من غموض ملامحه.. ويخفي تلك الغمازة التي أتعمد إضحاكه في كل مرة كي أراها.. يحرمني من الغمازة ليقتلني بجمال وجهه بتلك اللحية..

وضع كوب القهوة أمامي . . وقال وابتسامة خبيثة تعلو وجهه . .

- مابالك مبكرة؟

- يبدو أنني أدمنت العمل . .

- كما أدمنتك أنا؟

احمر وجهي، وقمت عن المكتب، وقفت بجوار النافذة أتامل الشارع . . أميل عنقي تجاه اليمين وأداعب خصلات شعري . . وقف بجواري وهو يرتشف قهوته في صمت . . ثم اقترب وطبع قبلة على عنقي . . ثم غادرني وجلس على المكتب وغرق بين صفحات كتابه . . تاركًا أنفاسي تنقطع . .

تجنبت محادثته طوال النهار . . لم أجد في نفسي ما يجعلها تنهره أو تسائله عن فعله هذا، ولم أجد منها أيضًا ما يقبل، ما فعل كنت بين بين . . وجُل ما استطعت فعله هو اجتنابه حتى أعلم في أي الطرق سأنتهي . .

عدت للمنزل . . أتلمس عنقي بين الحين والآخر . . لازلت أشعر بذقنه يدغدغ حواسي . . زاد خوفي . .

هاتفت شهابًا . . لا أعلم ماذا كنت سأقول له . . ووفر هو عليّ العناء بعدم إجابته . .

***

من سيفتح لي صنبور الحياة لأشرب إذا جف قلبي تحت هذه السماء الخائنة؟

رياض الصالح حسين

تدهورت حالتي الصحية . . والنفسية والاجتماعية بعد ذلك النهار . . خاصمت العالم أجمع . . خاصمت دراستي، أصدقائي . . طعامي إخوتي . . انكوت روحي بفقدها . . لم أعتد غيابها . . ولم أصدق يومًا أن يفرقنا الزمن . . كيف استطاعت أن تتخلى عني مقابل رجل . . وأنا التي تخليت عن نفسي لأشبهها لأتقرب من حياتها لأشاركها مجتمعها وجماعتها . . عشت ما بين المستشفيات . . كل أيامي قضيتها في الطواريء . . كنت أحتضر جسدًا وروحًا دون أن يشتكي مني عضو واحد، كل مؤشراتي الحيوية مرعبة . . لا يغمض لي جفن . . كهلت واكلح وجهي . . لم أؤد أيًّا من اختباراتي . . ولم أنجح في أي مادة أيضًا . . فقدت عشرين كيلو جرامًا في شهر واحد!

تعجب كل من زارني، وكل طبيب زرته من حالتي . . زرت جميع أطباء القاهرة والإسكندرية وأي طبيب امتدحه أحد كنت أول الواصلين لديه . . لم يدخر إخوتي جهدًا ولا مالاً في محاولة تطييبي لكن دون جدوى . .

(إذا اشتكى منه عضو . . تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)

وما اشتكى كان قلبي . . مضغتي . . . مهجتي . . أساس حياتي مركز جسدي وروحي . . فكيف لجسدي ألا يتداعى . . ألا يترك كل ما فيه ليناسب وضع قلبي المكلوم . .

أحضرت راوية لي جهازي المحمول . . في محاولة لإنعاش أي شيء

بي . . عليّ أشغل بأصدقائي وعالمي مرة أخرى فأعود للحياة . . كل حساباتي ظهرت وتعالت أصوات الرسائل المتراكمة من كل من عرفت يبحث عني ويطمئن على أحوالي . . تركته بجانبي . .

- أحضر ياسر لك الكثير من الأقراص تضم أفلامًا وأفلام كرتون تحبينها . . في حال لم يأخذك الفضول للرد على هذا الكم من الرسائل . .

حقنت الممرضة الدواء في أوردتي . . تركته يتشعب في جسدي . . لا أعلم ماذا يعالج هو ولأي شيء بالضبط آخذه . . لكنه كان الوحيد القادر على جعلي أغفل ساعتين في اليوم . . قبل أن توقظني كوابيسي التي أحارب فيها جمالاً وأصرخ في ليلى بكل ما أوتيت من قوة وأدعو عليهم . .

لم أول كل الأصوات المحيطة بي أي اهتمام وأكملت مراقبتي للسقف . . زحام يملأ رأسي، أفكار متداخلة لم أعد حتى أميز أيها يستوطنني حقيقة وأيها خيال يلاحقني .

استطاع ذلك الساحر أن يأخذ بي لعالم الموتة الصغرى . . . . لكني سرعان ما عدت لذلك العالم الذي أمقته على صوت دب الحياة في عروقي . . كنت أشعر بروحي تعود لي . . صوت استطاع سحبي من كل الخدر الذي يسببه الدواء . . صوت أعلمه ويخفق قلبي له جيدًا نظرت حولي في دهشة أبحث عن الصوت فلم أجد شيئًا حملت روحي المتهالكة في اتجاه جهازي عل الصوت يكون صدر منه . . . ما كدت ألمسه حتى تكرر الصوت . . امتلأت رئتاي بالهواء . . إنه صوت شاكر . . صوت محادثته . . أميزه وإن كنت ميتة . .

لمست الجهاز فأضاءت الشاشة تتوسطها نافذة تحمل اسمه . . يرسل إشارتي تنبيه . .

لا أعلم من أين أتتني القوة . . اعتدلت . . لا أقوى على الكتابة . . ضغطت على زر المكالمة الصوتية . . قطع صوت الرنين صوته . . أي دواء هذا الذي يملؤون دمي به؟ ! . . صوته رد لي نصف عافيتي . .

ما إن وصل صوتي إليه . . حتى علت نبرته . .

- مابك؟ أين أنت . . ؟ !

- سبقت عبراتي حَروفي وسبق نحيبي حديثي . . تحدثت ساعتين متكاملتين . . قصصت عمراً غاب هو عنه . . بكيت وشهقت وصرخت . .

قاطعتنا راوية . . . طلب أن يحادثها . . تركت لها الحديث . . وألقيت بظهري على السرير . . ياويلي . . كان جبلاً من حديد أزيل عن صدري . . عدت لعالم الأموات في كل سكينة . . لم أدرِ بما حولي حتى انتصف ظهر اليوم التالي . .

استيقظت على سرير المستشفى الأبيض ، لا أعلم كم مر على في تلك الموتة الصغرى . ياسر أمامي . . راوية تجلس على كرسي عن يميني . .

وشاكر يحملق في وجهي . . .

***

انقضى العام الدراسي بتفوق دون خسائر . . وانقضت الطلبات المطلوب تسليمها مع نهاية العام دون خسائر أيضًا . . على الأقل شيء ما يسير على ما يرام . .

أنهينا تسليم جميع ما طلبته شركة السنهوري منا . . أتممنا عملنا بأكمل وجه . . تعاون الجميع ولم يتكاسل احد . . كانت روحًا عظيمة روح التعاون بيننا جميعًا . . سافر شهاب في هذه الفترة إلى جديه في الخارج . . تعذر بمرض جده . . وتركته يذهب . . نحتاج بعض الوقت بعيداً عن

بعضنا . . فأنا لم أقو على فراقه . . ولم أقوى أيضًا على سحر ذاك العاشق الذي يحوم حولي كل نهار . . لم أقدر على اتخاذ قراري بعد . . قام بالإلحاح عليّ بدلاً عنه والدي طوال هذه الفترة . . فما أن علم بسفر شهاب حتى بدأ يمطرني كل يوم بوابل من الأسئلة عن علاقتنا وسعادتنا وموعد زواجنا . . حتى أني صرت أهرب من مقابلته كثيرًا . . ثم يتساءل أحيانًا أخرى عمن أحدث ومن أرافق ليل نهار . . كانت كل الشبهات تحيطني . . وزادها هشام في ليلة أرسل طاقة من الزهور إلى المنزل معلقة بها تمثال صغير لسلحفاة نحتت من عظام البقر . . بملاحظة على الطاقة . . (اشتقت عبقك الذي ينافس الزهور روعة) . . التي تسلمها والدي . .

لم يدر بيني وبين هشام الكثير . . لكنه كان يداوي حزني ويستشف سعادتي . . كان يغرقني من كل الجهات بحنانه . . يعلم أدق تفاصيل ما أحب وما أكره . . مستعد لمشاركتي أي جديد عالج انطوائي . . لم تدر بيننا الكثير من الأحداث بقدر ما حملت هذه الأحداث الكثير من المشاعر . . كنت أعلم كم يشتاقني من نظرة تسكن لون عينيه . . وكم يحتاجني حين يهاتفني في منتصف الليل لأرافقه لتناول عصير المانجو في أحد الأماكن القريبة . . أعلم كم يحب وجودي حين يطلبني أن أرافقه في أي مؤتمر سيحضره . .

أحببت حاجته لي، أحببت حبه لوجودي، أحببت انطوائه عن العالم أجمع عداي . .

أرضى غروري مرارًا، وكسره مرات أخرى . . فرغم كل ما أراه منه هو دائمًا ما يلتفت لأخريات بوجودي . . وكثيرًا ما يتحدث عن مغامراته

السابقة وعشيقاته وعن كم الفتيات الآتي أحببنه، ولم يبادل أيًّا منهن مشاعرها يومًا . .

أظنه كان يعلم جيدًا كيف لهذا أن يجرح أي انثى . . لكن كرامتي كان دائمًا ما تدعوني لأن أتغافل وأتغاضى فلا أفضح مشاعري له . . وأعود إلى يقيني ولما أراه في عينيه، فكلام العيون أصدق من ألف كلمة يقولها اللسان . . أعلم أني أسكنه وأنه لا يعرف معنى الإمان سوى بوجودي وأني مررت في حياته لأعلمه معنى الحب وكيف لامرأة أن تسلب لبه دون أن يشعر . . لكنه حجر . . حجر سألينه بمرور الأيام . . أثق من قدرتي على هذا . . وسيكون لي، سيكون ملكي وحدي . . سأمتلك تلك العيون التي تحوم حولها كل من سحر بجمالها، هو رهان لنفسي لن أخسره . . لا ينقصني شئ عن الفتيات اللاتي تحمن حوله كي لا أستطيع امتلاك قلبه . .

أقنعت والدي قدر المستطاع بأن كل أمورنا على ما يرام، وأنه يجب أن لا يقلق . . دعوته أن يرافقني إلى الحفل الذي يقيمه هشام في منزله احتفالا بما أنهينا من أعمال . . لكنه تعذر بأنه يريد أن يحضر شهابًا من المطار . . لم أعترض ولم يعرض على مرافقته . .

لأول مرة في عمري . . يمكنني أن أكون بكامل أنوثتي الليلة . . ستكون الليلة هي الليلة الفاصلة . . سأخبر هشامًا كم يعني لي . . فقد آن الأوان ليراني من منظور آخر . . إن له أن يخرجني من دائرة الصديقة المقربة التي يدعيها ويعلم كلانا ما تخفي هذه الكلمة تحتها من نظرات وهمسات ومشاعر . . إن له أن يعلم أني تعلقت بكل ما فيه من حلوه ومر طباعه إن عاد قلبي بالزمن عهدًا حين كنت طفلة هو أول من تلمس جمال مشاعرها . . إني أفهم عيناه وأعي حبه الذي يخفيه . .

***

لم يبق شاكر في وسعه شيئًا يفعله لي إلا وفعل . . كان هو طبيبي النفسي والجسدي . . أخبر إخوتي بأنه طبيب نفسي كبير في إحدى الدول العربية وصدف وجوده في مصر حين طلبت منه إحدى صديقاتي أن يساعدني أو أن يحاول أن يجد سبب مرضي . .

صدقوه . . لغياب السبب العضوي . كان بعد كل جلسة يصرف له أخي أتعابًا يضعها هو بدوره في حصالتي ، وفي بعض الأحيان كان يوصلني ياسر إلى عيادة صديق لشاكر مدعين أنه طبيب مساعد في حالتي إخفاء للشبهات وخوفًا من أن نكتشف فيحرموني من زياراته التي تطيب كل ما عطب بي ، وفي أغلب الأحيان اقتصرت زياراته على زيارات منزلية . . يؤنبني تارة ويطيب خاطري تارة أخرى . . عنفني كثيراً على كل ما فعلته . . على إغلاطي . . على غياب براءتي على فهمي لما علمني بشكل ملتو . . على علاقاتي التي أخذت مني ولم تزدني سوى سمعة سيئة وجرأة علىً الأخطاء . . لم أكن لأجادله . . أو أناقشه ، ولم يكن ليدع لي مجالاً لتبرير أي شيء . . هو محق في كل ما يقول . . رغم قسوته . حفر ما قاله في رأسي فلم أنساه يومًا . . (كل من عرفتهم هم أشباه رجال لا يعرفون للحب طريقًا . . من يريدك سيطرق بابك . . لن يقبل بالظلام إلا المظلم) (لو أنك لم تكوني سهلة في وجودك لأي شخص يطلبك . . لو أنك لم تزيلي الحدود بينك وبين من تتحدثين معه لما تجرأ جمال يومًا على أن يحاول أن يمسك ، ولما كان سهلاً على صديقتك تصديق تلك الفعلة التي ادعى أنك فعلتها) (لم أعلمك يومًا أن تكوني صاخبة . . علمتك أن تكوني سيدة تعلم متى وأين ولمن تتحدث . . أنت من أراد الصخب وهذه هي نهاية اختيارك) . حين رآني للمرة الأولى كنت جوهرة بريئة مصونة واليوم أنا فتاة لا تعرف أحدًا

ولا آخر ولها من علاقاتها تاريخ لو عُـد لأحصـينا عـدد شـعرها . . كنـت أدمنت شرب الدخان والكحول . . فنمى على وجهي هـالات سـواد ذنـبهم واكلحت بشرتي المحمرة، كانت نظراته كلها حزن علـى حـالي وعلـى مـا وصلت اليه . . لعن نفسه ألف مرة ولعن بعدي عنه ألفًا أخـرى . . لكنـه لم يتخل عني يومًا واحداً . . لم يهملني منذ أن جاء لحظة واحدة، اسـتمع لـي مرات وتحدث إليّ أضعافها . . وغالبًا ما جلس مع إخوتي يحدثهم ويـؤنبهم في بعض الأحيان أيضًا . .

تحسنت أحـوالي كـثيراً . . عـدت أتنـاول طعـامي . . وأنـام سـاعات منتظمة . . ردت لي عافيتي . . على مهـل . . عـادت البسـمة ترتسـم علـى وجهي . .

بدأ الأمل يعود لـي . . كـان يحضـر معـي محاضـراتي . . يعيـنني علـى مشاريعي يبتكر الأفكار المناسبة . . يجلسني مع أصدقائه من نفس مجـالي . . عرفني على العديد من الناس (الأمينة) كما كان يسميهم . . ليكونـوا سـنداً لي عند غيابه . .

من أهم الأشخاص الذين ربطني بهـم صـديق طفولتـه ورفيـق عمـره ومخزن أسراره . . (أنور) مستقر هو في القاهرة يبعد عن منطقة سكني بضـعة شوارع . . كان كثيراً ما يذكره، ويذكر أيامهم سـويًّا في أيـام الجامعـه حـين كانا يعيشان سويًّا في سكن المغتربين، كان أنور يهوى العزف علـى الجيتـار، وشاكر يؤلف الأغنيات ويختار ألحانها على البيـانو . . ورغـم رداءة عـزفهم ورداءة الأغنيات التي خرجت من بنات أفكار شاكر إلا أنهم كانوا معتقدين في صميمهم أنهم فنانو المستقبل، وأن النقـد والاسـتهزاء بهـم هـو كقـذف النخيـل المثمـر بـالطوب ليسـقط الرطـب . . حتـى إنهـم كـثيراً مـا دعـوا

أصدقاءهم لحفلات في حديقة منزلهم ليستمعوا إلى غنائهم وأجدد أغنياتهم بل ولقبوا تلك الفرقة المكونة من شخصين بالشنكلوليزة ليتميزوا ويعلقوا بذهن السامع لأن هذه أول خطوات النجاح!!

حتى أنه رشحني له كعروس مثالية.. أتزوجه وهو يدبر له عملاً في شركته التي يعمل بها خارجًا ليكون هو أسعد من على الأرض لأن أحب اثنين له على وجه الأرض يعيشون بجانبه..

فعل المستحيل.. ليظل طريقي هو طريقه، وتظل أيادينا للأبد متشابكة يعين بعضنا بعضًا.. وقطع لي وعدًا وقطعت له مثله بأن لا نترك بعضنا لمثل هذا أبدًا.. هو منقذي وأنا منقذته مهما حيينا، ومهما تبدلت أحوالنا.. حتى وإن لم يكن لي في صديقه نصيب وبعدت خطاوينا سيبقى ذلك البريد الإلكتروني هو ملاذنا لبعضنا البعض..

قبيل سفره ببضعة أيام.. أخذني إلى إحدى القرى السياحية كجائزة لي على حسن خلقي.. وعودتي المحمودة.. وإيمانًا منه بأن المسطحات المائية تشفي الروح من توترها، والعزلة عن البشر ترمم ما قد هلك واستهلك من الصبر.. رافقنا العديد من أصدقائه.. إلا أنه كان يختلي بي ساعة قبل المغرب على الشاطئ.. يتحدث معي وينصحني ويحاول التعمق في اتجاهات أفكاري ليطمئن أن صلحت أم لا..

كان المنظر وحده يخلب اللب.. الهواء يحمل هرمون السعادة ينشره داخلي مع كل شهقة..

جهز لي كل أنواع الرفاهية.. وكل الأنشطة.. ركبنا الخيل على شط البحر.. تناولنا العشاء على ضوء الشموع وأمواج البحر تلامسنا.. رحلة على أجمل يخت امتلكه أحد يومًا.. كان نهارًا في الجنة...

عدنا لغرفنا ليلاً . . قبَّل جبيني مودعًا . . متجهًا لغرفته . . غدًا كل منا يعود أدراجه . . وبضعة أيام ويغادرني بروح جديدة وحياة أجدد وماض أقفلته بألف وعد له . . وهو يعلم جيدًا أني لن أخلف وعدًا له ما حييت . .

كاد يخرج ، جذبت ذراعه . . وارتميت في حضنه . . لم يمسن من يوم رأيته . . لكن لا بد لروحي أن ترتد مكانها . . بأن تغيب في أحضانه . . . دعوته لأن نشرب سويًّا آخر كأس لنا في الحياة، ووعدته بأن تكون هي النهاية لكل شيء وأي شيء . . لكن على النهاية أن تكون معه . . عارضني كثيرًا في البداية وهو لا يقوى على مفارقتي أذرعه . . لكنه استسلم أخيرًا بعد إلحاح . .

تلاطمت أمواج البحر ليلتها وهاج وعلى دوي موجه قابله الرعد ردًّا ثم أمطرت السماء بكاء على ما شهدته منا . .

***

ليس الجمال بأثواب تزيننا . . إن الجمال جمال العلم والأدب

علي بن أبي طالب

ادخرت ثوبًا لهذه السهرة، رأيته قبل أيام على واجهة إحدى المحلات لم استطع أن أتخيله إلا على جسدي . . وأنا بجواره .

ثوب أحمر من القطيفة . . كلون الدم دافئ . . يخفي الجسد كله من الأمام من النحر وحتى أخمص قدماي . .

ثم يأبى إلا أن يظهر جمال الجسد الذي اختاره . . فيترك الظهر كله عاريًا ليثبت عليه عين كل من يراه . . يتدلى من أعلاه سلسال يسقط على الظهر ليقود عينيك إلى آخره . .

عبقت جسدي برائحة الياسمين . .

رفعت شعري في فورمة بسيطة . . ليتسنى للناظر تأمل الفستان . . شفتاي الممتلئتان ملأتهما بأحمر شفاه كأنه فستاني قبل شفاهي أثناء ارتدائه . .

اتجهت للحفل وقد زادني الثوب دلالة وأنوثة ومغجًا . .

طرقت بابه طرقًا خفيفًا . . لا أسمع صوت الموسيقى ولا إزعاج زملائنا في الشركة بعد . .

خرج مبعثر المظهر . . عاري الصدر . . أربكني وأربكته . .

صمت كلانا في دهشة . . ثم تدارك هو الموقف فسابقني . . تفضلي يبدو أنك أول الحاضرين . .

ارتد لي وعيي :

- لِمَ لمْ تنته حتى الآن . . وكيف لي أن أكون أول الحاضرين والساعه تكاد تقارب العاشرة . .
- لقد أخبرت الجميع بأننا سنبدأ قرابة منتصف الليل . .
- أعتذر . .
- لا بأس . . يمكنك مساعدتي . . تفضلي إلى الداخل . . سأرتدي ثيابي وأعود إليك بعد قليل . .
- حسنًا . .

دخل إلى غرفته . . تمشيت في أنحاء منزله بكل غنج ودلال . . يحتفظ في إحدى أركان البيت ب جرامافون حديث يدعي الأصالة . . وبجانبه أسطوانات تدعي القدم هي الأخرى . .

أحببت تفاصيله . . ولأنه عصري . . فكان يحتوي زرًا للتشغيل . . ضغطته فتعالى صوت الموسيقى في المنزل . .

جسمك خارطتي ما عادت خارطة العالم تعنيني . .

أنا أقدم عاصمة للحسن .

وجرحي نقش فرعوني .

وجعي . . يمتد كبقعة زيت .

من بيروت إلى الصين . .

فتحت الستائر . . جو هذا المنزل كئيب رغم جماله وفخامته . . يحتاج لمسات انثوية تحييه ربما سأكون أنا من يحييه . .

وقفت في الشرفة أتأمل جمال النجوم . . في حلكة الليل . . ازدانت السماء التي تتراقص سُحبها مع جسدي على صوت كاظم . .

تراقصت أصابعه على ظهري . .

وكاظم يختم أغنيته . .
من أجلك أعتقت نسائي . .
وتركت التاريخ ورائي ،
وشطبت شهادة ميلادي ،
وقطعت جميع شراييني . .
- التفت إليه بكل حواسي . . احتضنني حتى ماعادت ضلوعي تدري كيف رتبت قبلها . .
تقابلت عينانا . . ويده تتعرف على تفاصيل وجهي تتلمس ملامحي . . تنهد عميقًا ثم قال . .
تستحقين حفلاً لك وحدك . . لا أعلم كيف لي أن أولي انتباهي لغيرك الليلة . .
تعلمين كيف تسمرين عيناي عليك منذ صغرك . . وتعلمت الآن كيف ترجفين قلبي . .
قاطع حديثة صوت جرس بابه متكرراً مزعجًا . . يبدو أني لست الوحيدة التي أبكرت بالحضور . . تركنا السماء وجمالها ، وتركنا حديث عيناه ورجفة قلبه ، واستقبلنا الجميع واحداً تلو الآخر . . حفلة راقية هادئة تحيطنا نفس السماء التي لمعت نجومها فوقنا قبل قليل . . تتلاقى الكؤوس بجوارحمام السباحة والموسيقى تغطي صوت الضحكات والهمسات . . الكل سعيد . . الكل منشغل . .
وبين كل حين وآخر التفت تجاهه لأجده يتأملني . .
بدأت أمل الوقت . . فأنا لا أستطيع امتلاكه أو الحديث معه أمام كل هذه الجموع . . ولم آتِ إلا لأجله . . فرفقة وثرثرة الآخرين لا تغنيني من جوعي له . .

هاتفت والدي اطمئن على عودتـه للمنـزل . . وللـهرب مـن الملـل . . فأخبرني بأنه بالقرب منا، ويستطيع أن يمر بمنزل هشام إن أردت أن يقلني، وافقته . . يبدو أنني لن أنال شيئًا من ما خططت للحديث عنه هذه الليلة . .

تمشيت بضع خطوات إلى داخل المنزل كي استطيع الحديث مـع والـدي بعيداً عن الصخب . .

أغلقت الهاتف . . التفت ورائي وأنا أتنهد في نفاد صبر . . لأجده يقف متكئًا على الجدار . . مادًّا يده تجاهي كي ألتقطها . .

اقترب مني . . وقال : . . لِمَ أخبرت والدك بأن يحضر لأخذك؟

- يكفي لهذه الليلة . . كانَت حفلة جميلـة أشـكرك كـثيراً . . قضـيت وقتًا ممتعًا .
- هل لي بطلب؟
- بالتأكيد . .
- هلاّ بقيت معي . .
- لايزال والدي بعيداً على ما آمل . . ها أنذا حتى يصل . .
- حسنًا رافقيني لأعلى أريد أن أريك شيئًا . .

صعدنا إلى غرفة نومه . . طاقة كبيرة من الورود الحمراء موضوعة على السرير . . ورائحة الغرفة أثارت بـي حـواسّ لم أعلـم بوجودهـا سـابقًا . . حاولت أن أتصنع الثبات . . خرجـت إلى البلكـون . . أنظـر إلى السـماء في شتات . . أحضر علبة صغيرة ووقف بجانبي . .

ناولني العلبة . .

قلبي يكاد يقفز من صـدري سـعادة . . أخـيراً علمـت أنـه يبـادلني مـا يسكنني . .

هذه هدية بسيطة لا تليق بجمال جلالتك شيئًا . . تقديراً لمجهودك . .

فتحت العلبة . . سلسال من الذهب الأبيض . . تعلق بوسطه . . قمرٌ أبيض من اللؤلؤ ونقش عليه اسمي . . حاولت مداراة خيبتي حيث ظننت أنه خاتمًا سيطلب به مشاركتي له سعادة أيامه . .

أخذ السلسال مني . . وعلقه في عنقي ثم طبع قبلة على عنقي . . . التفت تجاهه أكاد أخبره بأني أحبه . .

سابقني :

ابقِ معي الليلة . . على هذا الجمال أن يقدر . .

- سيكون الوقت متأخراً . . ووالدي في المنزل . .

- لن أعيدك في وقت متأخر . . سأعيدك في النهار . .

ابقِ معي الليلة . .

- كيف هذا؟

- أعلم ما تريدين أشتم الشبق في لمساتك وأعرف رغبتك في نظراتك . . لم تتمنعين؟

ضمني إليه . . وأغرق عنقي بقبلاته . .

باعدته عن جسدي قليلاً، قلت له وعيناه تقابل عيناي " لم تريد فعل هذا؟ أتحبني؟ .

جلس على الكرسي وأجلسني في حجره وقال وهو يداعب السلسال الملقى على ظهري . .

لا تضعيني في خانة لا تليق بي . . هذا الحفل . . بجانب أنه احتفال بما حققناه هو حفل وداعي لكم جميعًا سأسافر خلال أسبوع لأعمل في الكويت . .

فغرت فاهي رغبة في الصريخ، وضع يده على شفاهي مانعًا حركتها دعيني أكمل . .

تعلمين أني أريدك . . ولم تمتنعي عني يومًا . . أتذكرين حين قبلت عنقك في الشركة . . ظننتك ستثورين وتضربينني وتنفعلين كعادتك ، لكنك لم تفعلي . . وهذا ما أكد لي رغبتك بي كما أرغب بك فيداك تتعمد ملامستي كلما ناولتني شيئًا أو أردت لفت انتباهي تجاهك تتجملين كل صباح الساعه الثامنة؟ أعلم أنك تتجملين لي وحدي . . تتعمدين إغراق جسدك في زجاجة العطر تلك حتى تلتصق بثيابي وأوراقي . . فتسكنينني ليل نهار كنت أراقب إزالتك للحدود الجسدية بيننا وأنتظر مبادرتك حتى ظهرت اليوم أمام بيتي مبكرة رغم تكراري على مسمع الجميع أن الحفل ابتداؤه في منتصف الليل ،

أريدك . . أريدك خاتمتي في هذه الأرض . . ابق معي الليلة . . لا داعي لأن نفعل شيئًا يجلب لك العار . . دعيني أعط هذا الجَسد المقدس حقه . .

- أهذا جل ما تريده مني؟ جسدي؟

- وماذا تظنين أن بإمكاني أن أخذ غيره؟

طرقنا مختلفة، نبحث عن أشياء مختلفة ، تعلمين كم أحبك وكم أسعد بجوارك . . لكنك لست من سأتزوج ليس عيبًا أو نقصًا بك . . لكننا مختلفان كثيرًا . .

جحظت عيناي في دهشة، أكمل لا مباليًا،

على كل العرض لا زال قائم ولك حق القبول أو الرفض أعدك بأنك لن تندمي . .

أوقفني . . اقترب قبل رأسي وغادر . .

شعرت كأن أحدهم سكب ثلجًا على رأسي . .

هاتفت والدي . . أخبره بأني سأسبقه إلى المنزل . . فوجدته يخبرني بأنه في المنزل ينتظرني يبدو أنه نسي أنه سيقوم بأخذي لم ألق بالاً وغادرت في صمت أحاول التماسك . .

***

الخطيئة بعد عن الخير واليأس بسبب الخطيئة زيادة في البعد

سورين كيركغارد

غابت الشمس ذاك النهار مكملة غضب الرب والسماء علينا . . نهار بلا شمس بارد في أشد شهور السنة حرارة . .

قمت وأنا لا أعي ما حدث بعد . . لا أعي فقداني ولا أعي كيف سأمضي بعدها . .

خرج شاكرمن الحمام بوجه مكفهر . . يحمل محفظته أخرج منها مبلغًا من المال وضعه في يدي . . وقال في هدوء . .

- لم أقصد حدوث هذا ولو لم تذهبي عقولنا لما حدث هذا سامحيني لا أعلم حقًّا كيف لي أن أكفر عن ما حدث . . أعرف طبيبا يجري هذه العمليات . . هاتفته قبل قليل ووعدني بمساعدتك . . هذا المبلغ كفيل بإصلاح كل ما اخترب . .

أرجوكِ لا تكرهينني لم أرد إلا مساعدتك . . واليوم أضعت مستقبلك . .

لم أحمل كل هذا العبء الذي يحمله . . تبلد شعوري منذ زمن . . أعدت المال إليه وقبلت يده . .

"لن أجري أي عمليات . . لطالما أردت أن أحمل ذكرى منك لي . . وهاهي . . امتلكتها . . لو ملكت أن أغير أحداث تلك الليلة ما غيرت شيئًا . .

لا أريد الزواج يومًا . . ولا أريد أي شيء من هذا الكون سواك . . وهاأنذا أصبحت ملكك . . "

احمر وجهه وتعالى صريخه . . يؤنبني . .

حملت روحي المثقلة وغادرته . .

جلست أمام البحر لبضع دقائق أحاول ترتيب ما يحدث . .

نعم نحن في مجتمع شرقي يحكم على من تصرفاتي ، يحكم على عفتي وطهارتي ، وإن تزوجت يومًا على هذا الحال سيعيدني بعد أول ساعة خلوة إلى أخي الذي بدوره سيقتلني . . وإن تمنعت عن الزواج فلن أستطيع أن أبقى هكذا طويلاً ستثار التساؤلات . .

عليّ إذن إجراء العملية . . لكني لن آخذ أمواله . . لا زلت صغيرة يكفيني الوقت لأعمل وأجمع المال الذي يكفيني ، لازال بحوزتي المال الذي صرفه أخي لشاكر ظنًّا بأنه طبيب نفسي . . لن يكتشف أحد هذا السر في القريب العاجل ! ! فلم العجلة ! !

عدنا إلى القاهرة . . بالكاد خاطبني . . يحمل نفسه فوق طاقتها . . لا يقوى على النظر في عيناي . . يتجنب ملامستي . .

رافقني إلى منزلي . . وقبيل المنزل ببضعة شوارع توقف . . نزل وأمرني بالنزول . . أخرج من السيارة أوراقًا سلمني إيها . . ثم احتضنني كأنه الوداع الأخير . . وقف يمسح دموعه من وجهه :

" أحبك . . أحب كيف أنقذتني أول مرة وأحببتك في كل يوم كنت تتحسنين فيه . . أعلم أنك فتاة عاقلة وستعودين إلى رشدك وستفعلين ما طلبته منك . . . ستكونين الأفضل . . وستكونين الأنجح . . أعلم جيدًا بأن في زيارتي القادمة لمصر سأجدك كالنار على علم . . . وسأمضي في الشوارع أتباهى بمعرفتي لك . . أعلم أنك لن تخذليني يومًا . . أثق بك وأثق بنجاحك أكثر مما أثق بنفسي . . أحبك يا نادية "

أبكاني فارتميت داخل أحضانه مرة أخيرة فقد تعاهدنا أن لا نلتقي يومًا تعاهدنا أن نتباعد ونحافظ على العهد حفاظًا على زواجه، حفاظًا على ابنه، حفاظًا على حياتي ومشاعري التي إن بقي بجانبي فلن أستطيع إسكانها غيره يومًا . . فحياتنا منذ الآن ستكون سعادتها قائمة على معرفتنا بأننا اخترنا الأصح لكلانا ومعرفتنا بأن هناك ابتسامة ترسم على وجوهنا أن كلانا سعيد وكلانا ناجح فزواجه تم إنقاذه وأنا تخطيت خطيئتي وأصلحت خبيئتي . أماني وسندي وعفتي وذنبي هو . . ياليتني أفقد روحي ولا أفقده . . ياليتني لا أعيش يومًا واحدًا دونه . . غادرته وذهبت إلى المنزل . . تغسل دموعي طريقي . . تكفر عن ذنبي . . تبرد حرقة قلبي . . تملأ قلبي الذي سيفرغ من بعده . .

***

دلفت إلى المنزل . . أجر ذيل الخيبة والعار معي . . كلما ظننت أني كدت أصل إلى ما أريد . . وجدت أني ألطخ نفسي بالوحل أكثر . .

وجدت والدي جالسًا بجانبه شهاب . . الذي انتصب واقفًا ما إن رآني . .

- ألهذا نسيتني يا والدي . . . ؟
- لم أنسك . . لقد ذهبنا بالفعل لإحضارك . .
- ثم؟
- وجدناك مشغولة . . فلم نرد إزعاجك . .
- منشغلة . ؟ لم أرك هناك . . كفاك مزاحًا . .
- أعلم . . لكننا رأيناك تقفين في الشرفة وهشام يحيطك بذراعيه . . لكن أبى قلبي أن يقبل أن يظن أن هذه ابنتي التي كبرتها

عمرًا . . بحثت عن ابنتي وسط الجموع فلم أجدها فغادرت أكذب عيني واقنعها أن هذه فتاة أخرى تشبه أوصافك . .

- حتى وصلت وتقفين أمامي هاهنا . . علمت أن عيني صادقة . . وابنتي هي الكاذبة . . فأنت حقًّا من كانت في الشرفة . .
- الأمر ليس كما تظن . . لقد صددته . .
- تناقلت بصري بينه وبين شهاب . . رجاء منه ألا يكمل الحديث أمامه وتكاد عيناني تنفجر بالدمع . .
- كما لم تستحي من فعلتك فلن أستحي من الحديث أمام خطيبك . . هذا إن كنت ما زلت تعتبريه خطيبك . . أين هو خاتمك؟!
- نظرت إلى إصبعي . . نعم لم أعده مكانه منذ أن خلعه مني هشام . .
- لم أعد أستطيع التمالك أكثر من هذا سقطت على ركبتي . . بكيت شهقت، هذيت، تداخلت الحروف في بعضها . . لم أعي ما أقول . . لم أقل جملة واحدة يفهمها عاقل . .
- قام والدي من مقعده . . رفع رأسي تجاهه، جلس على ركبتيه أمامي . . وقال . . حاولت تحذيرك . . علمت بأنك تفعلين شيئًا خاطئًا . . حاولت لفت انتباهك لكن لم يعنك ذلك في شيء . . رفع يده يود صفعي فخفت وصرخت وأمسكت يده أرجوه أن يسامحني . .

نفض يده مني في غضب . . . . كنت في هالة بعيدًا عن العالم . . أسمعهم أراهم لكن لا أعلم كيف أجيب أو حتى بما أجيب .

ظل يصرخ وهو يهزني لكن دون جدوى . . أنا حقًّا لا أميز ما تقول يـا والدي . .

أفقت من غيبوبتي بصفعة من كف أبي على وجهي . . صممت لها مـا عدت أسمع شيئًا . . وضعت كفي فوق كفـه . . تسـاقطت دمـوعي راجيـة له . . لكنه سحب يده ودفعني أرضًا . .

أبعده شهاب عني . . تعالى صوت والدي يهز جدران المنزل ،

خذلتني . . وخذلت التي ماتت وآخر ما أهمها هو سعادتك . . عشت عمرًا تكسرين قلب أمك لأجل شهاب . . ثم كسرت قلبه . .

لست ابنتي . . ولست ابنة نادية . . لا أعلم من أي شيء أنت . .

سحب شهاب والدي بعيـدًا ودخـلا إلى غرفتـه . . وأغلقـا البـاب . . خرجت من المنزل لا أعلم لأي أرض أذهب . .

ياريتني مت قبل هذا . .

***

من أصعب دروس الحياة أن يتعلم الإنسان كيف يقول وداعًا . .

عبد الوهاب مطاوع

تجمع إخوتي في استقبالي لدى عودتي . . حضروا لي كل مالذ وطاب من أنواع الطعام، وزينوا المنزل وارتسمت على الوجوه سعادة وفخر بعودتي لطبيعتي وروحي التي فقدتها . .

ابتلعت ذنبي الذي عليّ أن أتعلم إخفاءه ما بقي من عمري . . شاركتهم فرحتهم . . فرغم خسارتي لليلى ولنفسي وانتهاء أيامي مع شاكر إلا أني كنت ممنونة لما وصلت له الآن . . لم أظن يومًا بأني سأعبر هذا المضيق، لم أظن بأن عافيتي سترد لي يومًا .

ومنذ هذه اللحظة سأعود حيث كنت أقوى وأجمل وأفضل . . انتهت أيام شغبي ومراهقتي . .

بعد يوم طويل وحديث مطول مع إخوتي الذين بالكاد خاطبتهم فيما مضى من أشهر . .

ارتميت على سريري في تعب . . غرقت في دموعي . . افتقده منذ الآن فقدته وفقدت صديقة عمري التي عاهدته أن لا أحادثها يومًا أبدًا وأوصاني أن أترك بابًا أغلقناه كما هو مغلق فلا نعلم ما أصبح وراءه في غيابنا . . تذكرت الأوراق التي أعطاني إياها قبل أن يغادر . .

تطايرت دموعي وأنا أركض أخرجها من حقيبتي . .

جلست في هدوء أفتح الورق على مهل . . ما أن لمحت عيني خط يده في الأوراق . . لمعت عيناي وعلت دقات قلبي . .

تنهدت وبدأت أقرأ ما خطه لي بهدوء مصطنع . .

وصاياي العشر لأميرتي . .

السطور التالي وضعها . . هي وصية لك لكل الأزمان وكل الأوقات . . هي جزء مصغر مني تحفظينه فيسكنك . . كلما ابتعدتي أو ضللتي . . عودي لهم . . وستريني من خلالهم . . أنا على عهدي وسأبقى معك للأبد . . بدعائي وقلبي وبسطوري هذه . .

١) لا تحنى جبهتك، ولا يتساقط دمعك الا بين يدي خالقك شكرًا أو شكوى له . . هو من يعلم ضعفك وبيده تغييره . . دعيك من البشر . .

٢) خير الكلام ما قل ودل . . دعي عنك القيل والقال . . وكَثرة ما يقال .

٣) لا تفترضي حسن النية لأحد . . افترضي الأسوأ حتى يعطيك الآخر سببًا لتحسني ظنك . .

٤) في وقوفك مع أي رجل غريب قدري ما يقارب مقدار ذراع مسافة بينك وبينه . . لا تقاربي خطواتك فيظن بك سوءًا ولا تباعديها فيظن منك عدم الاحترام . . يكفيك مقدار الذراع حماية لك لأي حركة مفاجئة منه فلا يمسك . .

٥) لم توضع القوانين ليخترقها أحد . . ضعي قوانينك الخاصة . . لا يتخطاها أحد . . وحين يتخطاها أحد دون علم منه أخبريه . . بعدم قبولك لمثل هذا السلوك .

٦) بذاءة اللسان لا تليق بأنثى مثلك . . لا تشوهي جمالك بالسب ولا بالجلوس في مجلس يملؤه السباب . .

٧) كوني كما عهدتك أنيقة . . وتوجي أناقتك بالرزانة فلا تكثري من ابتساماتك في كل صوب . .

٨) رقم هاتفك . . كعنوان منزلك . . لا يعطى إلا لأهل الثقة . .

٩) إن كنت في مجلس رجال . . فلا تتحدثي بالألغاز مع صديقاتك الفتيات

ظنًا منكم أنهم لا يفهمون ألغازكم . . هم يعونها جيداً . . فلا تحاولي الاستذكاء في مجالس الرجال .

١٠) حافظي على صورتك في أي مكان . . ما بينك وبين ربك هو بينك وبين ربك . . لا تجاهري ولا تتفاخري بما يضرك . . البشر يحكمون بما تراه أعينهم فقط .

١١) إن خرجتي برفقة أحدهم . . فلا تجالسيه نفس الأريكة . . اجلسي مقابلة له . . لا داعي للحميمية يا نادية !

١٢) لا تدعي مجالاً لرجل أن يمدحك كثيراً فإن أخبرك بأنك جميلة وشكرته فسيسترطد ويخبرك كم شعرك اليوم جميل ، وكم ثوبك رائع ، وربما انقاد لما هو أبعد . . تكفيك الابتسامة رداً على مدحه الأول . .

١٣) أفضل ما يقال في أي موقف محرج هو (لا شيء) .

١٤) أعيد تذكيرك . . لا تثقي بأحد . . لا تثقي بأحد . . لا تثقي بأحد . .

١٥) لا تكذبي . . الكذب هو الطريق الممهد لاقتراف الاخطاء . .

١٦) لا تبرري الخطأ لا لغيرك ولا لنفسك أولاً . . اعترفي بخطئك وواجهي عقوبته . .

١٧) لا تخرجي برفقة شاب وحدك . .

١٨) إخوتك هم من ولدتهم أمك يشاركونك نفس الجينات والدم . . غير ذلك لا يطلق هذا اللقب على أي مخلوق آخر في هذه المجرة . . فهو لقب أكبر من أن يعطى لأحد . .

١٩) لا ترفعي توقعاتك بأحد فيخذلك . . توقعي كل شيء من أي أحد . . وما حك جلدك مثل ظفرك فتولي جميع أمرك . .

٢٠) مادامت الفرصة أمامك . . فاستغليها . . لا تتكاسلي ولا تقولي أنجح

غداً . . مادام بيدك النجاح اليوم فانجحي اليوم، وإن كان بيدك الآن فليكن الآن . .

٢١) سأكون دائمًا سنداً لك . .

٢٢) أثق بك . . فلا تحطمي كل ما بنيناه سويًّا . .

٢٣) أنتِ عفيفة ومهذبة . . حافظي على هذا كما هو . .

***

ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت . . ليتها تنشق وتحويني في باطنها ولا أخذل أبي وأمي وحب عمري وأخذل نفسي، ليتها هوت بي قبل أن أهوي بنفسي . .

لم أعلم قلبًا له أن يحتضنني الآن سوى خالتي . . ذهبت إليها وقد أوشك الليل على الانتصاف . .

سقطت على عتبة بابها . . ففزعت ابنتها لما رأت من حالي . . وعلى صراخها . . ظنوا أن أبي أصابه شر . .

حاولوا تهدئتي لفهم ما يجري . .

أجلستها . . وقصصت عليها كل ما حدث . . كل ما ظننت وكل ما أوهمت نفسي بحدوثه كل المشاعر التي أجبرت نفسي على عيشها كل تعلقي بسراب . . كل تقصيري مع شهاب . . كل دموعي وكل ذنوبي . .

كمذنب يناجي ربه . . كعاصٍ يعترف بخطئه في دار العبادة، ويظن بأنه بذلك ينول الغفران . . أزلت عن كاهلي كل ما حملت وحدي . . حدثتها عن سواد أركان روحي . . عن فقداني لوالدتي عن عصياني لها . . عن خوفي من غضبها . . عن حقدي على أبي وغيابه سنين عن حياتي . . عن خوف أمي الغير مبرر ومنعها مني لشهاب . . عن وجع قلبي حين خطبت له

دون وجودها . . بكيت وحكيت حتى دوى صوت الأذان حولنا . . معلنًا نهاية وقت الاعتراف وبداية عصر جديد . . يملؤه الغفران . .

لم تنبس بكلمة خالتي . . كانت دمعاتها هي المجيبة وتربت على ظهري تارة أخرى . .

رافقتني دون أن تتحدث إلى غرفة ابنتها الكبرى التي غادرتها بعد أن تزوجت . . أحضرت لي سجادة وضعتها في اتجاه القبلة . . وناولتني مصحفًا وشرشفًا للصلاة تفوح منه رائحة المسك . .

قالت وهي تكف دمعها . .

" ربما لم تكن أمك أمًّا مثالية . . لكنها كانت تحاول وتخاف يومًا مثل هذا تلوميها على تقصيرها . . وكذلك أبوك ما أبعده سوى خوفه عليك بعد أن يغادراك . . أراد أن يؤمن لك منزلاً يؤيك ومالاً يغنيك عن بشر يهينوك أو رجل يؤذيك فتظلين معلقة به خوفًا من الضياع بعده لم يكرهوك يومًا . .

يوم ولدتي لم تكوني أول حفيدة في العائلة . . لكنك كنتَ الأجمل كنت شقية تمازحين الجميع كان الكل يجتمع ليزور والدتك فقط ليلاعبك كنت كثيراً ما تركضين على حضن والدتك وتخبريها كم تحبينها . . رغم صغرك . . غمرتها بالحنان . . ملأتي روحها . . وطدت علاقتها بأبيك . . لم ينكسر والدك اليوم إلا لكثر حبه لك . . إلا لعظم أمله بك . . إلا لرغبته بأن تكوني أفضل منه ومن أمك . .

كلنا نمر بفصول سوداء في حياتنا . . كلنا فعلنا أموراً يسود لها وجهنا إن ذكرناها . .

لكن لا تدعي كل هذا يحدد ملامحك . . لا تدعي الصعاب تشكلك . . حاولت سابقًا أن تتخطي حزنك وشغلتي مكتب والدتك وأعدت له رونقه . . لا باس ببعض الذلات، هكذا ننضج يا ريم، هكذا ننمو، هكذا

نـزداد حكمـة . . الحكمـاء لم يأخـذوا حكمـتهم مـن العـيش السـهل . . الصعاب والقسوة والابتلاءات للإنسان النـاجح هـي مـا تورثـه الحكمـة . . الغبي يستسلم للاكتئاب ويتمنى الموت . . أو ربما يميت نفسه ، ، وهـي أيـام وستمر . .

لكن عليك أن تحاربي . . أن تصلحي ما قد خبـث مـن روحـك . . أن تعيديها إلى الصراط القويم فتستقيم . .

ودائمًا حيث لا تعرفين من أين تبدئين فسجادتك هي بوصـلتك . . إن أصلحت ما بينك وبين ربك صلح ما بينك وبين عبيده . .

ربك أرحم بك من أبيك ومن أمك . . حدثيه أخبريـه . . لـن يخـذلك يومًا ولن يشغله إجابة غيرك عن إجابته سؤالك . . وحاشا للجبار أن ينكسر عبده بين يديه ولا يجبره . .

تحملي نتائج اختيارك وانضـجي . . أنـت جبـل أتـذكرين؟؟ لا تهـزك الرياح، ولا تفتتك، ووالدك هو شأني أنا سأحَادثه . . لـن يتخلـى عنـكِ لا تخافي . . فقط اعيدي ثقته بك . . "

ارتميت ساجدة على السَجادة مـا إن غـادرت الغرفـة . . شـعرت كـأن الأرض تحتضنني . . ليست سجدة عادية . . والله كأني أرى ربـي . . بكيـت وندمت وعاهدته . . خفت عقابه . . لكني شعرت بحلمـه وأمانـه . . سـكن قلبي، وجف دمعي، وغفت عيني في هدوء لم تعرفه روحي يومًا . .

***

أنا العاشق السيئ الحظ . . لا أستطيع الذهاب إليكِ ولا أستطيع الرجوع إليّ .

محمود درويش

علقت وصاياه فوق مكتبي . . لتقابلها عيناي كل صباح . . لأذكر وعدي له كل يوم . . لا مجال للخطأ هذه المرة .

بدأت الأيام تنقضي تتبعها الشهور . . لم أتزوج من صديقه آثرت أن أبقي خطيئتنا مختبئة . . آثرت أن ألملم شعث روحي من بعده وحدي ، أن أحبه في بعد وصمت ، أن أسعد لسعادته البعيدة ، أن أربط على قلبي ، وأكتم نحيبي ليلاً حتى أغفو . .

أصلحت ما كان بيني وبين ربي . . أصلحت ما أضعت . . وسابقت نفسي ونافستها في الطاعات . . حتى أملأ ما أفرغته وأثقل كفة تهاوت في مقابل كم من الذنوب قابلتها . .

تخرجت أخيراً دون أي عقبات أخرى . . لم أكتفِ بتفوقي ، ولم أتوقف عند هذا الحد . .

انتظمت في أحد المكاتب الهندسية كمتدربة . . لم أتوان عن التعلم ولم أتكاسل يومًا . . وكلما ثبطت عزيمتي قرأت ما أوصاني به فأعود أقوى . .

لم أعد يومًا لليلى . . كانت تصلني أخبارها بين حين وآخر . . كان حالها كما هو في سابق عهدنا من قلب لآخر ومن تجربة لأخرى . . على الاقل هذا ما كان يصلني . .

لم أبالِ . . ولم أصادق بعدها أحدًا يومًا . . فنيت نفسي للعمل ولمساعدة أخَوتي في الاهتمام بأبنائهم . . لم أعلم كم يمكنني أن أحب

شخصًا آخر بعد شاكر بقدر ما أحببت ابنة أختي . . وجود هذه الطفلة الشقية أعاد لي جزءًا كبيرًا من روحي وصخبي . . في وسط زحمة العمل ومحاولتي لتوثيق مقعدي بينهم . . كان هناك المدير المالي لهذه الشركة . . هو سند لي كلما مالت خطاي دون أن أطلب منه . . كان يعرف في الهندسة وكيفية تيسير الشركة أكثر مما درست . . ساعدني كثيرًا دون أي مقابل . . لم أثق به يومًا . . كنت أظنه دائمًا ما يريد بي شرًّا . . لكني كنت آخذ ما استطعت من استفادة منه وأؤدي عملي على أكمل وجه دون أي لقاءات أو أحاديث جانبيه . . فهي علاقة مهنية بحتة . . وكونه يريد تطويري في العمل فأنا شاكرة له . .

حتى انتهت فترة تدريبي التي كانت ثقيلة على روحي كأنما دهرٌ مرَّ . . وأردت مغادرة ذلك المكتب . . لأنتقل لإحدى الشركات الكبرى التي لن ترفض أحدًا بمستواي يومًا . . .

ليلتها فاجأني ذلك الشهم بعرضه للزواج مني . .

ورغبته في لقاء أهلي . . ليزين قلبي البريء وأصابعي الملائكية بمحبس منه . .

هكذا صاغ عرضه . . الذي هز جدران قلبي وذكرني بسر عظيم أخباته عمرًا . .

لم أعطه جوابًا . . فظن هو أن الخجل هو ما يمنعني . .

توصل لرقم أخي ياسر . . وهاتفه طالبًا منه زيارتنا رغبة في مصاهرته . .

وافق ياسر على مقابلته وجاء يخبرني بكل سرور . . ويسألني عن رأيي . .

لم أستطع إجابته هو الآخر واستسلمت للأحداث . . قلت هي مقابلة

لا أكثر . . فلا يجب عليّ القبول . . وعلي أن أمتنع عن الرفض المطلق لإزالة الشكوك وتساؤلات إخوتي التي تحوم حولي يوميًّا .

زارنا هو وأهله . . كان لبقًا خجولاً آسرًا . . يرفع عينيه ما بين تارة وأخرى ليهتز قلبي خجلاً منه ولا أعلم ما يصيبني . .

محبب وذكي ولبق في تصفيف جمله ، حن قلبي له رغم تمنعي . . لم أقابل رجلاً مثله . . لا هو قليل لا يكفي ولا هو كثير يغرقك مللاً وجوده .

أثنى عليه الجميع بعد مغادرته . . غادر في انتظار ردًّا منّا في خلال أسبوع بالموافقة أو الرفض . .

قلبي كاد يخرج من ضلوعي ويوافق على هذا الأمير المتمثل في جسد محاسب . .

ولكن قلبي عقد لساني وأثقله بذكرى خطيته . .

قبَّل ياسر رأسي قبْل أن يغادرنا هو الآخر قائلاً . .

- والله ما تمنيت يومًا رجلاً أفضل منه تكونين له . . يعلم الله كم ارتاح قلبي للقائه . . سألت عنه زملاءه وجيرانه . . الكل يثني على حسن خلقه يا نادية . . ورأيت كيف ينظر إليك . . استخيري . . علَّ الله أن يكتب لكِ من يحفظ جمال روحك يا جميلة .

***

بقيت في منزل خالتي قرابة الشهرين . . دون أن يأتي أبي لزيارتي مرة واحدة . . أخبرته خالتي بأني في منزلها . . ولا أعلم حتى أن كان مسافرًا أم متوجودًا . . منعني خطئي وخوفي أن أذهب إليه . . تمنيت أن يفتقدني . . أن تخبره خالتي بتحسن أخلاقي فيعود لي . . لكنه لم يفعل . . لم تمضِ ليلة لم تشهد جدران وأرض تلك الغرفة على دموعي وشهيقي ، وربما تيقظت من

نومي على بكائي ودموعي تنهال على وجنتي . . مـازال في القلـب غصـة لا أعلم لها صلاحًا . .

ولم تمض ليلـة دون أن أحـافظ علـى صـلاتي، علـى حسـن علاقـتي بربي . . على مطالعة كتب العقيدة التي تحويها مكتبة زوج خالتي . .

ما أجمل العبادات القلبية التي قرأت عنها . . كيـف تحسـن الظـن فيمـا ليس عندك . . كيف يكون إيمانك بما في خزائن الله أكبر . . كيف تثـق بعفـو المنتقم . . كيف تحب الله وتعيش لأجل إرضـائه . . كيـف أن بيننـا وبـين الله رسائل على شكل ظـروف ومواقـف نعايشـها، كيـف أن الله يختـبر ثباتنـا، كيف أن الشيطان يزين لنـا الـذنوب كـي يباعـد خطانـا عـن الحـلال الـذي انتويناه . .

غيرت مني كثيرًا هذه الكتب . . رغم هذا لم أظن أني جـاهزة لأطلـب الغفران من أبي . . فهو بشر . .

لكن ربي أعظم وأحن . .

حتى ذلك النهار الجميل . . أتـتني خـالتي وقالـت . . سـنذهب اليـوم لزيارة والدك . . فاختفت الابتسامة واسود وجهي الذي أشرق برؤيتها . .

قالت وابتسامة تعلو شفتيها . . حين تطول أظافرك يا ريم تقصـينها . . ولا تقطعين أصابعك . .

أعلم أنك هدأتي وهو كذلك . . آن الأوان لتحادثيه . . سـأكون معـك بجانبك لا تخافي . .

أومأت برأسي موافقة . . هي محقة . . لم يبق في عمره قدر ما مضى . . عليّ أستطيع كسب رضائه قبل مغادرته . .

وصلنا إلى منزلي . . مر أمام عينيّ شريط ذكرى . . ضحكي مع أبي . . خلافي مع أمي . . زهور يحضرها شهاب في الخفاء . .

خفق قلبي . . اشتقتهم جميعًا . .

كان أبي جالسًا جامدًا صامتًا في كرسيه ينظر الينا في صمت . . لم أقو على التماسك . . جريت تجاهه بكيت احتضنته . . قبّلتُ كفه . . رجوته أن يسامحني قبلت رأسه . . كنت أسمع نحيبه هو الآخر وهو يحاول إبعادي عنه . .

جلست على ركبتي مقابلة له . . هدأت وأنا أضم كفيه بين يدي . .

- آسفة إني خذلتك . . آسفة إني آلمتكَ . . كنت حمقاء . . سامحني أرجوك . .

لم يجبني وقبّل رأسي وغادرنا لبعض الوقت، تمالك فيه نفسه ثم عاد وقال . .

هو من يحتاج أن تجبري ما قد كسرته به . . هو من بنى عمرًا من الأحلام عليك ثم هددته أنت . . أخبرتني خالتك عن صلاح حالك . . لكن تذكري أن حقوق العباد هي حقوق عباد لا يسامح الله فيها وأنت ظلمته . . لا تحملي ظلمًا يا ابنتي . . قد خاب من حمل ظلمًا . .

أما عني فعودي إلى بيتك، فقد تقاعد أبوك وأصبح عجوزًا تنقصه ضحكتك البلهاء لتنير أيامه . . سامحتك منذ رأيت دمعك ليلتها . . لكن كان لا بد لك أن تتعلمي الدرس وحدك . . لم أستطع أنَ أحنو عليك في خطئك . . أيًّا كان طريقك فأنت ابنتي . . أقومك أغاضبك ثم أسامحك قبل أن تغفو عيني رغمًا عني . .

قمت انهلت على رأسه بالقُبل واحتضنته . . زال جبل من همي . . ظللتُ ليلتها أردد الحمد لله الذي ابتلاني بخطئي ليقومني . . حتى غفيت .

نامت عيناي ليلتها فلم تسكنها أشباح خطئي تحوم حولي تكاد تلتف حول عنقي فتميتني . .

***

أعلم أنه عليّ أن أرفض . . حفاظًا على ستري . . وأعلم أني وإن وافقت فعلي إجراء تلك العملية البغيضة . . وربما لم تنجح وفضحت بشكل أكبر . . ثم أليس هذا خداعًا له؟ ما ذنبه كي أخدعه؟ربما لا يهمه هذا الأمر كثيرًا . .

راجعت نفسي في أفكاري . . كيف لايهمه . . هو رجل ملتزم يبحث عن امرأة شريفة أولاً . . ورجل مصري شرقي ثانيًا . . وإن كان في الأولى مساحة للمسامحة أو العدول عن الذنب فالثانية تغلب على كل رجال هذه العقلية . . فهم يغفرون لصبيانهم ويصلبون فتياتهم لمثل هذا الفعل . .

طردت الفكرة من رأسي ألف مرة . . لكنه كان يعيدها إلى مكان أقرب في كل مرة أقابله في العمل . . وفي كل مرة أعود لابنة أختي . . أتمنى لو لي طفلة من صلبي . . وعند كل ليلة أبيت فيها في غرفتي وحيدة . . أخشى عجزي وموتي وحيدة . . حتى اقتنعت بأن عليّ الاستخارة فعلاً . . صليت صلاة في جوف الليل ناجيت فيها ربي . . فهو من يعلم بأني ما فعلت هذا استهوانًا به ولا رغبة في معصيته، يعلم لأني فعلته وأنا في سكرة من عقلي وقلبي يعلم أني ما فعلته بيقظة، ويعلم أني ما تجرأت على اقتراب هذا الذنب مرة أخرى . . هو وحده القادر على خلق الطريق لي . . استخرت الله في أمري . . وتركت الأمور له وحده . .

أتاني ياسر بعد مضي المهلة المقررة لنا وأردف . .

- هاتفني عريسك صباح اليوم . . يشكو طول انتظاره . . فما قولك؟

- أنت ماذا تظن . .
- نادية . . لست أنا من سيتزوجه . . لكن إن أردت قولي حقًّا . . فأنا لم أسالك يومًا عن سبب رفضك المستمر لكل من أراد خطبتك وكنت أرى تمللك وتجاهلك لهم في كل مرة زارنا فيها أحد . . أعلم أيضًا أن راوية قامت بما يكفي من تساؤلات في هذا الموضوع . . لكني أثق بحكمك . . وأثق بحكمي أيضًا . . ولن أكذب حكمي بأنك تحملين شيئًا ما في قلبك لهذا الرجل . . فلم يكن هو الوحيد الذي فضحت نظراته خباياه . . وأخبرتك من البداية أني أراه شخصًا قويًّا أمينًا ، والقرار لك أولاً وأخيراً . .
- حسنًا أخبره بموافقتنا . . واتفق على موعد للخطبة . .
- تهلل وجهه . . وعلا صوته . . اللهم بارك . .
- خرج ينقل الخبرالسعيد لأختي وزوجته . .
- لكني كنت في غرفتي . . أقرر شيئًا ذا منحًى آخر . .
- فقد قررت وان كان لا بد لي من بدء حياة جديدة . . فلن أبنيها على كذبة . . سأعترف له بكل شيء . . والأمر له إن أراد أن يكمل طريقه معي . . أم سيغادر . . وغرقت في بحر من أدمعي . .

***

بعض البشر مدن . . وبعض المدن متى تغربنا عنها لا يكون لنا إليها حق عودة .

إسلام حجي

قمت صباحًا . . في غرفتي بعد شوق . . اشتقت إضاءة الشمس تخترق الستائر لتوقظني . . اشتقت زقزقة العصافير التي تسكن شجر حديقتنا . .

شاركت أبي إفطاره . . لازال الصمت يحتل جزءًا كبيرًا بيننا بالكاد تحدثنا . . ارتديت ثيابي . . فاليوم عليّ أن أنهي ما بيني وبين العباد . . هاتفت والدة شهاب . . الحمد لله لم تجبني بجفاء . . أخبرتها أني أريد زيارته . . دون علم منه أخاف أن يرفض رؤيتي . . رحبت بالفكرة وأخبرتني أنه سيبقى اليوم في المنزل ينهي بعض أعماله في غرفته . .

قبَّلتُ رأس والدي قبل أن أغادر . . وأخبرته أني ذاهبة إلى منزل شهاب . . هز رأسه دون أن يبدو عليه قبولاً أو رفضًا . .

كنت أرتدي فستانًا أسود . . حدادًا على حالي . .

طرقت الباب . .

. . استقبلتني والدته ببشاشة ورحابة صدر أخذتني بين ذراعيها كأن شيئًا من الأمس لم يكن . . أشارت إلى الدرج وقالت . . هو في غرفته . . تعرفين طريقك . . سخرك الله له وسخره الله لك . . لا تغادري حتى تصلحي ما بينكم . .

ابتسمت لها . . وصعدت الدرج . . كأنه قد طال أو كأن وزني ثقل . . كان مهلكًا . . أردت أن أخبرها أني لم آتِ لأسترده . . أتيت أكفر عن ذنبٍ فقط أنا لا أستحقه . .

طرقت بيد مرتجفة بابه . . تردد صوته من خلف الباب :

- الباب مفتوح يا أمي . .

- تعرقت يداي وأنا أديـر قبضـة البـاب . . فتحـت البـاب وتسـمرت مكاني . . كان منكبًّا علـى مكتبـه موليًـا ظهـره للبـاب . . لم أنـبس بحرف . .

- استدار وهو يقول : ماذا هناك .

لم يكمل جملته ما إن رآني . . كان نحيلاً هزيلاً مسود الوجه . . لم أميـز ملامحه للوهلة الأولى . . فقد كثيرًا مـن وزنـه ورونقـه . . أعيـاه مـا صـنعت به . .

اسود وجهي ليلائم ثوبي . . وأطرقت نظـري إلى الأرض . . ودار بـي كل ما حولي . . تنهدت ودارت عيناي في أنحاء الغرفة . . انعقـد لسـاني . . نسيت كل ما أردت قولـه . . تمنيـت أن ينطـق بـأي شـيء علّـه يـريحني مـن توتري . . لكن هيهات . . قرر أن يثأر لنفسه على ما يبدو . . .

تنفست بعمق ، وشبكت يداي ، ورفعت رأسي تجاهه مرة أخرى . .

هل لي بحديث معك؟

- تفضلي . .

- حملت ذنبي وخيبتي وجلست أمامه على طرف سريره . . التفت إليّ بكل جسده رافعًا حاجبيه . . وقال بكل حزم . . نعم؟

- وقابلت عينيه . . هما حيـث أجـده . . هـو لـيس الجسـد المنتصـب أمامي . . هو تلك الروح التي تهيم بين مقلتيه باحثـة عـن عـذر لـي كي تحتضنني مرة أخرى . .

استعنت بالله وبدأت حديثي . .

شهاب . . أعتذر على هذا اللقاء . . لكني خفت أن لا توافق على مقابلتي . . فلم أجد مفراً . .

بادئ ذي بدء . . أعتذر على كل ما سببته لك من ألم . . أعلم أن الاعتذار لا يمكن أن يعيد شيئًا فقدناه . . لكني لم أعد لأستعيدك . . فأنا أعلم اليوم جيداً أني لا أستحق وجودك في حياتي . .

لكني أتيت اليوم مكفرة عن ذنبي . . فقد حاولت طيلة ما مضى أن أصلح ما فسد بيني وبين ربي، والآن عليّ أن أصلح ما بيني وبين عباده . .

ظلمتك بفعلي . . ونقضت عهود ثقتنا ببعضنا . . لم أبق على وعودنا . . ولم أستجمع قوتي حتى في تلك الليلة السوداء أن أبرر لك أو أهتم بتفسير شيء لك . .

كنت أظن أني أحبه . . كنت أظنه يحبني . . كنت أظنه شيئًا عظيمًا . . وهمني بأنه ملاك . . كان يهتم بي في وقت غبت أنت فيه . . كان يخرج مني أنثى لم أعرفها قبلًا . . فركضت خلف ذلك الوهم ظنًّا مني أنه يحبني ويحب تفاصيلي التي يراها . . حتى تلك الليلة التي اكتشفت أن تلك التفاصيل لم تحرك فيه سوى شهوته وأنه رجل بلا قلب لم يذق يومًا طعم الحب ولا يعرف له طريقًا . . أرادني جسداً فقط . . وأقسم أني ما إن عرفت بنيته حتى غادرته . . لم ينل مني شيئًا . . أعلم أني لست ببطلة لرفضي . . لكني أخطأت . . أخطأت تفسير انشغالك وتغيرك . . أخطأت بصرف عيني تجاه غيرك . . أخطأت بانسياقي خلف وهم بنيته لنفسي وصدقته . . أخطأت بتجاهل نصح أبي الذي لاحظ انشغالي به . . أضعت جهدك وأضعت ما حاربنا عمراً لأجله . . لأجل وهم وسراب . .

أحمل اليوم كفني بين يدي . . فأنا ملك يديك إن شئت قتلي فافعل وإن

شئت إجابتي فافعل . . لا أنتظر منك شيئًا سوى أني أرجوك أن تسامحني . . لا أقبل ولا أقدر أن أعيش يومًا آخر وأنا أحمل ذنب انكسارك . . أرجوك سامح غبائي ومراهقتي وسوء اختياري . . لطالما كنتَ أنت سندي ومرجعي قبل كل رزية أقدم على فعلها . . ليتني أشركتك، ليتني حدثتك . . لكن والله بعدك وقلة اهتمامك منذ أن خطبنا هي من أعانني بعد شيطاني . .

لا ألومك . . ولا أعلم ما يمكنني قوله بعد . .

أعرض بوجهه عني . .

ستظل للأبد مثلي الأعلى في كل شيء، في حبك ومحاربتك لأجلي، في صبرك عليّ وحتى في غضبك . .

قمت من على السرير مغادرة أدافع عبراتي . .

خرجت من الغرفة دون أن يدير ظهره تجاهي مرة أخرى . . قابلت والدته واقفة في آخر السلم وألف سؤال يتسطر في عينيها . .

سبقت دموعي حروفي . . احتضنتها كأنه الوداع الأخير . .

جلست في السيارة أعيد ما قلت على نفسي مرة أخرى . . لمت نفسي كثيرًا على قصر كلماتي وضعفها وعدم ترتيبي . . ليتني قبلت رأسه، ليتني بكيت حتى نفذت دموعي . . ليت برودي وكبريائي تخلى عني وقتها . . حاولت أن أعود مرة أخرى لكن نفسي منعتني . . على كلٍّ لم آتِ لأهين نفسي . . أهنتها بأغلاطها بما يكفي . .

***

ألقى على سلامه الصباحي المعتاد . . لكني وعلى غير المعتاد توقفت فعلاً هذه المرة ورددت عليه السلام فارتسمت على ملامحه الجميلة ابتسامة تشي بالراحة . .

- أود أن أحادثك في موضوع . .
- يمكننا الحديث في وقت الغداء إن شئت؟
- حسنًا . .

لم أستطع إنجاز أي من أعمالي، رصصت ألف سطر وألف حديث في رأسي، ونسجت ألف خيال لردود فعله المحتمله . . طالت الساعتان حتى ظننت أن الزمن توقف . .

حانت لحظة الحقيقة . . فأنا إما أخبره بكل ما مضى وأخسر الشخص الوحيد الذي رأى مني شخصًا يصلح لمثل هذا . . أو أن أصلح ما قد فسد في صمت . .

سألت من عرفت ومن لم أعرف في حكم مثل هذا الوضع، وكان الكل يقول بأنه يجب أن لا يعلم شيئًا وأن تبدأ تلك الفتاة حياتها كأن شيئًا لم يكن .

حتى أني سألت أحد الشيوخ الكبار في بلدتنا عن حكم ذلك . . وأفتى لي أنه يحق لي أن لا أخبره بماضي أبدًا . . واستدل على رأيه ذلك بما استطاع به أن يستدل . .

لكن شيئًا ما داخلي . . أراد أن تكون حياتي دون هموم أو كدر . . دون أن أحمل هم انكشاف أي شيء في يوم من الأيام . . وكنت أعلم يقينًا أنه بمجرد علمه سيغادرني ولن أراه يومًا . .

لكن لا بأس . . لابد لثمن ما أن يُدفع . . وإن كان الثمن أن أبقى وحيدة ما حييت . . . فلا بأس . . يكفيني ما أعطاني شاكر في ليلة . . أقسم أنه يكفيني فوق العمر عمرًا . . .

خرجت مسرعة ما إن حان الموعد وطلبت غدائي المعتاد، وظللت أقلب الطعام في صحني انتظارًا له . .

جاء بوجه متهلل أبيض كالبدر مشرب بحمرة . .

ابتسم وجلس في صمت . . وهو يتأملني . .
وقصصت كل ماحدث . . تعريت من كل الأكاذيب . .
رفعت الستار عن كل ما خبأت يومًا . . لم يقاطعني ولم يغادرني حتى انهيت حديثي . .
لم أتمالك ادمعي ولا نحيبي في كثير من الأجزاء . . ولم أحاول مقاومتها . . فقد كنت أقص قصتي للمرة الأولى . . لأول مرة تخرج من مخبئها . . وكم تمنيت أن تكون الأخيرة . .
أنهيت حديثي . .

- أعلم أنكَ لم تتخيل يومًا أن يكون هذا ما أقصه عليكَ . . ورغم اتفاق كل البشر وربما الشرع أيضًا على أحقيتي في عدم اخبارك بهذا . . إلا أني اخترتُ أن أخبرك . . لم أستطع إخفاءه . . لقد كنت صادقًا في تعاملك معي منذ البداية، وعليّ أن أكون كذلك . . رغم انتهاء كل هذه الأمور . . ورغم أني أعلم كم تغيرت تلك الإنسانة إلا أن هذا ما حدث وهو جزء من ماضي لا يعلمه سوى الله وربما لولا حدوث كل هذا لما تشكلت في هذه الإنسانة التي أمامك اليوم . . لقد عاهدت نفسي ألا أتزوج يومًا ولم يكن صعبًا عليّ رفض الكثيرين قبلكَ، لكن رفضي لك اليوم صعب وهو ما جعل إمكانية إجراء هذا الحديث . . إن أنت اخترت أن تقبل بي بنقصي وعيبي . . فأعدك أن أحفظك في ديني ونفسي ما حييت . . وإن كانت الأخرى . . فلا بأس . . يبدلك الله خيرًا عني . .
- غادرته وأنا أعلم أنها النهاية . . دافعت عبراتي . . وبقيت أعد الأيام في انتظار ما سيكون .

***

ما إن خطوت داخل المنزل حتى ارتميت بين أحضان أبي . . قصصت عليه ما كان مني وما كان منه . . تناثرت عبراتي . . كذبت على نفسي حين قلت أني لم أعد أريده في حياتي . . كنت واضعة وجوده في خانة المضمون . . كنت أظن أنه لن يتركني يومًا مهما فعلت . . ظننت أنه يحبني ويسامحني مهما فعلت . . لكنه كان أقسى مني . . تمالك نفسه طيلة هذا الوقت ليثبت لي أنه بإمكانه الذهاب . . وأني من استهان بوجوده وطيبة قلبه . . بكيت غيابه بكيت حبي له . . تذكرت كم الصريخ والعويل والحروب التي قامت بيني وبين أمي لأجله . . والله إنه كان الحقيقة الوحيدة التي آمنت بها . .

كفكف أبي دمعي . . وقال :

لا تبكي على اللبن المسكوب يابنتي . . إن ضاعت منك فرصة . . فتعلمي مما أخطأتي . . وهناك فرص أخرى ربما تكون أفضل . .

ماكتب لك ستأخذينه رغمًا عن كل شيء . .

عدت إلى غرفتي . . ارتميت على سريري . . أحتاج عمرًا فوق العمر كي أسامح نفسي . . أنى لي أن أطالب غيري بمسامحتي وأنا غير قادرة على مسامحة نفسي . . كيف لي أن أسامحها على ما عذبت به أمي رغم حبها لي ورغم حبي لها . . كيف أسامح نفسي إني أبقيت مشاعري داخلي ولم أخبرها كم أحبها وكم تطمئن روحي حين أسمع صوتها تقرأ كتابًا أو قرآنًا بصوت عال في غرفتها ليلاً والبيت مظلم . . لم أخبرها كم أحب اهتمامها بي واطمئنانها عليّ في بعض الليالي إذا فزعت من نومها . . لم أخبرها كم أحب شعرها ورائحة عطرها، كم أحب ضحكتها التي شاب شعرها ولم تفقد صخبها . .

كيف أسامح نفسي وأنا من حافظت على مشاعري عمراً لأجل شخص واحد تركته ينكسر . . وهو حتى في انكساره عاجز عن تأنيبي عاجز عن الصريخ بي عاجز عن لومي . . أي حب هذا؟! أم هو اللامبالاة . . فما عدت أعنيه في شيء حتى وفر حروفه ومشاعره في أن يريحني بغضبه في أن يصفعني بكلماته . . ليته قتلني بيديه ولم يقتلني بصمته . .

كيف أسامح نفسي بعد أن خذلت أبي . . وأنا ابنته الوحيدة . . كيف وكيف وكيف . . ما بقي من روحي شيء . .

دمرت نفسي . . ما بقي مني سوى حطاااام يتخبط في روحي فيؤلمها ويحدث صخباً أظنه الحياه ولكنه العذاب . . فهو الحياة بلا روح . .

عسى الله أن يأخذني فيرحمهم ويرحمني . . فهو أرحم بي من نفسي . .

***

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ، جاءت محاسنه بألف شفيعِ.

ابن نباتة المصري

مرت الليالي ثقيلة متباطئة لتزيد من عذابي دون أي لقاء، دون أي حديث بيننا، تجنبت الذهاب للعمل.. خفت قراراً متسرعًا منه، خفت تساؤلات يجب عليّ إجابتها، خفت نظراته.. آثرت أن أنتظر ما سيحدث حتى اليوم الذي قد سبق اتفاقه مع ياسر عليه.. قبل جلسة اعترافي.. وحان أخيرًا نهار خطبتنا.. كان كل من في المنزل مستعداً مبتهجًا يتقرب دخول العريس المنتظر... سواي

كنت أجلس في غرفتي أرتجف خوفًا أحتضن وصايا شاكر لي.. يبدو أنها الرفيق الوحيد الذي سيرافقني ما بقيت في حياتي..

أخرجت رقم شاكر من هاتفي ألف مرة لأحادثه، وأغلقت الهاتف ألف مرة أخرى..

بردت أطرافي وازرقت أظافري.. كلما اقتربت الساعة السادسة من الحلول.. كنت أهذي فأؤنب نفسي تارة وأبكي تارة أخرى، وأقنع نفسي بأني على الطريق الصحيح حينًا آخر..

دق باب غرفتي ياسر متنحنحًا..

- ادخل-
- لِمَ لمْ ترتدي ثيابك بعدُ؟
- اَجلس يا ياسر سأخبرك شيئًا..
- تردد قبل الجلوس ثم اقترب وقال بهمس.. إياك أن تكوني بدلتي رأيك؟ الرجل في الأسفل ينتظر نزولكِ!!

- جرى الدم في عروقي وهززته وأنا أصرخ؟
- هو في الأسفل؟
- نعم يرتدي حُلته ويحمل طاقة من الورد، ويسأل أهله عنكِ متى ستحضرين؟
- أنت لا تمزح؟
- أقسم بالله أني لا أمزح!! اجننتي؟
- أنهلت أقبل رأسه ويداه وأحتضنه.. حسنًا سأحضر سأنزل قبل أن يرتد إليك طرفك.. أبقهم منشغلين أعدك أني لن أتاخر..
- غادر العرفة وهو يضرب كفًّا بكف..
- انكببت على سجادتي.. حروفي تتقطع، ونفسي يخونني، لا أعلم أي سعادة تلك التي سكنتني، تجهزت وتجملت في أقل من نصف ساعة.. ونزلت لأقابل ذلك الرجل.. الذي أعلم حقًّا أنه سيكون سندي ما حييت..
- تلاقت عيناناً في وجود الجميع، لكن والله ما كان هناك سوى قلبينا.. انحنى وقبَّل يدي ما إن رآني..
- آمنت اليوم فقط.. أن في هذه الحياة ما يستحق أن يعاش.. واليوم فقط سأعيش له..
- خرجنا بعد خطبتنا أصابعي مجملة بأجمل خاتم امتلكته فتاة يومًا ذَهَبٌ أبيض تتوسطه لؤلؤة محوطة بصغير الألماس.. كقمر حوله نجماته تؤنسه، وعلى جانبه حفر أحرفنا الأولى..
- رافقني إلى رحلة في النيل.. مساحة مائية مريحة، وقمر يتوسط السماء ينير دربنا الجديد.. والهواء يحتضننا ويراقص فستاني حولي..

- امسك بيدي وقبلها ثم قال بصوته الحنون . .

أشعلت حربًا بداخلي . . كلما هممت بالرحيل أراك في كل الوجوه وتزورينني في أحلامي وأراك في كل صوب . . فكرت كثيراً فيما قلت ولم قلته . . وكنت محقة فأنا من حقي أن أحظى بفتاة مغلفة أكون أول من يزيل غطاءها عنها . . أن أحظى بتلك اللحظة السحرية التي يحلم الجميع بها . . ثم فكرت في سبب قولك واعترافك . . كان غيرك ليؤثر السلامة والستر . . فإصلاح هذا الخطأ اليوم أصبح أرخَص من الشرف نفسه . . كانت لتبدأ معي حياة مبنية على كذبه . . وإن صدقت معي في كل صغيرة وكبيرة سنعيشها . . ثم اكتشفت مثل هذا السر يومًا . . والله فإني لا أظن بأني سأقدر على الثقة بها مرة أخرى . .

ثم بسبب شجاعتك . . أصبحت ذات يوم وأنا أبرر لك خطأك . . فأنت أحببته ثم إنك كنت مغيبة العقل . . فكيف لك أن تحاسبي على فعَل غاب عنك فيه عقلك . . ثم قلت هو ماضٍ . . ولا يحق لنا أن نحكم على البشر من خلال ماضيهم . . ووجدت لجملتك صدى في رأسي إنه ربما فعلاً لولا كل ما حدث لما كنت أنت نفس الفتاة التي أرغب اليوم في الزواج منها . . فقررت أني لن أحكم على موقف لا أعلم لو عايشته ما الذي سأختاره . .

علا صوت نحيبي فشد بيده على يدي وأكمل . .

ثم استخرت الله ودعوته . . وكلما استخرت احتللت جزءًا أكبر من تفكيري ومن قلبي فعلمت أنك كنت صادقة في وعدك . . ولم أدر إلا وأنا أقف أمامك اليوم أنظر لأقوى وأطهر فتاة في الدنيا . . يغشاها الخجل من لمسة يدي لها . .

ارتميت في حضنه . . لم يخلق بعد ما يمكنني أن أرد به على مثل هذا وبت ليلتها والحمد لا يفارق شفتي . . .

***

أخرجني من عميق غفوتي صوت والدي يناديني . . قمت مسرعة أنفض آثار النوم عني . .

لأجده يقف في منتصف الصالة ممسكًا شهابًا من يده . . وابتسامة تعلو شفتيه . .

- جاء أحدهم يطلب رؤيتك . .

تلعثمت لا أدري كم مر عليّ في نومي . . رفعت نظري نحوه

تلاقت نظراتنا وتعانقت وتعاتبت وهاجت وماجت وتصالحت في أقل من عُشر الثانية . .

كدت أحتضنه لكنه مد يده مسلمًا . . . مما أخبرني أن حديث عينيه لن يكون هو حديث لسانه .

غادرنا والدي . . وجلس شهاب على استحياء . .

بادرته : كيف حالك؟

- هّلا صمتي وتركتي مجالاً للحديث لغيرك . ؟ أم أنك يجب أن تأخذي كل محاور الحديث لك وحدك؟
- قالها وهو يجاهد ليخفي ضحكَة خرجَت غصبًا عنه
- ضحكت وتوترت زيادة . . لكني والله علمت أنه ما عاد يحمل في قلبه شيئًا تجاهي .
- لست فصيحًا مثلك ولا أملك الكثير لقوله هي كلمتين أخبرت بها والدك قبل أن آتي وسأكررها على مسمعك . . أحبك حبًّا أكبر من

خطئك . . وأقسم أني سامحتك منذ أن رأيتك متسمرة أمام غرفتي كطفلة ترجف بردًا لم تحتاجي أكثر من هذا كَي أسامحك . . أعلم أنك صددته فقد ذهبت إلى منزله وطرحته أرضًا . . في تلك الليلة . . وظل يقسم أنك غادرته ولم يمس منك شيئًا وأنك لا تعنين شيئًا له . .

إن كان ما ادعيتي حقيقي وأنك تغيرتي وعلمتي خطأك . . فأنا كما أنا . . لم ينل مني الخطأ أو البعد، ولم يتمكن من نزعك من قلبي ولو لحظة . . لازلت أريدك أن تعودي إلى مكانك الذي حفرنا في الصخر لأجله . .

نزل على ركبتيه راكعًا :

- أتسمحين بأن تعودي إلى قلبي لتكرميه وتعيدي إليه رونقه وتعديه بأن لا تظلميه أبدًا يومًا؟

انحنيت بجواره دموعي تجيبه . . ونحيبي يهز جدران الغرفة التي هزها نحيبه يومًا . . أعدك أعدك . . لا أعلم كيف تسامحني لكني أقسم أني أعدك .

***

الحياة المليئة بالأخطاء أكثر نفعًا وجدارة بالاحترام من حياة فارغة من أي عمل.

جورج برنارد شو

ارتديت له الأبيض بعد خطبتنا بشهر . . لم نحتج لفترة طويلة للتعارف كان يكفينا ما ممرنا به . . لنعلم أن حبلاً وثيقًا يربطنا . .

. . سكنت السعادة جدران قلبي وعادت لروحي رونقها . .

سافرنا ليلة الزفاف إلى باريس مدينة الحب لقضاء أول ليلة حب لنا . . في النهار التالي من وصولنا أصبت بنزيف لم نعلم له سببًا . .

خفنا كثيراً من سببه رغم انقطاعه بسرعة خاف أن يكون قد ألحق بي الأذى على غفلة منه . . . . ذهبنا إلى أقرب طبيب استطعنا إيجاده . .

فحصني الطبيب . . ثم طلب منا ملاقاته في مكتبه . . ارتديت ثيابي والقلق باد على وجه زوجي رغم محاولته لإخفائه . .

جلسنا في هدوء أمام مكتب الطبيب . . عانق ذراعي وربت على كفي مطمئنًا لي . . ثم سأل الطبيب . .

- ما نتيجة الفحص؟
- أجاب الطبيب بإنجليزية ركيكة .
- أخبرتني زوجتك بأنها كانت أول ليلة لكم سويًّا؟
- هذا صحيح .
- ما حدث أمر طبيعي إذن . .
- كيف ذلك؟
- تختلف كمية الدم الناتجة عن فض غشاء البكارة لدى كل أنثى عن

مثيلتها . . وربما كانت كمية الدم مقلقة بالنسبة إليكم . . لكني لم أجد أثناء الفحص ما يثير الريبة . .

سحبت ذراعي منه وماكدت أنطقها . . فسبقني هو في استغراب وقال :

لكن يا دكتور . . تزوجت زوجتي سابقًا . .

- وجه الطبيب نظره تجاهي وارتسمت ابتسامة على وجهه .

- كم دامت فترة الزواج السابق؟

أجبت في توتر .

- ليلة واحدة . .

ضحك الطبيب وأجاب :

- لا بأس . . هناك أنواع كثيرة للغشاء ويمكن أن تكوني تحملين غشاء مطاطيًّا . . لا يسهل فضه . . في بعض الأحيان لا يفض غشاء المرأة إلا بالولاده، وربما لم تكن العلاقة مكتملة ليلتها وتهيأ لك اكتمالها! لكنها لم تكن كاملة بالوجه الكافي لفض بكارتك، على كل مبارك عليكم زواجكما . . أتمنى لكما أيامًا مليئة بالحب والسعادة . .

ما إن خرجنا من المشفى . . احتضنني ملاكي وقبل رأسي . . كانت عيناه تلمعان . . إنها حقًّا معجزة إلهية . . يبدو أنه هو من هد حصوني رغم كل شيء . .

مرت السنوات الأولى من زواجنا . . مسالمة . . أرهقنا في بداية الأمر . . حتى تطبع كل منا بطباع الآخر . . اختلفنا وتخاصمنا ولكننا اتفقنا على حبنا لبيتنا ولبعضنا . . تعلمنا أن يقدر كل منا الآخر . . حتى أصبحت الحياة سهلة جميلة . . كل منا سند للآخر . . يعينه . .

قام بافتتاح شركة صغيرة للهندسة من أجلي في إحدى الشقق التي يمتلكها . . أخبرني أنه يثق بنجاحي . . وأنه يستثمر في قدرتي . .

دعمني كثيراً في إدارة الشركة حتى أصبحت المجلات تتسابق للكتابة عن ذلك المكتب الصغير الذي بدأ ينافس جبابرة المجال . .

في المقابل . . لم أخذله يومًا . . ولم أتاخر عنه يومًا . .

عاد إلى ممارسة أعماله بعيداً عن المكاتب الهندسية حتى كثرت أعماله وتعاقداته . . وكذلك سفراته التي كنت أرافقه فيها كلما سنحت لي الفرصة . . أو اشتقت الاستيقاظ بجانبه . .

. . بنينا نجاحاتنا سويًّا كنا نعم الأزواج لم يريني بأسًا قط ، لم يشك بي يومًا ، ويعلم الله أني كنتُ أحرص على مشاعره وثقته . . .

كنت أعلم بأن الله أبدلني عما فقدت طيلة حياتي . . وكذا إخوتي كثيراً ما رددوها على مسمعي . .

في إحدى الأيام . .

زارنا صديق شاكر . . في الشركة . . أنور الذي أراد يومًا أن يزوجني إياه ، كان يريد عمل تصميم مطبخ جديد لعش زوجيته . .

قابلته بجفاوة كان شاكرهو من حل في مقامنا . . لكنه ما إن رآني حتى قابلني بجفاء . . واعتذر عن تصميم مطبخه في شركتنا . .

تعجبت من رد فعله . . رجوته لأن يجلس لبعض الوقت . . باركت له زواجه . . ظننت أن هذا ما يزعجه مني . . ربما رفضي الأول له . .

أردت كسر الحاجز بيننا . . فسألته عن احوال شاكر . . فاسود وجهه ومصمص شفتيه في غضب . . ثارت أعصابي . .

فقمت من مكاني وجلست أمامه . . وقلت بنفاد صبر . .

ما بك لا تطيق مني حرفًا . . لم أرك منذ سنوات ولم يربطني بك شيء يجعلك تكره رؤيتي إلى هذا الحد . .

رفع عينيه التي تملؤها الغضب ونظر الي وقال بصوت مرتفع . .
أتدعين عدم المعرفة؟
معرفة ماذا؟ ! أقسم أني لا أعرف شيئًا يدعوك لمثل هذا السلوك . .
توفي شاكر يا نادية . .
لم أصدق ما قال . . خرجت مني ضحكة بلهاء :
- مالذي تقوله . . ماهذا المزاح السخيف
- لا أعرف سببًا يجعلني أمزح بموت أخ لي . .
تناثرت دموعي ورحت أهزه :
احلف بالله أنك صادق؟ كيف هذا؟
نفض جسده وانتفض بعيدًا عني . . وقال في غضب :
أتودين حقًّا معرفة كيف هذا؟ سأخبرك . . قبل فترة ليست بالقليلة غضب شاكرمن زوجته كالعادة . . لكنه أراد الانفصال وغادر بلاده تاركًا زوجته وابنه وعاد إلى هنا لأجلك . . أراد أن ينهي كل ما بينه وبين زوجته ويتزوجك . . صدقيني حاولت ثنيه عن كل تلك الأفكار . . إلا أن تشبثه بك كان مرضيًّا . . أخبرته أن مشكلته مع زوجته هو تعوده عليها مل وجوده مع نفس الشخص مدى الحياة . . وأن هذا سيصيبه معك عاجلاً أم آجلاً . . إلا أنه أصر . . لم يعرف لك طريقًا . . فقرر أن يبيت تحت منزل أهلك . . عسى أن يقابلك أثناء عودَتك أو خروجك . . رافقته في محاولة أخيرة لإقناعه بالعدول عن قراراته . . وبالفعل رأيناك خارجة من منزل أهلك . . تتأبطين رجلاً وبطنك المنتفخة تسبقك . . ثار وغضب وكاد أن يخرج ليضربك حتى يسقط منك ما تحملين في أحشائك . . هدأته حتى تواريتم عن أنظارنا . . غادرني ليلتها ولم أره بعدها . . لم يعد إلى بيت أهله هنا ، ولم أجده عند أي من أصدقائنا ولم يجب أيًّا من اتصالاتي . . في منتصف ليلة

سوداء كيوم قابلك . . أرسل لي رساله (إن قابلتها يومًا أخبرها أني أسامحها وأني أحبها)

في صباح اليوم التالي هاتفني أخوه ليخبرني أنه توفي نتيجة جرعة زائدة من مخدر . .

عليك اللعنة . . ليتك لم تكوني يومًا . . ليته لم يعرفك أبدًا . . وإن سامحك هو فسأظل أدعو عَليك ما حييتُ . .

غادر المكتب . . تسمرت مَكاني . . مر شريط حياتي أمام عيني . . كان يحتاجني ولم أكن له . . هو الوحيد الذي كان لي في أحلك الليالي . . هو من أنقذني من دائرة الضياع . . هو من جعلني قادرة أن أتزوج وأبني أسرة . . كنت أنا سبب في ضياعه وضياع أسرته ! ! زاغ بصري وتقطعت أنفاسي وعلا صوت ارتطام رأسي بالأرض . .

***

عادت لي روحي بعودته . . لم يعنني شيئًا مما حققت في غيابه لم أكن أحتاج للكد بالعمل ولا لكل تلك الساعات التي كنت أقضيها في التجمل لشخص آخر . . كنت أحتاج للاحتواء . . لدفء عائلة . . لاطمئنان بأنه لن يغادرني يومًا . . بأنه يثق بي بأنه يحبني وإن كنت طفلة يحبني رغم ضعفي ويعينني لأكون قوتي . .

عادت المياه إلى مجاريها بيني وبين أبي . . عوضنا سنينًا من البعد والسفر والرحلات . . عوضنا عمرًا كانت أمي هي المسؤولة عني . . هي وحدها من يعرف ما أحب وما أكره . .

عرفت أبي من جديد . . صححت كل ما عطب من علاقات اجتماعية بيني وبين الناس . . فلم يكن هناك من داعٍ لعزل نفسي عن كل أصدقائي

لمجرد أنهم لم يقوموا بما وجب في العزاء معي أو لم يحتملوا كآبة مظهري . . كان بإمكاني تغيير ترتيبهم في قلبي . . والإبقاء على التسطح في المعاملة . . كي لا أجد نفسي وحيدة مرة أخرى . . أيًّا كانت الأسباب . . كما أخبرني أحدهم مرة .

الفراغ عدو المرء . . حتى وإن كان فراغًا من الأصدقاء . .

أقمنا زفافنا أمام قصر البارون . . احتفلت البلدة كلها معنا . . حتى السماء أضاءت ليلتها بآلاف الألعاب النارية . . كلفنا الكثير . . لكنها كانت ليلة تستحق كل أموال العالم ، ليلة ظننا أننا لن نصل إليها يومًا . .

أقمنا مع والدته في منزلهم الكبير . . أحبتني كابنة لم تمتلكها يومًا . . وأحببتها كأم فقدتها على غفلة مني . .

عانيت من بعض المشاكل الصحية مؤخراً . . فطلب منا الطبيب إجراء بعض التحاليل . . أرافق شهاب اليوم لإحضارها . .

أشعر بالتوتر كثيراً . . وأشعر بالغثيان أيضًا . . ربما قيادته وربما ضوء الشمس . .

تذكرت ذلك المجلد الذي لا ينتهي . . أخرجته من درج السيارة . . بضع صفحات تبقت . . يالك من فنانة يا أمي . . لا أعلم كيف سطرتي تلك السطور . . لم أقدر على إنهائه جملة واحدة . . عشت كل جزء فيه على حدة . . أحببت استخدامك لأسامينا لتشابهات حياتنا . . ربما أنشره نيابة عنك يومًا ما . . فلننه تلك الصفحات . . فذلك العمل الروائي من أجمل وأقرب ما تلمسته يداي إلى قلبي . .

***

وإنك عمرٌ والعمر مرة بالعمر!

بدر عبد المحسن

أخبرت زوجي ما كان من صديق شاكر يومها بعد أن استيقظت في المشفى.. لم أقدر أن أخفي نحيبي.. لم أقدر أن أخبئ ألمي.. حاول تهدئتي وتذكيري بأني لازلت أستطيع أن أهديه دعاء وصدقة.. بأني أستطيع أن أذكره طوال عمري، وأدعو له بأن يحظى بالسعادة التي لم ينلها في هذه الدار.. ربما أبكاه بكائي في بعض الليالي أيضًا..

لم أنسك يا شاكر أبدًا.. أهديتك عشرات العمرات.. وآلاف الجنيهات وملايين الدعوات.. أرجو الله أن يرحمك، أن يغفر لك خطأك، أن يغمد روحك جنته.. وأن يسامحني أن علقت قلبك بي.. وأن يغفر لي خيانتي معك..

حاولت أن أتماسك وأدعي الصلابة سنينًا طويلة..

لكني والله كنت قد مزقت وما لمثل هذا من التئام..

حتى تلك الليلة.. التي أخبرتني أختي أن ابنتي تحب صبيًّا. وأنها حدثتها عن كل ما يجري بينهم منذ البداية. تهلل وجهي علمت أن ابنتي كبرت وتذكرت أول أيامي في الحب، لكنه سرعان ما اسود ما أن نطقت أختي اسمه "شهاب شكري الشافعي".

لم يكن هناك مجالاً لتشابه الأسماء.. هو ش ش ش شهاب شكري شافعي.. لطالما تفاخر أمامي بأنهم ملوك حرف الشين.. ومن أجل مفاخرته واقتداء به سميتك ر. ر ريم رفعت.

نعم.. تحب ابنتي ابن الرجل الذي مات بسببي.. ياويلي..

ولم يسكتني يومها شيء عن كل ألفاظ الاعتراض، وعن الصريخ بأنها لن تكون يومًا له مادمت حية..

كيف لي أن أضع يدي بيد زوجة الرجل الذي قتلته.. أضاق بها العالم.. لم تجد سواه من الرجال..

أمرضني عنادها.. ولم أقو يومًا على إخبارها.. أمرضني حبها له..

لم أعلم ما عليّ أن أفعل.. لم أعرف سوى منعها عنه اختياراً.. لم أقدر يومًا على مصارحتها، ولم أقدر على مصارحة أبيها بما علمت، أحمد الله كل يوم أني لم أصارحه يومًا باسمه..

لم أقدر على استشارته.. كل قراراتي بمشاركته لا أعرف ماذا أفعل في أمر دون قوله..

كتمت بداخلي حتى مرضت.. أردت رؤيته لمرة.. اشتقت إلى شكري واشتقت إلى شهاب.. عرفته قبلك يابنتي واحببته قبلك..

هو جميل راق مثقف كأبيه.. ورث عيناه.. وضحكته وأسنانه المفلجة أعاد لذاكرتي شكري بكل تفاصيله أعاد لي طيب رائحته.

أعاني من نزيف دائم في رحمي.. وتكتلات لا نعلم لها سببًا.. ضعفت مناعتي مؤخراً.. أعلم أنها النهاية.. أعلم أني لن أصمد أكثر من هذا.. لكني قد أديت رسالتي.. لم أرد يومًا سوى سعادتك.. وآسف أني لم أقدر على تحقيقها.. لا تكرهيني ولا تكرهي نصحي لكِ وإن كان في نظرك خاطئا.. لكل قصة جانب آخر دائمًا..

إن قرات هذا يا بنتي يومًا.. فهذا يعني أني تواريت بين التراب..

يمكنك الآن أن تتزوجيه.. فلن أكون شاهدة، ولا منافقة، ولن أتصنع البراءة أمام أمه التي لا ذنب لها فيما فعلت.. أحبيه وأحبي أمه..

عوضيهما عما فقدوه بسببي . . كوني أنت نوراً في طريق أظلمه خطأ مني . . وادع الله لي أن يغفر لي ذنب تحطيم هذا البيت . . وان يغفر لشكري . .

سامحيني يا ابنتي . .

***

تعيش الحقيقة في خضم الخديعة

فريديش شيلر

زاغ بصـري أنهيـت الصـفحات، ويـداي تتعـرق. . تـوتري يـزداد لا ينقص، ونبضات قلبي تنبض في كل جسدي. .

قاطع توتري صوت شهاب وهو يصرخ (مبروووووك أنتي حاامل)

تمـــــــــــــت

ضحى خطاب

شكر خاص

شكر خاص لشركة archmallo وصاحبها م/ عُمر شريف
وامتناني لكل من كان عونًا بأن ترى هذه السطور للنور . . .
ما كنّا لنكون لولا الله ثم أنتم . . .